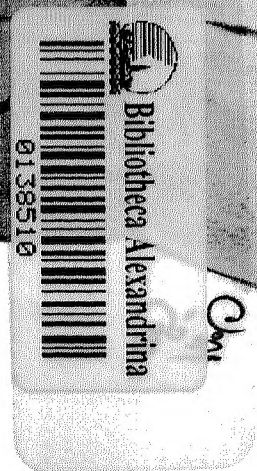


الدار المصرية اللبنانية





مفكرون وقضبان  
حكايتى .. مع السجن

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة  
الطبعة الأولى  
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



الدار المصرية اللبنانية  
طبعة - نشر - توزيع  
١٦ شارع عبد الحفيظ لوت - الهرم - القاهرة - ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٢٦٧٤٣ - ٣٩٠٩٦٦٨ - ورقاً: دار خالوك - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3926743-3923628 FAX: 3999618 CABLE DARBHADO



حنفى المحلاوى

# مفكرون وقضبان حكايتى .. مع السجن

الحكاية الاولى: مصطفى أمين

الحكاية الثانية محمود السعدنى

الحكاية الثالثة: د. عبد الصبور شاهين

الحكاية الرابعة: د. ميلاد حنا

الحكاية الخامسة: لطفى الخولى

الحكاية السادسة: جمال الغيطانى

الحكاية السابعة: صلاح عيسى

الحكاية الثامنة: جمال بدوى

الحكاية التاسعة: مختار السويفى

الناشر

دار المصير رتبة البناية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ

( صدق الله العظيم )

( سورة يوسف )  
جزء من الآية ( ٣٣ )



**مفكرون وقضبان:**

## **حكايتى مع السجن**

**كم مرة....**

**دخلت فيها السجن ؟ !**

رأيت من حقى وقبل بداية رحلتنا داخل عقول المفكرين الذين هم ضيوف هذه الصفحات.. أن أتساءل .. (كم مرة .....؟) . ولكننى سرعان ما أدركت خطأ السؤال .. الذى ربما ستكون الإجابة عليه خطأ أيضاً لأننى أعرف طبقاً للقواعد العامة أن مابنى على خطأ فهو خطأ .. ومع ذلك وجدت بداخلى إصراراً غريباً لتوجيه هذا السؤال .. رغم اقتناعى الكامل أنه سوف يثير فى النفس الشجون ، ويسترجع من اللاوعى الألم والفرع..

— كم مرة دخل هذا المفكر أو ذاك السجن ؟ وعاش خلف القضبان ؟

والعبرة من الحصول على الإجابة لم يكن معرفة الزمن، أو المدة التى قضاهم هناك أو هنا ، بقدر ماكانت الرغبة فى معرفة الكثير عن الماضى القريب . فكنت على يقين من أننى حين أوجه هذا السؤال على الرغم من ألفاظه التى لايعترف بها المفكر .. فسوف أحصل على القدر الكافى من خلاصة التجارب التى عاشها أو سجلها المفكر سجين القبضان .. الذى وجد نفسه بين لحظة وأخرى وسط عالم غريب .. ربما لم يتصوره مرة واحدة فى كتاباته وأفكاره ..

ولاشك أن الآلاف غيرى .. بل إن شئت قل الملايين الذين هم في شوق الآن .. يريدون أن يعرفوا الإجابة على السؤال .. والظروف التى واجهتنى نفسياً حين كنت ألقى به على ضيوفي عبر هذه الصفحات .

بداية .. وللأمانة وللتاريخ .. أسجل هنا .. وبقلمى .. أننى عبر رحلتى الطويلة التى استغرقت كل هذه الأوراق .. بعدما نقلت فوقها أحاسيس هؤلاء المفكرين، وسجلتها فى جلسات طويلة .. قد شعرت أنهم أى المفكرون فى حاجة مثلى إلى توصيل انطباعاتهم عما لا قوه فى داخل السجون .. بالرغم من أن كل واحد منهم قد عبر عن فترة وجوده خلف القضبان بطرق شتى ، وبآلاف الصفحات .. وبألوان متعددة من أدوات الاتصال ما بين رواية أو قصة أو مسرحية وسيناريو فيلم وما بين كتاب مطبوع .

وكانت البداية دائماً - عبر أسلاك التليفون - ومن قبلها كنت أعيش لحظات تعيسة .. أبحث خلالها عن أرق الكلمات التى سوف تكون سببى لإقناع محدثى على الخط الآخر بالموضوع وجديته .. ومن ثم الفوز بقاء نتحاور فيه وندخل خلاله سوياً ولو للحظات إلى زنزانة .. وكثيراً ما أنجح .. وقليلاً ما أفشل .. وأنا كلى تقدير لهؤلاء الأعلام المفكرين الذين قبلوا أن يفتحوا لى قلوبهم وصدورهم .. ولم يصبنى اليأس ، فتكرار المحاولة يعنى المزيد من الجدية .. والحمد لله .. اقتربت كثيراً من عالم هؤلاء العظماء الذين فى غفلة من الزمان وضعوهم وراء القضبان مع نخبة من المجرمين والقتلة .. وتحدثنا كثيراً .. وعدت إلى نفسى مراراً أسأل عن المدخل والمخرج .. وأجرى وراء كل حرف أعيد سماعه من الشرائط العديدة التى سجلت عليها هذه الحوارات .... والتى هى خلاصة ماكتبته فوق هذه الأوراق.. مستعيناً بتلك الكتابات التى سطروها فوق أوراق دفنوها داخل كتب عديدة .. محاولاً أن أعيش الجو النفسى الذى كان يسيطر آنذاك على هذا المفكر أو ذاك .. لأننى أجلس الآن أمامهم بعد مرور عشرات السنين على هذه التجربة .. ومطلوب أن أسجل ما بداخلهم بأمانة وما أشعر به أنا أيضاً بأمانة .. وما سوف تشعرون أنتم به أيضاً .. وكان شاغلي الشاغل أن أحصل ولو حتى على عناوين هذه المؤلفات أو السطور التى كتبوها ولو فوق جدران الزنزانة ..

ومن أجل تأكيد منهجى فى التفكير والكتابة والتعريف بضرورة أن يعيش المؤلف

لحظات الآخرين حين يكتب عنهم .. ماسمعتهم من أحدهم وهو يروى عن واقعة لمفكر مصرى دخل السجن .. وأبعدوه في الواحات حيث الصحراء .. وجردوه من كل شيء حتى اسمه .. وحولوه إلى شيء يتحرك ويحمل رقماً .. هذا الفنان المفكر طبقاً لرواية الراوى .. رغم أنه عاش حياة صعبة كلها تعذيب وتعريب فقد كان في أوقات فراغه يحن إلى مايفكر فيه ويسعى جاهداً إلى أن يخرج فكره فناً مكتوباً أو مرسوماً.. ورغم عدم وجود الأدوات التى تعينه على ذلك فقد استمر يحفر بأظافره فوق باب خشبى مهمل ألقوه في فناء السجن .. ولما اكتشفوا حيلته .. بعد أن أكمل حفر اللوحة .. قذفوا بالباب في النار .. واعتبروا أن ذلك هو آخر مطاف تقييد المفكر الفنان وحرمانه من أدوات التوصيل التى اكتشفها هو رغماً عنهم .. ولم يصبه اليأس فقد لجأ إلى باب الزنزانة نفسها .. ومع ليالى القمر وآهات التعذيب ودموع الفرح والضيق .. أخذ يحفر ويحفر .. بأسنانه وأظافره وأخيراً .. وبعد سنوات تحول الباب إلى لوحة .. وتحولت جدران السجن إلى متحف ..

وبعد سماع هذه القصة .. سعيت للقاء هذا المفكر الفنان .. لكننى عرفت أنه رحل عن عالمنا .. وعلى أية حال لقد تعلمت منها الكثير وسعدت حين علمت أن باب الزنزانة معروض الآن في أحد المعارض الفنية .



وكانت تلك هى المرحلة الأولى .. لقاء وأكثر من اتصال .. إقناع .. ثم حوار وتسجيل ولقطات تذكارية .. وكلمات توجع العقل قبل القلب .. أما الشيء اللافت للنظر أننى في كل لقاء مع مفكر عملاق .. كنت أشعر بأن واقعة السجن أو الحبس أو الاعتقال .. بالنسبة له كانت واقعاً بدأ مؤلماً ثم تحول إلى حلم جميل كانت تتخلله لحظات رعب بين الحين والحين .. عندما تتدخل أدوات التعذيب ولكلمات الزبانية .. فقد اعتبرها معظمهم فترة لإعادة الحسابات واختبار النفس .. وبداية الانطلاقة نحو التمسك بالفكرة والموت من أجلها ، بل وكانت بالنسبة لبعض هؤلاء فرصة اللقاء والمحاورة والتأمل .. مع أنه كان ينقصها أدوات التعبير من أوراق وأقلام .. تلك المشكلة التى نجح فى التغلب عليها



المفكرون والفنانون الذين كانوا يعبرون عن واقعهم حتى بدمائهم ويستخدمون القش في رسم هذا الواقع .. كما كانوا يحفرون بأصابعهم وأسنانهم .. وأظافره على الجدران.

\*\*\*

والسؤال الثانى الذى رأيت أن أعرف الإجابة عليه مثلكم .. هو (لماذا .. هؤلاء؟). لأن المعرفة وكما يقول أصحاب الفكر هى بداية الطريق نحو الفكر ، فما دمنا نريد أن نعرف فسوف نبحث .. ومادمننا نبحث سوف نعثر على الحقيقة أو لا نعثر عليها .. عندئذ تبدأ مرحلة التفكير حتى نستطيع أن نميز بين ماهو حقيقى وماهو غير حقيقى.. والمعرفة التى أقصدها محددة بكلمات السؤال .. وهى تختلف عن المعرفة المطلقة .. أو المعرفة التى ليس لها حدود .. والتى لها أسماء متعددة فى عالم الفلسفة والاقتصاد .. والتخصصات العلمية والأدبية الأخرى .

لكننى سرعان ماعدت مستدركاً كلمات السؤال .. قبل الوقوع فى الخطأ فكيف أسأل عن لماذا هؤلاء .. ؟ .. وأنا لم أبين من هم ؟ إذن علينا منذ هذه اللحظة .. أن نعرف ضيوف هذا الكتاب .. عددهم .. اتجاهاتهم .. أفكارهم .. الدور الذى لعبوه .. ميولهم السياسية والاجتماعية .. وليس المقصد أن نصنفهم .. فالفكر يرفض التصنيف .. بل علينا أن نتعقب خطواتهم وكلماتهم ولانبغى من وراء ذلك سوى أن نعيش معهم وبهم داخل الزنزانة أو خارجها .. نعرف كيف كانوا يفكرون ؟ .. وكيف كانوا بيننا رغم وجودهم هم داخل جدران سوداء وأسوار عالية ، وحراسات مشددة ؟ ..

\*\*\*

لقد وقع اختيارى على مفكرين مصريين معاصرين .. مازالوا يمشون بيننا تاريخاً .. مكسوا باللحم والعظام القادرة على الحركة والتحمل رغم أن معظمهم بلغ من العمر عتياً .. أنثروا حياتنا الفكرية فى مختلف نواحيها .. فمنهم الصحفيون والأدباء والكتاب والعلماء .. وأساتذة الجامعة بدون تفرقة .. وكنت فى حيرة من أمرى حين قررت الاختيار . لأننى لا بد وأن أقع فى المحذور قبل أن أعيش الفكر معنى ولفظاً ودوراً .. وهذه قصة أخرى .. فقد جاوزت حدود الأوراق وعشت لحظات طالت وقصرت من

أجل أن أبحث عن معنى الفكر ودور المفكر .. ووجدت ضالتي في قواميس اللغة ودوائر المعارف ، وعلى أفواه كبار مفكرينا هنا وهناك .. ولن أسوق ماعثرت عليه في هذا المجال .. إلا حين نستكمل سوياً بقية الإجابة على السؤال ( لماذا هؤلاء ؟ )



والاقتراب من مجال الإجابة على السؤال : لماذا هؤلاء بالذات ؟ سوف يدخل بنا في عالم التاريخ ويجعلنا نطوف داخل دروبه القديمة والمتوسطة والحديثة .. بحثاً عن المفكرين الذين عاشوا تجربة السجن أو النفي أو الاعتقال ولكننا أثرنا ألا نبتعد كثيراً .. لأن التاريخ بصفحاته الصفراء المتهالكة يحمل ألواناً من تجارب هؤلاء المفكرين الذين كانت تهمتهم الوحيدة أنهم كانوا يفكرون ويحلمون بواقع وحياة جديدة .. ولا هدف لهم في الحياة سوى الأخذ بيد أفراد مجتمعهم للسير نحو الأمام .. وكثيراً ما أدى بهم الخلاف مع رجال الحكم إلى غياهب السجون .. إن تجارب هؤلاء المفكرين تملأ آلافاً من الكتب التي تعد سجلات تحمل علامات صفراء وحمراء وسوداء .. هي نقاط يتوقف عندها الزمن أسفاً وحزناً .. لأن معنى أن نزج بالمفكر داخل السجون أنك تحرم المجتمع من أفكاره .. ولن أناقش هنا .. هل تكون هذه الأفكار ضد المجتمع أو معه .. لأن المفكر لا شاغل له فيما يفكر سوى تقديم عصارة فكره في ألوان من التعبير لصالح الجماعة .. إلا قليلاً .. فنادر ما تجد طائفة من هؤلاء يسعون إلى خراب المجتمعات .. إلا إذا وقعوا تحت وطأة الدعاية التي تلون أفكارهم وتلوثها .. ولا يحدث مثل ذلك إلا حينما يصطدم هؤلاء بالسلطة ورجال الحكم .. عندئذ يصورونهم شياطين بأجنحة وأنياب مصاصي الدماء ..

والصدام بين رجال الفكر وأصحاب المصلحة من رجال الحكم .. قديم قدم الإنسان على الأرض .. ولا يخلو عصر من العصور القديمة أو الحديثة من قصة أو قصص تروى لنا كيف كان مصير هؤلاء المفكرين الذين يحلمون بالتغيير والذي كان حتماً ينتهي بالموت حرقاً أو تعذيباً .. والتاريخ بصفحاته المتهالكة يحوى هذه الحكايات لمن يريد المزيد .. ولكننا سوف نتوقف عند ذكر المفكرين المصريين المعاصرين الذين رحلوا عن عالمنا .. ولم يبق لهم بيننا سوى كلماتهم وعصارة أفكارهم .. هؤلاء المفكرون الذين

عاشوا تجربة السجن والاعتقال .. ولسوف نذكر بعضهم .. ولا يعاتبنا أحد إذا أغفلنا مفكراً منهم .. لأن ذلك بالفعل لن يكون عن عمد .. فأنا أقف منحنيًا لهؤلاء الذين حملوا مشاعل الفكر وأضاءوا بالكلمات أنوار الواقع والمستقبل .. ولكل منهم دوره البارز الذى لا يزال يعيش بيننا .. ويكفى أنهم قد ودعوا عيش الحياة الهادئة و نذروا أنفسهم وأقلامهم وعصارة أحلامهم لنا .. وللأجيال القادمة .

ولسوف نحاول أن نرسم دائرة .. وبها أركان متعددة .. نلصق بكل ركن فيها اسم أحد هؤلاء الأعلام فى الفكر المصرى المعاصر .. الذين عاشوا تلك التجربة .. وقضوا أياماً وراء القضبان .. ولن يكون هناك ترتيب مسبق .. فإننى أعود وأكرر أن المفكر الحق .. لا يعنيه أن يكون فى المقدمة أو فى المؤخرة من حيث الترتيب .. لأن أعمال المفكرين دائماً تتقدم وتعلن عن نفسها حتى ولو حاولوا إخفاء أو طمس أعمالهم .

وبالحديث عن أسماء هؤلاء المفكرين الذين لم يسعدنا الحظ من أجل استضافتهم عبر صفحات هذا الكتاب مثل غيرهم من المفكرين الأحياء .. نكون قد أكملنا إجابة السؤال عن السبب الذى حدا بنا إلى هذا الاختيار .. فأنتم معى، أننى كنت على حق ومازلت فى اعتقادى أن المفكرين الأحياء .. سوف يثرون التجربة ويضيفون إليها لقطات حية قد تكون غير حاضرة .. ونسوا تسجيلها داخل أوراقهم القليلة التى عبروا بها عن أيام القضبان .. أضاف إلى ذلك أن اللقاء مع هؤلاء المفكرين الأحياء .. أضاف عنصر الحيوية الذى نتج عن الحوار المتواصل .. والفرق شاسع بين أن نتعامل مع كلمات مكتوبة صماء .. وبين أن نتعامل مع أصحاب هذه الكلمات وجهاً لوجه .. وبمجرد أن نذكر أسماء مفكرينا الذين رحلوا عن عالمنا .. سوف نشعر بالفرق .. ليس من حيث القيمة والهدف والمعلومة أو الفكرة .. ولكن من حيث الحيوية التى تنبض بها كلمات هؤلاء، فإذا ما وضعت أصبعك على كلمة لمفكر لا يزال يعيش بيننا .. حتماً سوف تشعر بأن الدماء لا تزال تجرى فى حروفها .. والعكس صحيح .. فكلما غير هؤلاء تجدها باردة .. حيث تجمد الدم فى حروفها ولا نقل أنها قد ماتت ، فالأفكار ووسيلتها الكلمة لا تموت أبداً .. ولكن ربما يتغير مفهومها .. ومع ذلك تظل نفس الكلمة نابضة بما فيها من فكرة .

لقد أخذتنا الشجون بعيداً .. عن ذكر أساتذتنا من المفكرين الذين رحلوا عن عالمنا .. وحتى لانتهم بداء النسيان الآن .. علينا ذكر أسمائهم مع الإجلال والتقدير .. لأن أعظم ما في الحياة هي الكلمة الطيبة ومصدرها الفكر .. فالكلمة الطيبة أبداً لا تكون فارغة .. بل هادفة . ويأتى في مقدمة هؤلاء المفكرين المعاصرين .. الذين عاشوا تجربة الغربة داخل جدران السجون ووقفوا ساعات طويلة بالليل والنهار خلف القضبان الحديدية عباس محمود العقاد .. الدكتور لويس عوض .. الدكتور يوسف إدريس .. سيد قطب .. الشيخ حسن البنا .. توفيق دياب .. الكاتب الصحفي محمد التابعى وآخرون ..



ومن الأمور الإجرائية التي صادفتنى وأنا أتحدث عن تجربة سجين الفكر .. هو كثرة ترديد عدة ألفاظ .. تصب جميعها في معنى واحد هو تقييد حرية الفكر .. فكثيراً ما سمعت ألفاظاً مثل «الاعتقال» «التحفظ» «السجن» .. وكلها تدور في فلك واحد .. أقصد أنها تؤدي إلى نتيجة واحدة مؤداها أن يتم إبعاد المفكر عن واقعه .. وحرمانه من الحرية والحياة وأدوات التعبير أيضاً .. واستخدامى لكلمة الأمور الجنائية .. هي بالطبع في محلها .. لأننى أتحدث بالفعل عن إجراءات قانونية تصاحب عادة الزج بالمفكر وراء القضبان .

ولكن إذا ما فتحنا المجال لحديث القانون وإجراءاته .. فلن تسعفنا هذه الصفحات الإقلية .. لذا سوف نمس هذا الموضوع مساً سريعاً .. حتى تكتمل وظيفة المعرفة لدينا .. ونكون قد وفينا المفكرين حقوقهم .. وإلا كيف نتحدث عن السجن والقضبان ولا نتحدث عما يصاحبها من إجراءات ..

تقول كتب القانون الجنائى .. إن السجن يعنى إحدى العقوبات المكموم بها فى الجنائيات مثل الإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة .. أما الحبس فهو إحدى العقوبات المكموم بها فى الجنح .. بالإضافة إلى الغرامة التى لاتزيد على مائة جنيه .

وبالتالى السجن والحبس يعنيان فى أصولهما تقييد الحرية .. إلا أن السجن يعد درجة أشد من حيث نوع العقوبة وطريقة المعاملة .. لأن السجن فى العادة يرتبط

بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة .. ويكون ذلك في الليمانات إلا إذا كان أقل من ثلاث سنوات ..

كما أن السجن والحبس بالإضافة إلى ذلك هما عقوبتان مرتبطتان بحكم قضائي صادر عن قاضى المحكمة ومشمول بالنفاذ.

بخلاف ذلك هناك ما يسمى قانوناً بالتحفظ أو الاعتقال ، وهو إجراء يسبق المثول أمام المحكمة تقوم به جهة الضبط الممثلة في رجال الشرطة لضمان عدم هروب المتهم . وعادة لايجوز أن تزيد مدة التحفظ هذه على ٤٨ ساعة .. وهو مايسميه المشرع في القانون الجنائي «بالقبض» أما في القانون العسكرى فإن مدة التحفظ بالنسبة للعسكريين لايجوز أن تزيد على عشرة أيام ..

أما من حيث أهمية اتخاذ مثل هذا الإجراء وفقاً للقانون الجنائي .. فهى مجرد مجموعة احتياطات الهدف منها التحقق من شخصية المتهم .. ويجوز فيها حجز المتهمين ووضعهم في مكان أمين تحت تصرف رجال الشرطة ..

وهناك أيضاً مايسمى في القانون بالحبس الاحتياطى .. وهو إجراء يتم تنفيذه أو اتخاذه بعد مثول المتهم أمام المحكمة .. وهو قد يطول لشهور وتختلف فيه الجريمة الجنائية عن الجرائم العسكرية .. والمهم يجب ألا تطول مدة الحبس الاحتياطى عن ستة أشهر . ويكون السبب في ذلك راجعاً إلى الخوف من التأثير على أدلة الجريمة أو الخوف من الانتقام من المجرم نفسه أو منه على غيره .. وأخيراً ضمان سير التحقيق ..

وإذا ماعدنا من جديد إلى الفكر وجرائم المفكرين إن جاز هذا التعبير قانوناً .. وجدنا أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين مفهوم الحرية .. ومفهوم الفكر .. الأمر الذى جعل الكثير منا يربط بين المفهومين لغوياً .. فكثيراً ما نسمع ونقرأ في بعض الكتب «الحرية الفكرية» أو «حرية الفكر» .. رغم أن هناك اختلافاً كبيراً معنى ولفظاً بين الكلمتين .. وإن كان هناك ارتباط وثيق بين وظيفتيهما داخل المجتمع .. الأمر الذى جعلنى أحاول أن أتلمس هذه الفروق .. حتى تكون الفائدة مكتملة خاصة بعدما تناولنا هذه التفرقة فيما يسمى بـ «السجن» أو «الحبس» أو «الاعتقال» .. رغم أن الهدف منها واحد وهو تقييد حرية الإنسان ..

وبالنسبة لدلول الحرية .. وكما يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم محفوظ : هي كلمة أرق من أن تكتب على ورق ، وأظهر من أن تنطق من ثنايا شفقتين ، رغم أنها كانت ومازالت سبباً في كثير من الأحداث والثورات والصراعات على مر العصور .. فكم قاست شعوب وقهرت من أجل الحرية .. وكم ضحت أمم ودمرت دول من أجل الحرية .. وكم قاسى مظلوم وعذب سجين ومات برئء من أجل الحرية .. وقد تبارى آلاف من الفلاسفة منذ فجر التاريخ في تعريف هذه الكلمة .. ووضع المفاهيم لها .. وكانت كلها تصب في معنى واحد وهو أن الحرية ليست مجرد «أمنية» ، وإنما هي «إرادة» .. وبالتأسيس على ذلك تتأثر الحرية بالإمكانات المتاحة للإنسان ، فكما تدعمت إمكاناته المادية والمعنوية كلما زادت حريرته .. وعلى ذلك فإن الحرية المطلقة لاوجود لها .. ولا يمكن أن يكون الإنسان حراً في جميع الأوقات بشكل مطلق .. لأن الحرية يحدها النظام ..

ومع عدم تحديد معيار واضح ودقيق لمفهوم الحرية فقد اختلف الفلاسفة وعلماء السياسة ورجالها وفقهاؤها في تحديد هذا المفهوم .

ويجرنا هذا الحديث إلى ضرورة معرفة أنواع الحريات التى ترتبط بحياة الإنسان داخل مجتمعه .. وإن كانت تختلف من مجتمع لآخر .. ومن عصر لآخر ، رغم أن الفقهاء استطاعوا أن يحددوا أنواع الحريات العامة وحصرها في عدة أنواع هي : الحريات والحقوق التقليدية ، والحريات الاجتماعية ، والحريات والحقوق الاقتصادية ، وأخيراً الحريات والحقوق الفكرية ، أو بمعنى آخر هناك الحريات المادية التى تمثلها حريات الأمن والتملك وحرية المسكن ، وكذلك حرية العمل .. وهناك أيضاً حريات معنوية مثل حرية العقيدة والاجتماع والتعليم والصحافة .. وكلها تصب في إطار نطلق عليه «حرية الفكر» وهذا هو مانعنيه ونرمى إليه من هذه الدراسة .. لأنها ترتبط بموضوعنا الذى هو مادتنا الأساسية في هذا الكتاب .. ولأنه من الضروري بيان هذه الحرية ومواصفاتها .. حتى نستطيع أن نلتمس الفروق الكبيرة بين مايقوم به المفكر ودوره في المجتمع وبين مايقوم به اللصوص والمجرمون من جانب آخر وفقاً لنظرة القوانين.. ومداول الحرية .. وقبل أن نعيش هذه التفرقة نود أن نبين أولاً ماهية الفكر .. وتعريفه وأهميته ودوره في المجتمع .. وسبيلنا إلى ذلك قواميس اللغة العربية وبعض المعلومات التى عثرنا عليها في دوائر المعرفة ..

❖❖ في القاموس .. وتحت حرف «الفاء» نجد أن الفكر جمعها أفكار .. ومعناه تردد الخاطر بالتأمل والتدبر لطلب المعاني .. وشارد الفكر يعنى غافل وساه .. والفكرة تعنى إعمال الخاطر في الأمر ..

❖❖ في دوائر المعارف .. تحت كلمة «فكر» : نجد المعنى يقول : الفكر والتفكير والتفكير هو التأمل .. ورجل فكير أى كثير التفكير .. والتفكير من أبحاث علم النفس وهو عملية عقلية نزوعية تهدف إلى الوصول إلى حقيقة مجهولة كحل مشكلة من المشاكل التي تعترض الإنسان .. لهذا كان التفكير من الصفات التي ينفرد بها الإنسان لأن التفكير يحتاج إلى استجماع لتجارب ماضية وإدراك العلاقات بينها في ضوء حقيقة ماثلة أمام الأفراد .. فكل عملية تفكير هي في الحقيقة استخلاص حقيقة جديدة من ثنايا حقيقة قديمة أو جملة حقائق وقد يكون التفكير إلى جانب ذلك في صورة تفسير مجموعة من الحقائق المشابهة وهو ما يعرف بالاستنباط تمييزاً له عن القياس .. إن التفكير في جميع صورته ما هو إلا محاولة العقل لحل مشكلة من المشاكل التي تواجهه ..

وقد اقترب مفهوم التفكير لدى الدكتور زكي نجيب محمود من هذا المعنى كثيراً .. حيث يرى شيخ الفلاسفة المصريين والعرب في العصر الحديث أن التفكير هو عملية ذهنية نرسم بها خريطة العمل المؤدى إلى تحقيق هدف ما ، وبعد ذلك فلتتنوع الأهداف ماشاء لها صاحبها أن تتنوع ، لكنها جميعاً تلتقى عند هذا الأصل .. أو بمعنى آخر كما يقول الدكتور عبد المنعم محفوظ في كتابه «علاقة الفرد بالسلطة» : إن عملية التفكير تقتضى من رجل الفكر أن يرسم لفكره هذا خريطة على هداها من أجل الوصول إلى هدف منشود .. وفي حالة تدخل رجال السلطة لإضافة ملامح لهذه الخريطة أو حذف بعض معالمها ، كان ذلك بمثابة تدخل سافر من أجل ألا يبلغ المفكر الغاية التي يستهدفها ، وحين نتحدث عن جانب من جوانب المنهج العلمى في التفكير باعتباره جانباً بالغ الأهمية .. نجد أن كل تفكير منهجى مهما كان موضوعه لابد وأن يبدأ من أساس يوضع وضعاً .. وهذا يدل دلالة واضحة على أن حركة الفكر ديناميكية ولا تبدأ أبداً من فراغ ..

❖❖❖

ولن ندخل في تفاصيل ما يتعلق بموقف الفلاسفة من الفكر باعتباره أساس وجود



الإنسان فوق الأرض ، ونظرتهم لهذه الأصناف من البشر الذين يحملون هذه المهمة الشاقة فوق أكتفاهم لصالح المجموع قبل صالح الفرد أو صالحهم الشخصي .. ويمكن القول بأن فيلسوفاً عظيماً هو «كانت» قد قال عبارته المشهورة : «أنا أفكر إذن أنا موجود» .. وبالتالي فقد نفى صفة الوجود لهؤلاء البشر الذين لا يفكرون .. لأن العبرة من وجهة نظره أن يعيش الإنسان بالعقل قبل الجسد ..

وليست الفلسفة هي وحدها التي نادى بضرورة أن يكون الإنسان مفكراً بل قبل الفلسفة جاءت الأديان السماوية التي عظمت تفكير الإنسان .. وجعلته الطريق الحقيقي للوصول إلى الحقيقة ..

هذا باختصار هو مضمون الفكر ومدلولات الحرية .. باعتبار وجود علاقة تواصل وتفاعل بينهما .. وبقي لنا أن نتحدث عن حرية الفكر من حيث التوصيف القانوني والدستوري وهو موضوع يطول الحديث فيه .. حيث تناولته العديد من المؤلفات وتصدى له أساتذة وفقهاء القانون في مصر وفي غيرها من الدول الأوروبية .. ولكننا سوف نحاول إيجاز القول حتى نعرف موقع هذه الحرية بشقيها داخل المجتمع .. وموقف سلطة الدولة منها .. أو بمعنى آخر معرفة ما تأثيره الحريات من تأثيرات في مواجهة الآخرين .. وفي مواجهة السلطة العامة ..

والحديث القادم يستند على القاعدة التي تقول : إن الفكر يختمر في عقل الإنسان ثم يخرج من إطاره الداخلي إلى المجتمع الذي نعيش فيه وأن الأفكار تتجسد في قدرة الإنسان على التعبير عن ذاته .. وهو ما يسميه رجال القانون بالقدرة على التقرير الذي يقوم على الاختيار .. وعادة ما ينعدم هذا التقرير إذا حرم الإنسان من حق الاختيار أو وسيلة التعبير .. ثم إذا فرض عليه مضمون هذا الاختيار رغماً عنه ..

وحرية الفكر مثل غيرها من الحريات الأخرى لا بد وأن تتجسد في الممارسة لأنها تبدأ بتكوين الفكرة ثم الإقدام على ممارستها أي تنفيذها .. ووفقاً لهذا المفهوم ، وكما يقول الدكتور محفوظ ، فقد تضمنت كل مواثيق الحرية والدساتير في الدول المعاصرة النص على حرية الفكر .. أي كانت فلسفات هذا الحكم .. وقد لاحظ فقهاء القانون صعوبة تصنيف حرية الفكر ووضع ضوابط محددة لها .. والسبب في ذلك يرجع إلى

التداخل بين الخطوات والمراحل التى تمر بها الفكرة .. كما يعود من جانب آخر إلى الخلط بين الفكر والرأى والعقيدة ، وصعوبة تحديد ضوابط ومعايير التفرقة فيما بينهم ..

ورغم ذلك .. فقد وضعت تصنيفات متعددة لهذه الحرية نذكر منها : حرية الرأى وحرية العقيدة وحرية الصحافة وحرية التعليم .. وكذلك حرية المسرح والسينما .. إلا أن حرية الرأى تعتبر فى المقام الأول .. ويعدها الفلاسفة أهم هذه التصنيفات لأنها تمثل العمود الفقرى للأنواع الأخرى .. والدليل على ذلك أن «الإعلان العالمى لحقوق الإنسان» الذى صدر عن هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ قد نص فى المادة «١٩» : أن لكل إنسان الحق فى حرية الرأى وحرية التعبير بما يتضمنه ذلك من حرية اعتناق الآراء بمأمن من .. وكذلك حرية طلب الحصول على المعلومات والأفكار وتلقيها وإذاعتها بمختلف الوسائل دون التقييد بحدود الدولة ..

والشئ اللافت للنظر .. وكما تقول كتب القانون .. إن حرية الرأى هذه مازالت تعد من أكثر الحريات التى أثير حولها الجدل داخلياً والسبب فى ذلك ربما يرجع إلى مايمكن أن تثيره هذه الحرية من هزات اجتماعية عندما تتدخل السلطة لدى من يمارسها ..

وفى الواقع .. وبعبداً عن النصوص المكتوبة .. اتضح أن العبرة ليست بتدوين هذه النصوص فى كتب والتزين بها .. تلك التى تتحدث عن هذه الحرية بالذات .. سواء على المستوى العالمى أو مستوى كل دولة .. وإنما اتضح أن الأهم من هذه النصوص المدونة وتلك الدساتير والمواثيق هو القدرة على الممارسة التى تعنى الإقدام على استخدام هذا النوع من الحرية .. وفى الوسائل النفسية قبل المادية التى توفرها الدولة ، والقدرة على الممارسة هنا بمعناها العملى تعنى الشجاعة التى يقوم بها الفرد على ممارسة حريات فكره .. وعلى وجه الخصوص حرية رأيه فى مواجهة السلطة العامة ..

وخلاصة القول لقد .. اتضح أن حرية الرأى .. وموقف السلطات من المفكرين عبر العصور قد جعلت الدول المعاصرة تتدخل بالتشريع لتنظيمها ووضع الحدود لها .. وكذلك ضوابط ممارستها .. ولكن كيف يتم ذلك ؟ .. يؤكد الفلاسفة ورجال القانون وفقهاؤه أن دور الدولة يتجسد فى دور السلطة العامة .. لأن هدفها هو تحقيق النظام

العام في الظروف العادية .. وقد اصطلح على تسمية هذا الدور قانوناً بـ «الضبط الإداري» .. وهو عبارة عن مجموع ماتفرضه السلطة العامة من أوامر ونواه وتوجيهات ملزمة للأفراد بغرض تنظيم الحريات لصيانة النظام العام في المجتمع .. ومدلول كلمة «الضبط الإداري» في فقه القانون يقوم على فكرة اختصاص السلطة العامة في أن تفرض على الأفراد قيوداً تحد بها من ممارسة حرياتهم .. ويستمد النظام العام الذي يطبق هذا المفهوم قوته من ثلاثة عناصر هي : الأمن العام ، والسكينة ، والصحة العامة .. وعادة ما تلجأ الدول إلى العديد من الوسائل لتحقيق هذا النظام الذي يكون ضحيته في المقام الأول حرية الفكر ..



في بداية رحلتنا مع هذه الكلمات تساءلنا كثيراً .. واتخذنا العنوان من عدد المرات التي دخل فيها المفكر السجن .. ورأينا أن خير ختام لجولتنا عبر هذا الفصل هو تسجيل أحاسيس هؤلاء المفكرين لحظة الخروج من وراء القضبان .. والاستعداد للرحيل بعد الإفراج .. لأننا عرفنا مسبقاً .. أنه في الغالب يتم القبض على المفكر وإيداعه السجن دون علم مسبق منه .. كما أن الاعتقال أو الخروج .. يتوقف على حالات متنوعة وأوامر غيابية في غالبية الأحيان تصدر من فوق .. وسبق أن قدمنا جولة قصيرة داخل عقل فقهاء القانون أوضحنا فيها هذه المفاهيم .. المهم الآن أن نسجل لكم هذه الأحاسيس من واقع كلمات كتبها عملاق الأدب العربي عباس محمود العقاد .. الذي ألف كتاباً حكى لنا فيه عن تجربة السجن في حياته كرجل إنساني .. وكمفكر إنساني أيضاً ..

يقول العقاد في كتابه «عالم السدود والقيود» الذي نشره عام ١٩٣٧ (يوم الإفراج ، أو يوم، البعث والنشور .. أو يوم الحرية .. أسماء كثيرة يسمى بها يوم الخروج من السجن ، والناس يحسبونه أسعد أيام المسجون لأنه اليوم الذي انتظره مئات أو ألوف الأيام .. ويحسبون أن المسجون إذا قارب فجره تغتمض عيناه سروراً بلقياء ، وأوشك أن يطير فرحاً بالوصول إليه .. ويظل السجين ينتظره ويطل انتظاره بالأشهر والأسابيع وتأمله من كل جانب ويحسب المسافة بينه وبين الأشهر والأسابيع والأيام والساعات .. ولا يفكر في شيء غير هذا التفكير .. حتى إذا جاء اليوم الموعود إذا

بالسجين يراه كأنما وجه قديم طالما رآه وأد من النظر إليه .. فهو منظر من مناظر الماضي السحيق وليس بمنظر طريف ولا بموعد جديد .. ( هذا عن إحساس الرجل العام الذى لا يعيش الفكر .. فما بالك بإحساس العقاد المفكر .. الذى يقول عن نفسه : (جاءنى مأمور السجن عصر اليوم الذى سأغادر فى غده .. وقال لى إنه لا يعلم فى أى ساعة سيكون الإفراج ، فيحسن بى أن أكون على استعداد للخروج منذ الصباح الباكر ، وأنه سيرسل لى الحلاق ليحلق رأسى ولحيتى التى مضت عليها ثلاثة أيام .. ولا يحب رجال السجن أن يخرج السجن من عندهم فى هذا الحال .. لأن رؤية اللحية الطويلة تلقى فى الروع أن السجن خارج من مكان يكثر فيه الإهمال وتقل فيه النظافة والنظام )

\*\*\*

\*\*\* ترى هل هذه الصورة مازالت على ماهى عليه .. بعد مرور أكثر من خمسين عاماً .. أم تغيرت .. ؟ .. وكيف عاش مفكر مصر فى السنوات العشرين الأخيرة خلف هذه الجدران .. هذه الأسئلة وغيرها .. هى موضوع كتابنا الذى بين يديك ..

**حنفى المحلاوى**

## **الحكاية الأولى يرويها مصطفى أمين :**

### **تزعمت عصاة من المساجين لتهريب الورق والقلم !!**

لم أصدق حين قال لى أستاذنا الكاتب الصحفى «مصطفى أمين» أنه كان زعيماً لعصاة داخل السجن ..

ولكن وقبل أن تدور الكلمات برأسى وتأخذنى علامات التعجب بعيداً عما يقصده .. أضاف بقوله بالفعل كنت زعيماً لعصاة من المساجين .. تعبت كثيراً فى تكوينها .. والسبب يرجع إلى إدارة السجن نفسها التى جاءت بها أوامر عليا .. لحرمانى من الورق والقلم .. حتى ورق التواليت منعه عنى حتى لا أستخدمه فى الكتابة ..

لحظات صمت .. حسبته خلالها .. يكتب مقدمة مشوقة لحديث طويل .. واعتبرت كلماته السابقة .. بداية ساخنة لهذه المقدمة .. ولكننى وبالرجوع إلى الكتب الكثيرة التى كتبها فى السجن رغم هذا الحصار .. والتى ذكرها لى أثناء الحوار .. اكتشفت فعلاً أن الكاتب الكبير مصطفى أمين قد نجح إلى حد بعيد فى تكوين هذه العصاة التى فشلت إدارة السجن لسنوات طويلة فى الكشف عنها ..

يقول «مصطفى أمين» فى أحد هذه الكتب :

القلم ممنوع .. الورق ممنوع .. الحبر ممنوع ..

لقد تنقلت بين عدة سجون .. وفى كل السجون والمعتقلات التى دخلتها كان يقال لى إن القلم ممنوع والورق ممنوع .. والحبر ممنوع .. وبلغ الأمر بمأمور طره أن منع دخول ورق التواليت خشية أن أكتب عليه .. وفى بعض هذه السجون كانت الكتابة ممنوعة على الإطلاق .. وفى سجن ليما طره مثلاً كانت الأوامر والتعليمات التى

أصدرها وزير الداخلية آنذاك بشأن معاملتى .. ألا يوضع ورق أو حبر أو قلم فى زنزانتى .. وأن أضعها فى مكتب ضابط العنبر ، وأن أكتب إلى أسرتى مرتين فى كل شهر ، وآلا يزيد كل خطاب على نصف ورقة كراس ، وأن أكتب بالخطاب فى مكتب الضابط وفى وجوده ..

وكنى مسجوناً نموذجياً ، أطيع الأوامر والتعليمات مهما كانت سخيفة وجائرة .. وكل تعليمات السجن سخيفة وجائرة .. ولكن التعليمات الوحيدة التى قررت أن أثور عليها وأخالفها هى الخاصة بعدم الكتابة ، وذلك لأن الكتابة بالنسبة للكاتب أشبه بالتنفس ، وكان معنى هذه التعليمات الجائرة أن أتنفس مرتين فى الشهر ..

وبدأت بمعاونة عدد من زملائى المسجونين عملية تهريب الورق والقلم ، ثم عملية تهريب الرسائل إلى أخى على أمين فى لندن وسعيد فريحة فى بيروت .. كانت عملية خطيرة وشاقة ومستحيلة .. وكان الذين يقومون بها يعرضون حياتهم للخطر ومستقبلهم للضياع .. ولكن الرجال الشجعان الذين قاموا بهذه المهام الخطرة من أجل ومن أجل عدد من المسجونين السياسيين لم يخافوا أبداً .. لقد استطعت خلال تسع سنوات أن أهرب إلى خارج السجن تسعة آلاف رسالة .. واستطاعت هذه الرسائل كلها أن تخترق الحصار المضروب وأن تقتحم كل القيود المفروضة .. ولم تضبط رسالة واحدة ..

\*\*\*

وحينما نتوقف عند كلمات مصطفى أمين واعترافاته فيما يتعلق بتكوين هذه العصابة الغريبة التى وصف أفرادها بالرجال الشجعان الشهداء .. نكتشف قيمة الورق والقلم .. حتى ولو كانت قصاصات بالية .. وأقلام بلا أسنان أو أحبار .. كما نكتشف قيمة الرجال فى الشدائد .. وإلا فكيف يتحول الكاتب والمفكر ومن حوله من زملاء الزنزانة إلى أفراد عصابة تقوم بعمل نادر .. لا لتهريب الذهب والماس والأموال .. بل لتهريب الورق والقلم ..

وقبل الدخول فى تفاصيل الدور الذى كانت تقوم به عصابة مصطفى أمين ، وكيف تكونت ، ومن هم أفرادها .. وكيف استطاعوا اختراق حصار هذه السجون المنيع .. تعالوا .. نبدأ الحوار الذى دار بينى وبين المفكر الكبير مصطفى أمين الذى استغرق

تسعين دقيقة في مكتبه في أخبار اليوم .. بعد خروجه من السجن وعودته إلى الحياة الصحفية والفكرية بأكثر من عشرين عاماً ..

في مثل هذه الظروف .. تبدأ أولى خطوات المرحلة في مكتب السكرتير الخاص الذي تفضل مشكوراً بالاتصال بالمفكر الكبير وحدد لنا موعداً معه .. وفور علمي بالموعد الذي حدده أعددت كل شيء .. الورق والقلم والأخبار .. جهاز التسجيل .. وعيون الكاميرا .. وشيئاً آخر مهماً جداً .. هو الاستعداد النفسى لمجابهة العملاق ، ودعوات في صدرى من أجل أن يطول الحوار ساعات طويلة ..

وقبل الاستغراق الذاتى لتحديد معالم هذا الحوار الذى أعددت عناصره مسبقاً .. انطلق مدير مكتبه بأدب : تفضل .. مصطفى بك في انتظارك ..

وعلى بعد خطوات .. طرقت الباب برفق .. ودخلت .. صحيح أنها لم تكن المقابلة الأولى بين كاتب هذه السطور وبين مصطفى أمين .. إلا أنني شعرت وكأنما أراه لأول مرة .. وقبل أن يزحف التراجع إلى نفسى .. بادرنى بالتحية .. وكأنما قرأ مايدور في ذهنى .. خاصة أنني جئت إليه هذه المرة .. أذكره بهوم ماضية ، والأيام السوداء التى قضاه خلف القضبان ..

وجاءت ابتسامته .. التى عبرت عن فرحه بهذا اللقاء .. بداية طيبة لى حتى أستكين .. وأركز وأحدد بداية الحوار ..

وجلست أمام مكتبه البيضاضوى الضخم .. أتطلع إلي كيانه الكبير، ورأسه التى هى مصدر كل همومه ومشاكله .. ومن بين أسناني .. خرجت أولى كلمات الحوار ..

**\* نبتدى يافندم ؟ ..**

— اتفضل ..

ومن قبلها .. أعطيت إشارة البدء لجهاز التسجيل .. واستعد المصور بآلاته .. وانسابت الكلمات فى هدوء .. أنا أسأل .. وهو يجيب ..

**\* كم مرة دخل فيها الكاتب الصحفى والمفكر الكبير مصطفى أمين السجن؟**

وقبل أن يجيب بصراحته المعهودة .. استدركت الكلمات .. لأننى أحسست أنها



عبارة قاسية مغلفة في كلمات أحسست من وقعها وكأننى ساويت بين المفكر الكبير وبين غيره من عتاة الإجرام .. لذا وجدتني أعيد السؤال في صيغة أخرى رأيت أنها أكثر تهذيباً وتليق بالمفكر والمفكرين ..

**\* عفواً أستاذى .. هل تعرضتم لأي نوع من أنواع العقوبات .. قبل تجربة السجن الأخيرة ؟ .. في عهد الرئيس عبد الناصر ..؟!**

- لقد قبض على عدة مرات .. لكنها كانت عقوبات بسيطة .. ففي عام ١٩٢٨ (أوقفت التسجيل .. حتى يتمكن الأستاذ من الرد على مكالمة تليفونية خاصة ) .. ومن بعدها أخذ الكاتب الصحفى مصطفى أمين يروى لى قصته مع القضبان .. وأخذ يحيطنى بأسرار ربما يذيعها لأول مرة .. وحتى لا نقطع تسلسل الكلمات وأفكار الأستاذ .. سوف أنقل لكم تفاصيل هذا الحوار .. بدون تدخل من كاتب هذه السطور لا بأسئلة ولا بالتعليق ..

في عام ١٩٢٨ .. كانت بداية تعامل مع السجون ، ومانطلق عليه الآن «الحجز» حيث قبض على أنا وأخى المرحوم على أمين لأننا كنا نهتف في محطة مصر ضد الدكاتور محمد محمود باشا .. ووضعنا في السجن ثلاثة أيام .. ثم أفرج عنا ..

ومرة أخرى قبض على وأنا عندى ١٦ سنة .. وكنت أيامها طالباً في الخديوية الثانوية .. حيث نظمت إضراباً في المدارس من أجل إلغاء الدستور ويومها دخلت السجن ومكثت فيه ثلاثة أيام ، واعتبرتها وقتها عقوبة قاسية جداً .

وابتداء من عام ١٩٥٠ وحتى قبيل قيام الثورة ، تم إلقاء القبض على ٢٦ مرة .. أثناء عمل الصحفى .. حيث كانوا يلقون القبض على فى الصباح بتهمة نشر أخبار صحفية ضد الحكومة .. وأستمر فى الحجز .. وفى المساء يتم عرضى على القاضى الذى يأمر بالإفراج عنى فوراً ، وبكفالة فى نفس اليوم .. وأنا أذكر أن مجموع المبالغ التى دفعتها فى الكفالات خلال هذه الفترة التى ذكرتها أكثر من ألف وثلاثمائة جنيه .. ولا تنس أن هذا المبلغ كان عام ١٩٥٠ ، والفرق فى قيمة العملة بين الأمس واليوم معروف .. لأننى كنت أدفع فى المرة الواحدة كفالة ٥٠ جنيهاً .. والشئ المضحك والمبكى فى آن واحد .. أن الثورة حين قامت وعلم عبد الناصر بهذه الغرامات .. أعاد إلى مبلغ ألف جنيه من قيمة هذه الكفالات ..

على أن أهم رحلة كانت لى عبر السجون .. تلك الفترة الأخيرة التى حدثت فى بداية الستينيات فى عصر جمال عبد الناصر .. وأذكر تفاصيلها تماماً .. وقد سجلتها فى أكثر من كتاب صدر لى لأنها فترة كانت صعبة إذ ارتبطت فى ذهنى بعدة صور كان أهمها صورة التعذيب البدنى البشع الذى نالنى على أيدي رجال السجن الحربى آنذاك ..

وأذكر أنهم حين جاءوا للقبض على فى عام ١٩٦٥ ، فى منزلى بالاسكندرية ورأيت الحرس يملأون حديقة المنزل ، تصورت أن الرئيس جمال عبد الناصر قد حضر لزيارتى .. ثم تصورت بعد ذلك أنه حدث انقلاب ، وأن رجال الانقلاب الجدد جاءوا يقبضون على ، لأننى واحد من المتصلين بالرئيس عبد الناصر ..

وعندما تبينت الحقيقة تصورت أن عملية القبض تمت بغير علم الرئيس عبد الناصر ، وقد سبق أن قبض على مرة فى أول الثورة ، ومرة أخرى بعد بضعة أشهر من قيامها .. بدون علم جمال عبد الناصر .. وعندما علم فى المرتين بأمر القبض على وعلى أخى على أمين أمر بإطلاق سراحنا .. ولكن عندما رأيت أن القوة التى جاءت تقبض على صحبت معها مصوراً لالتقاط صوري .. تأكدت أن المسرحية مدبرة ..

ووضعوا القيد الحديدى فى يدي ، وأركبوني سيارة خلفها وأمامها عدة سيارات ، حراس من جهاز الأمن يحملون المسدسات والمدافع الرشاشة .. ومشى الموكب فى الطريق الزراعى فى طريقه إلى القاهرة ..

أما عن تأثير تجربة السجن على حياتى كإنسان وكفكر وصحفى وكاتب وصاحب رأى فقد اختلف التأثير من فترة لأخرى .. وإن كان تأثير التجربة الأخيرة التى حكيت عنها أقوى هذه التجارب .. ولكن بشكل عام داخل السجن شاهدنا أشياء لم أتخيل أبداً أنها موجودة بالسجون المصرية .. ولو روى لى سجين هذه الحقائق ونقل لى هذه الصور قبل أن أدخل السجن لما صدقت .. وكفى أن أقول لك إننى دعيت فى عام ١٩٦٤ إلى زيارة سجن طره .. وكان ذلك قبل إلقاء القبض على فى المرة الأخيرة بعام أو أقل .. وكانت زيارة صحفية من أجل نقل صورة صادقة لما هو عليه السجن فى مصر فى تلك الفترة .. وهناك فرشوا لى الرمل الأصفر ببلونه الجميل وكأنما زيارة رسمية .. واستقبال حافل من الضباط ومن المدير .. وأخذت خلال هذه الزيارة أتجول فى أنحاء السجن .. مثلاً أخذونى إلى المطبخ وفيه شاهدت أطباقاً نظيفة بها قطع كبيرة من اللحوم

وحين سألت عن هذه القطع الكبيرة قالوا إنها لمسجون واحد .. ثم عرضوا على رغيف من العيش مصنوعاً بشكل جيد .. كما أخذوني في جولة أخرى لزيارة بقية أجزاء السجن فشاهدت حدائق كثيرة واسعة .. وأخبروني أن هذه الحدائق من أجل نزهة المساجين ..

ثم بعد ذلك دخلت السجن .. ففوجئت بصور مختلفة تماماً ..

رغيف العيش وجدته معجوناً بالتراب وحجمه صغير جداً .. ووجدت أن اللحم الذي يصل إلى المسجون كله دهون ، ولم تكن نرى في الطبق المقدم إلينا سوى نقط اللحم .. يمكن أن تراها فقط تحت الميكروسكوب .. أما بخصوص الحدائق فكانوا ينبهون علينا أن من يغامر ويخرج إلى الحديقة سوف يحبس ويضرب بالنعال ، لأن هذه الحدائق المزعومة كانت مخصصة للضباط وليس للمساجين من أمثالنا ..

وكننت قد عرفت قبل دخول السجن هذه المرة متهماً .. أن السجن به مكتبة .. ولكل سجين الحق والحرية في القراءة والكتابة .. ولكن هذه الصورة تغيرت أيضاً فكانوا يمنعون عنا الكتب وكل شيء يتعلق بالكتابة والقراءة .. وقد اكتشفت أن هذه التعليمات خاصة بى فقط .. والسبب أننى وجدت خطاباً قد سبقنى إلى هنا موجهاً من وزير الداخلية آنذاك إلى مدير السجن فيه تعليمات صريحة بمنعنى أنا مصطفى أمين على وجه الخصوص من كتابة حتى الخطابات إلا مرتين في الشهر فقط ..

لقد اكتشفت أن مشاهدته في رحلتى الصحفية للسجن قبل القبض على هو ديكور وهى .. تم تركيبه قبل زيارتى من أجل أن أكتب عنه وأنقله للقراء .. وللأسف كننت كثيراً ما أشاهد هذا الديكور يتم تركيبه وترتيبه من جديد كلما زار السجن مسئول كبير .. وبعد الزيادة سرعان ما تعود الأوضاع السيئة على ماهى عليه بل إلى أسوأ .. وأنا أنكر في مرة من هذه المرات .. أن زيارة المسئول الكبير قد شملت مستشفى السجن .. وكننت وقتها أعالج فيها .. وعلى الفور تم استبدال المفروشات المتسخة والقذرة بغيرها نظيفة .. بل أكثر من ذلك جاءوا بزجاجات الدواء ورصوها بجوارنا بالقرب من الأسرة التى ننام فوقها .. لقد كانت بالفعل مسرحية هزلية ..

\*\*\*

ورغم ما قاسيته طويلاً داخل جدران السجن .. من عذاب وتعذيب إلا أن السجن لم

يكن شراً كله .. فهو عالم جديد عليك خاصة أن تعيش فيه لأول مرة .. وفيه تتم صداقات حميمة نقية بعيدة عن الرياء والزيغ .. لقد كانت لي صداقات من هذا النوع داخل السجن ، وامتدت حتى بعد الخروج والإفراج عني .. وأكثر هذه الصداقات التي تأثرت بها وأثرت في نفسي .. أنني تعرفت في السجن على رجل عظيم عرض على أن يهربني إلى الخارج .. وكان مستعداً لدفع مبالغ طائلة كي تتم عملية تهريبى من السجن .. ولكننى رفضت مع أنني لم أقابل هذا الإنسان الطيب من قبل .. ويبدو أنه كان من قرائى الأعزاء .. وعلى أية حال مازالت علاقتى به قائمة حتى الآن ..

**\* وهل يمكن الإفصاح عن اسمه الآن ؟**

- لا ..

أما الإنسان الثانى أو الرجل العظيم الآخر الذى تأثرت به وبصداقته فهو مأمور سجن طره اللواء عبد الله عمارة .. ذلك الرجل الذى كاد أن يرفقت بسببى .. ولهذه الحكاية قصة .. فقد نما إلى علمى وأنا داخل السجن أن وزير الداخلية آنذاك وهو على ما أذكر شعراوى جمعة علم أن مصطفى أمين يحصل على أطعمة خاصة داخل السجن وتأتيه من الخارج .. وقد نجحوا في إثبات ذلك عن طريق الحصول على رسالة كانت ابنتى المرحومة رثية قد بعثت بها إلى مأمور سجن طره وبها قائمة الطعام التى تريد إرسالها إلى داخل السجن .. وقاموا بزيارة مفاجئة للسجن ضمت وزير الداخلية وعباس قطب مدير مصلحة السجون آنذاك وعدداً كبيراً من ضباط الوزارة .. وتفقدوا السجن .. وفي نهاية الزيارة طلب شعراوى جمعة قائمة الطعام المشار إليها ، والتى تم ضبطها في مكتب مأمور السجن وأخذ يقرأ ما بها بصوت مرتفع .. وكان بالقائمة طلب لإدخال جبنة «روكفور» .. حينئذ تقدم شعراوى جمعة من مأمور السجن وسأله :

**هل تأكل هذه الجبنة في منزلك ؟**

وقبل أن يجيب مأمور السجن المسكين أصدر شعراوى جمعة قراره الفورى بنقل مأمور السجن اللواء عبد الله عمارة وحرمانه من الترقية .. وأفهمه أن ذلك هو إجراء مخفف بدلاً من الرصد ..

\*\*\*

وخلاف ذلك كان معى مساجين كثيرون .. التقيت بهم بعد الخروج والإفراج عني ..

وقابلتهم .. وقدمت إليهم مساعدات كثيرة حين علمت أنهم في حاجة بالفعل إلى هذه المساعدات .. ومع ذلك فإننى أعتبر ماقدمته لهؤلاء قليل جداً بالنسبة للخدمات التى كانوا يقدمونها إلى ..

وحين ينتقل الحوار إلى جانب آخر من جوانب تأثير تجربة السجن على الكاتب والفكر مصطفى أمين .. يقول :

– بالنسبة لأهم النتاجات الفكرية التى ولدتها تجربة السجن هذه .. أقول لك إن كل الكتب التى أصدرتها .. كتبها داخل السجن .. وأذكر لك بعضاً منها مثل «سنة أولى سجن» و«ثانية سجن» و«ثالثة سجن» وهكذا .. ثم قصة «أشرف امرأة فى الشارع» .. وقصة «سنة أولى حب» وقصة «صاحب الجلالة الحب» وأيضاً قصة «لا» وقصة «الانسة هيام» .. بالإضافة إلى كتاب سياسى بعنوان «من واحد لعشرة» يعنى نقدر نقول إن كل هذه الكتب ألقتها فى السجن وكانت العصاة تهربها ورقة بعد ورقة ..

والشئ الغريب أننى لم أكتب عن السجن بعد الإفراج عنى ، لأننى كتبت كل انطباعاتى وأنا هناك خلف هذه الجدران الصماء ..

### « وهل السبب ربما يرجع إلى اعتباركم هذه الفترة سوداء فى حياتكم ؟

– أبدأ .. لم تكن فترة سوداء على الأقل بالنسبة لى .. فأنا دائماً أذكرها وأتذكرها .. هذا من حيث تأثير التجربة على مصطفى أمين شخصياً .. أما عن تأثيرها على حرية الرأى والفكر فى مصر بشكل عام .. فأولاً أنا دهشت لأننى اكتشفت أن هذا السجن قد دخله غيرى من الشخصيات العظيمة جداً أو الهامة جداً .. وللأسف لم يكتبوا عن هذه التجربة .. إلا القليل منهم مثل الأستاذ العقاد ومحمد التابعى وتوفيق دياب .. فمثلاً الدكتور أحمد ماهر دخل السجن مدة طويلة .. وكذلك النقراشى وإبراهيم عبد الهادى .. وربما يرجع السبب إلى أنهم كانوا يريدون نسيان هذه الفترة من حياتهم ، أما بالنسبة لى فبالعكس صحيح .. لم أكن أريد أن أنساها .. لأننى بالإضافة إلى مذكرته سابقاً أننى اعتبره دافعاً للتقدم إلى الأمام .. والشئ الثانى الأهم أننى وجدت فى قاع المدينة المتمثل فى المساجين ما هو أكثر قيمة ووفاء وأصاله مما كنت أجده فى مجتمع قمة المدينة .. وهم الناس الذين كانوا خارج الأسوار .. لقد كان الناس داخل السجن لديهم

وفاء وشجاعة وفدائية وأخلاق ..

### \* هل تذكرون بالضبط فترة السجن الأخيرة ؟ ..

ـ طبعاً .. كانت ثماني سنوات ونصف بالضبط .. فقد اعتقلت عام ١٩٦٥ ولم أخرج إلا عام ١٩٧٤ .. قضيت نصفها في عهد عبد الناصر ونصفها الآخر في عهد السادات الذى سمعت أنه كان ينوى الإفراج عنى فور توليه منصبه كرئيس للجمهورية خلفاً لعبد الناصر .. ولكن ذلك تأخر ثلاث سنوات .. وربما يرجع السبب إلى وشاية نقلت إلى الرئيس السادات جعلته يحجم عن إتمام الإفراج .. فقد وصل إلى علمه أن مصطفى يعقد اجتماعات سرية مع على صبرى وسامى شرف فى السجن .. وقد أكد لى هذا القول الرئيس السادات نفسه .. وقد اتضح فيما بعد أن أصل هذه الحكاية يرجع إلى رسالة نقلت إلى الرئيس السادات الذى بادر من فوره بالاتصال بوزير داخلية آنذاك ممدوح سالم .. كى يسأله عن تفاصيل ما نقل إليه ..

ـ إيه الحكاية ياممدوح .. بقى مصطفى أمين وسامى شرف وعلى صبرى يجتمعون يومياً فى زنزانة واحدة ويكتبون كتاباً أسود عنى ..

ورغم تأكيد وزير الداخلية بعدم صحة هذا القول .. حيث أبلغ الرئيس السادات أننى مسجون فى زنزانة وهم فى زنزانة أخرى .. إلا أن القرار قد تأخر .. ولم يصدر إلا فى ١٨ مايو عام ١٩٧٤ بالقرار الجمهورى رقم ٥٨ لسنة ١٩٧٤ ..

\*\*\*

\* ذكرتم فى بداية هذا الحوار .. إنكم قد تعرفتم على شخصيات سياسية وصحفية كثيرة داخل أسوار السجن .. ولم تفصحوا لنا إلا عن بعضها ومنهم رجال طبيون وأصدقاء .. نريد أن نعرض بعض الشخصيات التى التقيتم بها هناك؟ ..

ـ فى السجن بقيت ٩ سنوات .. التقيت خلالها خاصة بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، بالغديد من القيادات السياسية التى سجنها عبد الناصر بعد الهزيمة وأذكر منهم الفريق صدقى محمود قائد الطيران فى حرب ١٩٦٧ ، الذى قال لى إنه نصح عبد الناصر

بأنه إذا لم نقيم نحن بالضربة الأولى فسوف نهزم .. ولكن عبد الناصر أصر على أننا لانضرب الضربة الأولى .. كما التقيت أيضاً بالشيخ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين ، وقلت له آنذاك (أنا متوقع أن عبد الناصر هيفرج عن كل المسجونين السياسيين وهيسألهم عن رأيهم في هذه الكارثة )..

وعلى ذكر حكاية الإفراج عن الكاتب مصطفى أمين الذى تأخر أربع سنوات .. تحدثنا كثيراً خلال هذا الحوار عن دور أم كلثوم في إتمام هذا الإفراج .. حيث أكد لي أن أم كلثوم كان لها دور بارز في الإفراج عنى خاصة لدى عبد الناصر الذى لم يستجب لرأيها .. ولكن ليست أم كلثوم وحدها ، رغم أن دورها كان دوراً رئيسياً حتى أيام الرئيس الراحل أنور السادات .. فقد كانت هناك شخصيات أخرى كثيرة قامت بهذا الدور غير أم كلثوم .. أذكر منهم .. الأمير طلال والملك فيصل .. وسعيد فريجة ومحمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان ، وسفير العراق بالقاهرة آنذاك فائق السمراى .. وكثير من زعماء الدول العربية المعاصرين لجمال عبد الناصر والسادات ..

وكانت هناك عدة محاولات من أجل تبرئتي من التهمة الظالمة التى قبضوا على بسببها ودخلت من أجلها السجن .. قام بها أيضاً العديد من الأصدقاء .. أذكر منهم رئيس وزراء السودان الأسبق محمد أحمد محجوب الذى كان قد ذهب إلى جمال عبد الناصر بعد محاكمتي وسأله : هل حقيقة مصطفى أمين جاسوس ؟ .. فرد عليه عبد الناصر أبداً .. وأكد له أنه هو الذى كلفنى بالاتصال بالأمريكان .. وكل ما هناك أن مصطفى أمين قال لهم إنكم تريدون أن تقطعوا المعونة من أجل أن يركع عبد الناصر .. وأنا يا أخ محجوب لا أركع لأحد .. فقا له رئيس السودان آنذاك .. علشان هذه الكلمة .. يبقى تضعه في السجن ؟ .. فما كان من عبد الناصر إلا أن رد عليه :إننى حبيت أن أؤدبه لكن أنا في الوقت نفسه مستعد أن أفرج عنه الآن .. لكن لو حدثت ذلك فمعنى ذلك أن أفرج عن الشيوعيين والإخوان .. وإلا قالوا إن أمريكا هى التى أجبرتني على ذلك .. ولكن على العموم حين تحضر إلى مصر المرة القادمة ستجده في بيته .. ولم يحدث ذلك .. وكذلك فائق السمراى سفير العراق في القاهرة الذى طلب مقابلة عبد الناصر لنفس الغرض .. فذكر له نفس حكاية القمح والركوع .. وأنه أى عبد الناصر سوف يفرج عنى من السجن وأيضاً ذلك لم يحدث ..

\*\*\*



وفي غمرة حديث كاتبنا الصحفي عن تجربته داخل السجن .. وجدت لها فرصة كي أعرف منه رأيه في عقوبة السجن وتأثيرها على المفكر بشكل عام .. وهل من الضروري أن يكون للمفكرين سجون خاصة بهم ؟ .. كذلك أردت أن أعرف منه بصراحته المعهودة رأيه في سجون مصر الآن .. وهل هي في رأيه وسيلة صالحة من وسائل التأديب والإصلاح ، أم تساعد على زيادة جرعة الإجرام .. وأشياء أخرى كثيرة متعلقة بهذا الموضوع ..

بادرنى الأستاذ مصطفى أمين قائلاً :

- والله شوف .. السجن لوحده مؤلم .. ولكن أسوأ مافيه رغم مايصيبه من آلام نفسية ناجمة عن حبس الحرية .. هو أنظمة السجون في بلادنا .. فأول شىء يقابل الإنسان داخل السجن أن يجرد من كرامته .. لأنه لايسمح لك بحمل ساعة أو فلوس أو ملابس أو أى شىء آخر .. ألم أقل لك إنهم داخل الجدران يجردون الإنسان حتى من كرامته .. إنهم يعطونك رقماً بدلاً من الاسم .. ويظل المسجون يتحرك داخل جدرانه المرتفعة والمرعبة تحت وطأة هذا الرقم .. فالإنسان المصرى بشكل عام يتحول داخل السجن إلى إنسان بلا كرامة ..

لذا لابد أن تكون للمفكرين سجون خاصة بهم .. فليس من المعقول أن أضعهم مع غيرهم من مرتكبى الجرائم الأخلاقية أو جرائم القتل وتجار الحشيش وأصحاب السوابق وقطاع الطرق .. والشىء الذى لفت نظرى خلال الفترة التى قضيتها خلف هذه الجدران أن مفهوم السجين السياسى لم يكن موجوداً لا فى اللوائح ولا فى عقول المشرفين عليه .. وكثيراً ما كانوا يعاقبون أهل الفكر بوضعهم فى العنابر الموبوءة بالأمراض خاصة مرض الجرب .

وبشكل عام .. إن حالة السجون فى مصر كانت سيئة للغاية .. لذا حين خرجت كثيراً ما كتبت مطالباً إعطاء مراتب للمساجين .. وأبلغونى أنها عممت .. ولكننى غير مصدق .. لأننى طالبت من عدة وزراء داخلية بعد خروجى من السجن بزيارة سجون مصر فرفضوا طلبى ..

وهذا بالطبع يجرنا إلى سؤالك عن أننا يمكن أن نعتبر السجون فى مصر الآن وسيلة

ناجحة من وسائل التأديب .. أم أنها تساعد على توالد الجريمة وزيادتها .. وأقول لك .. إن السجون بوضعها الحالي .. تزيد من أعداد المجرمين .. فهي عكس مايقولون .. ليست تهذيباً ولا تأديباً .. وربما يرجع ذلك إلى العديد من الأسباب .. أولها أن السجانين أنفسهم أغلبهم غلاظ القلوب .. رغم أن منهم آدميين ويتصفون بالرحمة ، ولكن للأسف عددهم قليل ..

ولقد تقابلت مع النوعين .. الوحوش والآدميين .. واكتشفت أن الفرق بينهم كالفرق بين الإنسان والحيوان .. ويحضرني هنا قصة سمعتها كثيراً تتردد داخل السجن .. فقد كان هناك ضابط من هؤلاء الوحوش .. همه الأول في الصباح والمساء تعذيب وضرب المساجين .. وكان عنده عسكري «مراسلة» حكى لنا أن هذا الضابط كانت تضربه زوجته كل يوم في الصباح .. فيبدو أنه كان يعكس علينا معاملة زوجته السيئة له ..

**\* ماهو تصور الكاتب الصحفي والمفكر الكبير مصطفى أمين عما يجب أن يكون عليه السجن في مصر .. وخاصة بالنسبة للمفكرين ؟ ..**

— أولاً لازم تعرف أنه في كل البلاد الحرة ، لا يوجد مانسميه نحن بالمسجون السياسي .. ولا تجد صحفياً أو كاتباً أو صاحب رأى في السجن .. لكننا نشاهد مثل ذلك وأكثر في البلاد غير الديمقراطية .. وما دمنا دولة غير مكتملة الديمقراطية ولا نستطيع أن نكون دولة ديمقراطية بنسبة ١٠٠٪ في الوقت الحاضر ، فلا بد وأن نكون ديمقراطيين حتى ٨٠٪ مثلاً .. ونقيم سجوناً خاصة بالمفكرين والسياسيين حتى لانضع السياسي مع المجرم ودعنى أذكر لك .. أن هذه السمات غير الديمقراطية التي أثرت على أوضاع السجون كانت أيضاً قبل الثورة وأذكر لك مثلاً على ذلك .. زمان .. محمد صلاح الدين باشا وزير الخارجية حكم عليه بالسجن المؤبد وأحقوه بالعمل داخل السجن .. مكوجى .. والأستاذ توفيق دياب عمل ترزياً داخل السجن ..

إننى أمنت دائماً بأن لمستقبل لمصر إلا بالديمقراطية .. وكلما أصيبت الديمقراطية بأزمة أو نكسة تضاعف هذا الإيمان .. إن الآمال العظيمة لا تتحقق إلا بتضحيات عظيمة ..

مصر عرفت الديمقراطية عدة مرات ، وفقدت الديمقراطية عدة مرات أيضاً .. ولم يأس هذا الشعب .. لقد طالب عمر مكرم بالديمقراطية .. وطلب أحمد عرابي

بالديمقراطية .. وقام الشعب بزعامة سعد زغلول يدعو لحكم الشعب وبأن الأمة مصدر السلطات .. إننى متفائل جداً بمستقبل بلادنا على عكس مايرى الآخرون .. ولعلك تلاحظ أن من سمات عدم وجود الديمقراطية في مصر الآن بشكلها المتكامل والمتعارف عليه حضارياً .. أن المفكر أو الصحفي أو السياسى لا يعتقل ولا يسجن إلا بقرار من رئيس الدولة .. والمفروض ألا يقبض على المفكر وصاحب الرأى إلا بقرار من المحكمة .. ويحاكم أمام محاكم مدنية وليست عسكرية .. إن ثبت تورطه في أى جريمة من الجرائم التى ينص عليها القانون المدنى ، كما تلاحظ كذلك أن الإفراج عن المفكر المعتقل لا يتم إلا بقرار سياسى كما تم من قبل اعتقاله بقرار سياسى ..

وهناك ظاهرة طيبة تدل على أننا نسير في الطريق الصحيح نحو الديمقراطية وحقوق الإنسان واحترام آدميته .. هو أن عدد المسجونين السياسيين والمفكرين خلف القضبان قد قل كثيراً في أيام الرئيس السادات لأنه أفرج عن عدد كبير منهم فور توليه الحكم .. وأيضاً في هذه الأيام قلت ظاهرة اعتقال المفكر بشكل ملحوظ .. حتى وصلت إلى أدنى معدلاتها .. وقد بدأ الرئيس مبارك فترة حكمه بالإفراج أيضاً عن المسجونين السياسيين وأهل الفكر ..

ولابد أن يكون واضحاً لك ولغيرك .. أن الدولة حين تتفرغ للحكم على المفكر وتقبض عليه وتسجنه .. معناه أن الدولة قد تحولت إلى سجان .. وكل البلد تحولت إلى سجن كبير ليس للمفكر فقط .. بل لجميع الناس ، وهذا يدل دلالة واضحة على وجود خلل ما في المجتمع لأن الفكر لا يحاكم وكذلك أصحاب الرأى ..

**\* في كلمات تلغرافية .. ماذا يقول الأستاذ مصطفى أمين للمفكر المصرى .. وكذلك للمسئولين عن السجون؟**

ـ أقول أولاً للمفكر إنه يجب أن يعرف أنه ما دامت هناك ديمقراطية ناقصة فهو معرض في أي لحظة وفي أى يوم أن يدخل السجن .. لذلك عليه من الآن .. توظيف عقله وفكره وقلمه من أجل العمل على تحسين معاملة المسجونين ..

وللمسئولين عن السجن أقول: أذكركم بأن بعض الذين وضعوا لوائح السجن في

منصر دخلوا السجن وطبقت عليهم.. فليتعظوا.

\*\*\*

الآن توقف دوران شريط التسجيل .. كى أعيده على الوجه الآخر .. الوجه الذي حكى لى فيه المفكر الصحفى الأستاذ مصطفى أمين حكاية عصابة تهريب الورق والقلم التى كونها .. ونجح من خلال أعمالها المتقنة أن يوصل صوته إلى خارج السجن ، وبالتالى نجح فى تهريب أكثر من تسعة الاف رسالة .. وأكثر من كتاب ..

وبعد لحظات صمت جاء صوت مصطفى أمين يحدثنى ، وكأنما يشدو بأغنية يعشقها .. ولم أكن أتخيل فى لحظة من اللحظات أن يعترف لى هذا العملاق أنه كان فى يوم من الأيام زعيم عصابة ..

- حينما منعونى من الكتابة فكرت فى أن أهرب الخطابات .. فقامت بتأليف عصابة من بعض المسجونين غير السياسيين .. واخترتهم بدقة من المظلومين ، لأننى أعتقد أن المظلوم هو أكثر شجاعة من غيره .. هؤلاء اخترتهم من أجل تهريب ما أكتبه خارج السجن .. وحين تسألنى كيف .. فلذلك قصة طويلة .. لقد كونت هذه العصابة فى سجن طرة وهو آخر سجن أقيمت به .. وكنت فيه أقيم فى زنزانة بالدور الرابع .. وقبل حكاية التفاصيل أقول لك إننى تنقلت فى أكثر من خمسة سجون .. سجن الاستئناف .. والسجن الحربى وسجن المخابرات وسجن القناطر وأخيراً سجن طرة .. وفى كل سجن كنت أقضى بعض الوقت .. فى السجن الحربى مثلاً أقيمت أربعة أشهر .. وفى سجن الاستئناف ستة أشهر .. وكذلك سجن القناطر قضيت به عدة أشهر .. أما فى سجن طرة فقد قضيت بقية المدة ..

وفيه تكونت هذه العصابة التى تعتبر عصابة من نوع خاص .. نوع شريف لتهريب الأفكار .. كما ذكرت لك كنت نزيل الزنزانة الأولى بالدور الرابع .. وكان فى نفس الدور نزيل آخر بالزنزانة رقم (١٤) رأيت فيه السجين المظلوم الذى زج به فى السجن معنا بعد اتهامه فى قضية ثار ظلماً .. والشئ العجيب أنه كان رجلاً أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة .. وقد اخترته نائباً لزعيم عصابة تهريب الخطابات لهذا السبب ، بحيث لا يكون موضع شك من جانب المسئولين عن السجن فيما يقوم به من مهام أكلفه بها .. وكل دوره أنه كان يهرب لى الورق والقلم عن طريق استلام هذه المهمات وتسليمها إلى بقية

المساجين أعضاء العصاة الآخرين الذين وزعتهم على بقية أدوار السجن .. ومنهم من كانت زنزانته قريبة من الزنزانة التي أنزل بها ..

كنا خمسة مساجين .. أنا والرجل الأمي وثلاثة آخرون في بقية الأدوار .. يحتل كل واحد منهم الزنزانة الأولى في الدور الذي يقيم به ..

هؤلاء كانت مهمتهم إطلاق كلمة السر المتفق عليها بيننا وبصوت نسمعه جميعاً حين تبدأ حملات التفتيش .. وعلى الفور تختفى الأوراق والأقلام وتزحف من يد إلى يد حتى تصل إلى الزنزانة رقم (١٤) التي يقيم فيها نائب زعيم العصاة والذي كما قلت لم يكن يقرأ أو يكتب ، وبالتالي كانت زنزانته بعيدة عن ذهن رجال السجن الذين لم يقوموا ولو مرة واحدة بتفتيشها .. وهكذا كنت أكتب وأهرب الورق إلى نائب زعيم العصاة .. الذي يحتفظ بها حتى تحين فرصة تهريبها إلى الخارج .. وكان ذلك يحدث رغم أنهم كانوا يفتشون زنزانتي مرتين في اليوم وبلا مواعيد مسبقة ..

«وماهى كلمة السر التي كان متفق عليها؟»

– كانت اسم ضابط سجن سابق اسمه أحمد عبد الرحمن ..

«ولماذا هذا الضابط بالذات ..

– لأنه كان مشهوراً بوحشيته وجبروته .. وكان اسمه يخيف أى مسجون ..

\*\*\*

وخلال هذا الحوار الذى قارب على الانتهاء كنت أتعهد أن أثير قضايا كثيرة ومتنوعة .. وكنت أفترض أن الأستاذ مصطفى أمين سوف يعترض عليها .. ولكنه كان يجيب فى سماحة والابتسام لا تفارق شفثيه .. مثلاً سألته لو أصبح فى يوم وليلة مأموراً لأحد السجون .. ماذا سيفعل مع هؤلاء الضيوف المساجين من المفكرين والمجرمين .. كما افترض فيه أن يكون فى يوم من الأيام رئيساً للوزراء أو وزيراً للداخلية ، وسألته عما سيكون موقفه من المفكرين وقضايا الفكر بشكل عام ..

بادرنى بقوله : أولاً لو كنت مأموراً للسجن .. أطلق جميع المسجونين .. حتى المجرمين منهم .. لأننى أعتقد أن المسجون ماهو إلا مريض فى حاجة إلى علاج .. وأعتقد أن علاجه لا يكون بحبسه أو سجنه .. أما بخصوص حكاية رئيس الوزراء أو وزير

الداخلية .. فأولاً أننى لا أصلح للوزارة ، أو أن أكون وزيراً .. أنا فقط أصلح صحفياً وكاتباً .. ومع ذلك سيكون موقفى من الفكر والمفكرين ألا يسجن هؤلاء الذين يحملون هذه الرسالة العظيمة رسالة الفكر والرأى .. وحتى لو كانت أفكاراً معارضة .. لأن التغلب على الفكر المعارض لا يتم بالسجن .. بل بعرض أفكار أخرى مؤيدة .. وأنا أذكر لك بالمناسبة واقعة حدثت عام ١٩٢٤ حين كان سعد زغلول رئيساً لوزراء مصر ووزيراً للداخلية ، وجاءه مدير المطبوعات ومعه كتاب لمؤلف كبير عنوانه «لماذا أنا ملحد؟» .. وطلب مدير المطبوعات من سعد باشا زغلول الإذن له بمصادرة هذا الكتاب فرفض .. وطلب من مدير المطبوعات تكليف عشرة مؤلفين من الأزهر لتأليف كتاب بعنوان « لماذا أنا مؤمن؟ » وبناء على ذلك رفض مصادرة الكتاب المذكور .. وبالفعل تم تكليف هؤلاء المؤلفين وصدر الكتاب الجديد الذى محى آثار الكتاب الأول ..

وهكذا لا بد من معالجة الأفكار بالأفكار .. وليست بالسجون .. لذلك لا أوافق أبداً على اعتقال أى مفكر حين أكون على الفرض فى المنصب الذى طلبت منى أن أتحيل نفسى فيه ..

**\*على الفرض ونحن نتحدث الآن وعبر التليفون طلب أحد الذين عذبوا الأستاذ مصطفى أمين مساعدته فى أمر إنسانى .. ماذا تقول له ؟**

— إذا كان داخل السجن أساعده .. ولكن خارج السجن أرفض .. وقد عشت هذا الموقف .. حين جاءنى إلى مكتبى أحد الضباط الزبانية الذين عذبونى بقسوة وكان قد فصل من الخدمة .. والشئ المضحك أنه جاءنى لأساعده فى العودة للخدمة من جديد .. طبعاً رفضت بشدة ..

**\* وأخيراً .. هل تريدون إضافة كلمات أخرى ؟ ..**

قاطعنى ضاحكاً وعدل سؤالى بقوله : لازم تقول : هل لديك أقوال أخرى .. ثم أجاب: أحب أقولك بكل صدق .. إن فترة السجن السابقة لم تكن لى أياماً سوداء .. عكس مايتصور الكثيرون منا .. لقد كانت دروساً طيبة خرجت بها عبر ثمانى سنوات ونصف .. كما أحب أنؤكد .. أن الفكر المصرى الحديث لا يمكن أن ينتعش إلا فى ظل احترام حقوق الإنسان عندئذ يصبح الفكر والمفكر المصرى حراً طليقاً يعانق السماء السابعة .. ولايتحقق ذلك بأمانة إلا فى ظل ديمقراطية سليمة ١٠٠٪.

## الحكاية الثانية يرويها محمود السعدنى:

### الولد الشقى.. يكتشف

### حياة أخرى داخل السجن!!

رغم أننى قضيت معه أكثر من ساعتين.. فى شرقه منزله المطل على نيل الجيزة.. ونسمات الصيف تداعب الأوراق.. وتصنع بهمسات للمس فوق الزجاج.. سيمفونية بدائية.. تعزفها هوائيات غجرية تطير هنا وهناك.. ورغم أننى قد تمكنت خلالها من تسجيل لقاء حيوى وحوار عاشت كلماته داخل أسوار السجن العلية.. إلا أننى أخذت أبحث جدياً عن كلما أخرى خارج هذا الحوار تكون مدخلاً لرحلتى هذه داخل عقل المفكر والكاتب الصحفى «محمود السعدنى».. واكتشفت أن الولد الشقى قد سجل تجربته الطويلة فى عالم السجون فى كتاب واحد.. صدر له بعنوان «الولد الشقى فى السجن»..

وعرفت حينما تقابلنا أنه ينوى أن يضيف تجاربه الأخرى خارج السجن وداخله فى كتاب جديد.. لم يصدر حتى كتابة هذه السطور..

إن كلمات الاستاذ «محمود السعدنى».. عن تجربة السجن فى حياته كمفكر وإنسان تكاد تكون طبق الأصل لحياته التى قضاها فوق الكرة الأرضية.. طولا وعرضا.. تعلو به الظروف.. ثم سرعان ما تعود به إلى ما كان عليه من قبل..

ولا أنوى هذه المرة أن أفصح عن تفاصيل أسئلة هذا الحوار.. فقد أثرت أن يجهد القارئ عقله فى استنباط الأسئلة من خلال تتبع واع لحديث الولد الشقى.. وحتما لن يبعد حديثنا كثيرا عن موضوع هذا الكتاب.. الفكر والقضبان.. وكلمات أخرى يحتفظ بها الآن شريط التسجيل.. فى انتظار اللحظة التى أعطى له فيها إشارة البدء.. ولكننى وكما قلت منذ لحظات فى البداية الآن نفسح لها الطريق فى كلمات سطرها الأستاذ

محمود السعدنى.. ولن نصح عن عنوانها.. أو عنوان الكتاب الذى قرأنا فيه تلك الكلمات..

\*\*\*

وكانما كان يقرأ أفكارى قبل أن أذهب إليه حسب الميعاد المتفق عليه بيننا.. فقد قابلتني كلماته التى علقها فوق جدران منزله.. ومن الغوص داخل معانيها.. عرفت الطريق الصحيح نحو الحوار الذى دام ساعتين فى أحد أيام الصيف..  
تقول هذه الكلمات:

ـ «لقد سجن عدة مرات.. ولكن لم تتح لى الظروف أن أرى السجن الحقيقى إلا فى المرة الأخيرة.. فقد قدر لى أن أتعرف على عالم كنت سأذهب إلى قبرى حزينا لو مت دون أن أراه.. واكتشفت كذلك أن السجن جزء من الحياة، وما يجرى خارج الأسوار يجرى مثله وبالضبط فى السجن. وإذا كان خارج السجن أثرياء يموتون من التخمة، وفقراء يموتون من الضيم.. وإذا كان فى الخارج أصحاب نفوذ وأبناء أكرمين وأبناء كلب.. وإذا كان هناك تسبب وسرقة ونهب ونصب، وإذا كان هناك فساد وأشياء لا ترضى الله ولا العباد.. ففى السجن أيضا تدور هذه الأشياء بالتمام والكمال وتركيز أشد، مع فارق بسيط، هو أن نزلاء السجن أصدق وأشرف..

وفى تواصل مستمر لما كتبه «الولد الشقى».. وما تناوله هذا الحوار.. وجدنا نقطة التقاء غريبة.. لعبت المصادفة دورها العظيم فى ترتيبه.. فقد اكتشفت وأنا أعيد سماع الشريط من أجل تفريغه.. أن بداية الحوار كانت هكذا:

**\* نريد من الكاتب الساخر والمفكر الصحفى الكبير الاستاذ محمود السعدنى أن يحدثنا عن تأثير تجربة السجن والاعتقال فى حياته كمفكر وصاحب رأى أولا.. وكأنسان ثانيا؟..**

ـ شوف السجن فى حياة الإنسان حادث مؤسف.. يعنى أسوأ من المرض. إنه أسوأ شىء فى حياة الانسان.. وليس من سلوكيات البشر.. وإلا فكيف تحبس شخصا ما وتتركه وحيدا وتنصرف عنه.. إن الحبس معناه أن تعزل هذا الشخص عن العالم.. إنها عقوبة يمكن أن تكون أشد خطرا على حياة البشرية من الجريمة التى ارتكبها الإنسان



فى حق نفسه وحق مجتمعه.. وفى تصورى أن الإعدام خير من السجن.. وأهون منه.. إلا إذا كان السجن فترة قصيرة.. شهرا أو شهرين.. فى هذه الحالة يكون عقوبة مفيدة، إن السجن بعيد عن هذا المفهوم يحول الإنسان إلى حيوان.. لأنه بين يوم وليلة يجد نفسه بين أسوار عالية فى عزلة تامة عن العالم.. وبين حراس وضباط..

إنه عالم آخر.. وحياة أخرى غير الحياة التى يعتاد عليها الإنسان.. أو الإنسان الذى ليس حيوانا.. ورغم أن السجن شئ صعب جدا.. إلا أنه من وجهة نظرى لابد للإنسان أن يجربه بشرط أن يكون فترة قصيرة.. وتجدرنى شديد الأسى والأسف لهؤلاء المفكرين والصحفيين الذين قضوا فترة طويلة داخل السجن.. وعلى سبيل المثال المرحوم الكاتب الصحفى صلاح حافظ الذى عاش ٩ سنوات متصلة فى السجن، وقد دخلت عليه مرتين.. ولم يفقد فيهما روحه ومرحه..

وتستطيع أن تقول أيضا إن السجن هو اختراع إنسانى سخيـف.. وهو إجراء قديم قدم الانسانية.. استخدم كثيرا لعقاب المفكرين والمعارضين وأصحاب الرأى والمجرمين.. ومع ذلك فإن الجريمة كما هى لم تتغير ولم يستطع الإنسان رغم تقدمه أن يقضى على الجريمة أو المجرمين.. من أجل ذلك بدأت بعض الدول الأوربية التفكير فى تغيير أسلوب مقاومة الجريمة بغير السجون..

**«يجرنا هذا الحديث إلى أن نسأل الأستاذ محمود السعدنى عن عدد المرات التى دخل فيها السجن؟»..**

— أنا دخلت السجن ٤ مرات.. أول مرة سنة ١٩٤٤ أو ١٩٤٥ عندما أقيلت حكومة الوفد وكنت وقتها تلميذا فى المرحلة الثانوية بمدرسة مازالت موجودة إلى الآن فى ميدان لاطوغلى وتسمى «المعهد العلمى».. وأنا أذكر تفاصيل هذا الاعتقال وسببه.. حيث كان بمناسبة ترشيح ناظر المدرسة واسمه مصطفى.. الذى بدأ فى استخدام طلبية المدرسة فى الدعاية الانتخابية وكان مرشحا مستقلا بجانب تمسكه بمبادئ حزب الهيئة السعدية.. وكان دورى فى تلك الفترة.. أن أخرج التلاميذ وأنظمهم فى مظاهرات.. وبالفعل اشتركت فى لجنة الدعاية لمبادئ ناظر المدرسة التى شكلت برئاسة ضابط المدرسة والذى مازال يعيش حتى الآن واسمه إبراهيم الحريرى.. وهو رجل من أهالى عابدين الأشداء والمعروفين بالرجولة.. وكان من بين أعضاء هذه اللجنة شاب اسمه

عبد السلام صار فيما بعد حانوتى القلعة.. وآخر اسمه النواوى صار فيما بعد من كبار الجزارين بالمذبح.. وهؤلاء الذين ذكرت لك أسماءهم ظلت علاقتى بهم.. وانقطعت تقريبا منذ عام ١٩٦٩..

فى هذه الفترة قمنا بمظاهرات طلابية ضخمة ضايقته الحكومة الى درجة الاشتباك بالأيدي مع مؤيدى مرشح الخصم.. فدبروا لنا مكيدة وعن طريقها قبضوا علينا.. ونقلونا إلى قسم السيدة زينب داخل الحجز.. ولأول مرة أدخل إلى قسم بوليس.. ولأول مرة أعرف ما اصطلاح على تسميته بالحجز.. وبداخله تعرفنا على المجرمين.. وكنت وقتها فى الثامنة عشرة من عمرى.

المهم مكثنا فيه طول الليل.. وطول النهار.. وبعد يومين أعلنوا نتيجة الانتخابات ونجح ناظر المدرسة مصطفى عبد الهادى الذى صار فيما بعد صهر الملك فاروق.. حيث تزوجت ابنة اخته «ناريمان» الملك فاروق.. والذى توسط لدى مأمور السجن للافراح عنا.. وخرجنا من حجز السيدة زينب.. وبعد الخروج لم أكن أتصور وجود مثل هذا المكان على وجه الأرض.. بهذه القذارة وبهذا السوء لقد قضيت بداخل هذا الحجز أربعة أيام.. خفت بعدها من السجن جدا..

أما فى المرة الثانية.. فقد قبضوا على بعد أن أنهيت تعليمى.. وكنت وقتها مراسلا صحفيا فى السويس لجريدة النداء لتغطية معارك القناة عام ١٩٥١.. معارك الفدائيين.. وقتها دخلت فى معارك عديدة قبل اتمام إلقاء القبض على فى هذه الفترة.. وكنت وقتها فى سن الخامسة والعشرين وكان معى فى هذه الفترة مجموعة كبيرة من الصحفيين لتغطية معارك القناة وفى السويس قضيت أربعة أشهر وعندما نويت أن أغادرها.. عرفت أنه مطلوب القبض على.. وقد أبلغنى بذلك أحد الضباط الوطنيين وأذكر اسمه الأول محمد ولا يزال يعيش حتى الآن.. وله ورشة بلاط فى بور سعيد..

هذا الضابط الوطنى كان يعلم تمام العلم أننى على خلاف مع بعض الضباط الكبار الذين كانوا يتعاونون مع الانجليز والذين اتهمتهم علانية بعدائهم للمصريين وتعاونهم مع الإنجليز المحتلين لمصر آنذاك.. ووفقا لاقتراح الزميل الصحفى حمدى عبد العزيز.. تقدمت لمحافظة السويس بطلب أثبت فيه أننى أحمل سلاحا بدون ترخيص من أجل أن يقبضوا على ويتم ترحيلى فى حراسة إلى القاهرة بعيدا عن شبح الاغتيال والقتل الذى

كان ينتظرني من هؤلاء الضباط الذين حكيت لك عنهم منذ لحظات.. ولكن ذلك لم يحدث.. كما تصور حمدي وأصر محافظ السويس أن أبقى بالمدينة من جديد في أمان.. إلا أن بعض الضباط المصريين الوطنيين وأذكر منهم ضابطا اسمه الصاغ زكى جبران اقترحوا أن أخرج من السويس حفاظا على حياتي عن طريق مركب.. ووقتها طلبوا منى مبلغ ستة جنيهات من أجل إتمام عملية الهروب هذه.. وبالفعل تم ذلك ووصلت عن طريقها إلى الاسكندرية.. ومنها إلى القاهرة التي وصلتها بعد الحريق.. وفور وصولي إليها تم إلقاء القبض على العبد لله بسبب (حريق القاهرة).. فدخلت حجز أحد الأقسام.. ومكثت فيه أربعة أيام.. وكان حجزا أسوأ من حجز قسم السيدة زينب.. وعندما أثبت لهم أنني لم أكن موجودا بالقاهرة لحظة وقوع الحريق أفرجوا عني..

أما المرة الثالثة فكانت عام ١٩٥٩.. حيث قبضوا على فجر أحد الأيام بمنزلي بالجيزة.. وأنا أذكر اسم الضابط الذي جاءني في تلك الساعة وأعتقد أن اسمه طوسون وكنا وقتها في شهر رمضان.. وقد أبلغني الضابط أنني مطلوب هناك لمدة خمس دقائق فقط.. ومن مباحث الجيزة حولوني إلى معتقل القلعة ومكثت فيه شهرا وشهرا آخر في الفيوم ومنها إلى الواحات وكان معي عبد الستار الطويلة في سلسلة واحدة.. ومكثت هناك سنة وشهرا بالضبط وقد قاسيت خلالها ألوانا من التعذيب وقاطعته قائلا:

### **\*وما هي التهمة يا أستاذ محمود؟..\***

— دا كان اعتقال.. ولا يقولون لك السبب.. ولم يكن يتم بمحاكمة، المهم رأيت بعيني كيف يكون التعذيب على أصوله.. والشئ الغريب أنني في البداية كنت آخذ هذه المسألة «هزار في هزار».. لأنني كنت غير متصور حتى هذه اللحظة أنه سيفرج عني بسرعة.. وثانيا لأنني شاهدت ألوان التعذيب بل وتعرضت لها كثيرا.. وأكثر من ذلك هناك في الواحات عهدوا إلينا بأشغال شاقة ومرهقة.. وتصور لقد كسرنا زلط الجبال هناك.. وحملنا الطوب والرمل فوق أكتافنا.. من أجل ذلك كنت أعتبرها فترة هزلية.. رغم أنها كانت أسوأ فترة اعتقال وسجن وتعذيب مرت علي..

### **\*وتفتكر دا كان المقصود؟..\***

— وقتها كانت هناك معركة شرسة بين جمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم.. وفي

فترة الطفولة السياسية آنذاك انضم جزء من المفكرين المصريين إلى عبد الكريم قاسم حاكم العراق ضد جمال عبد الناصر.. المهم أن جمال عبد الناصر قد اعتقل هؤلاء ممن يعتنقون الشيوعية وكذلك المشتبه فيهم.. وكنت أنا من الصنف الثاني.. ولحظتها كان النظام الناصري في عنفوانه.. وأنا أذكر وأنا داخل معتقل الواحات أن الدنيا قد تحولت في لحظة بالنسبة لي إلى مسرحية هزلية سخيفة.. والدليل أنهم كلما كانوا يضربونني كنت أضحك.. أقهقه.. لقد انتابتني حالة من الهستيريا..

ومن الواحات رجعت إلى سجن الفيوم حيث أقمت فيه أربعة أشهر ومن الفيوم أفرجوا عني.. يعني تقدر تقول مدة السجن هذه كانت سنة وستة أشهر أو ما يقرب من ثمانية عشر شهرا.. وقتها خرج معي لطفى الخولى الصحفى المعروف والدكتور لويس عوض.. بل أقول لقد خرجت بصداق شديد وإحساس بطعم آخر للحياة.. والسبب ربما كان يرجع إلى مقارنتي الدائمة بين الحجز في الأقسام وما كنت أراه فيه من قذارة ومجرمين.. وبين السجن والمعتقل وما قاسيت فيه من تعذيب وإهانته ولعلك تتعجب حين أقول لك إن السجن رغم ما كان فيه.. هو بالقياس أنظف من ذلك الحجز الذى حدثتك عنه منذ قليل.

المهم خرجت من هذه التجربة صاحب مرض مصحوب بحالة هستيريا أنقذنى منها الدكتور أنور المفتى الله يرحمه.. وقتها امتنعت عن الكتابة.. وخاصمت العمل الصحفى.. ورفضت ما عرضه على الاستاذ احسان عبد القدوس آنذاك.. لأننى بالفعل فضلت أن أجلس فى بيتى هذه الفترة.. وبأمانة كنت أذهب إلى روزاليوسف أقبض مرتبى فقط.. حتى أقنعنى الكاتب الروائى فتحى غانم أن أكتب بابا بعنوان «هذا الرجل».. كانت تكتبه من قبل الزميلة فوزية مهران فى مجلة صباح الخير.. هذا العمود بأمانة هو الذى أرجعنى إلى الحياة من جديد.. وريدا رويدا نسيت السجن وأهواله وعدت إلى الصحافة ومتاعبها وبدأت فى إخراج كتبى ونشرها.. وسافرت إلى الخارج.. واستمرت حياتى هكذا حتى عام ١٩٧١.. بعد وفاة جمال عبد الناصر.. وانتخاب الرئيس السادات..

تلك الفترة التى بدأت بالتحقيق معى فى الاتحاد الاشتراكى آنذاك والتى قيل وقتها

تلفيقاً إننى اعتقلت بسبب اشتراكى فى مؤامرة لقلب نظام الحكم.

**\* اذن ما هى حقيقة الاعتقال الأخير.. وأسبابه؟.. باعتبار أنه المرة الأخيرة التى دخل فيها الولد الشقى السجن..!؟**

- كل ما فى الأمر أنهم ضبطوا فى الجيزة أوراق انتخاب أنور السادات أكثر من عدد المسجلين فى الدفاتر وحين سألوا المسئول آنذاك وهو على ما أذكر اسمه محمود عفيفى.. كيف تضع بطاقات انتخاب لأنور السادات بأسماء مزورة وغير موجودة بالكشوفات قال لهم.. محمود السعدنى هو الذى قال لى.. فاستدعونى للاستفسار عن هذه الواقعة فأجبتهم بأننى الذى قلت له ذلك.. وأنا أذكر أيامها أنه كانت هناك مشكلة بين السادات وفريد عبد الكريم وأنا خفت يحدث أى تقصير فى الجيزة فيقع اللوم على فريد عبد الكريم.. وعندما لاحظت أن أحدا لم يأت للانتخابات.. اقترحت إضافة أسماء وهمية وغير موجودة بالكشوفات..

وأمام أحد المحققين اعترفت أننى المسئول عن هذه الواقعة.. لأننى كنت أود أن ينال السادات أغلبية مطلقة بمحافضة الجيزة حتى أضمن عدم إحداث صدام بينه وبين فريد عبد الكريم.. هذه الواقعة كانت فى أكتوبر.. وبعد ٦ أشهر تم القضاء القبض على بتهمة الاشتراك فى مؤامرة قلب نظام الحكم.. ولعلمك حينما ضبطوا شرائط المكالمات بينى وبين فريد عبد الكريم آنذاك وجدوا بها شتائم لا أكثر ولا أقل.. ولأنها كانت شتائم خارجة لم يذكروها فى المحكمة.. المهم فى النهاية دخلت السجن لمدة سنتين.. قضيتهم كالآتى: ٣ شهور فى مستشفى كلية الشرطة.. ثم ٥ أشهر فى السجن الحربى.. أما الباقى فقد قضيته فى سجن القناطر الخيرية بالقاهرة.. وقابلت فيه حثالة المجتمع المصرى من مجرمين ونشالين وقتلة ومكذس بأعداد كبيرة من كل الأصناف إن جاز هذا التعبير..

نعود إلى الحديث مع الولد الشقى عن أحوال السجن من خلال تجاربه الشخصية فى هذا المجال؟..

- شوف.. اسمع.. أنا سوف أحدثك عن السجن فى آخر فترة قضيتها فيه.. وهى فترة سجن القناطر.. ومن قبل حدثتك عن مثل ذلك فى بقية السجون الأخرى حتى الحجز فى أقسام البوليس.. وحين نعود للحديث عن أحوال السجن الخاصة بالقناطر.. أقول لك..

إننى كمسجون سياسى كنت فى زنزانة مستقلة عن باقى المجرمين الآخرين.. وكانت هذه ميزة كبيرة رغم أنها كانت فى أغلب الأحيان سجنًا انفراديًا.. وهناك فئات أخرى غير المساجين السياسيين كانت لهم أوضاع خاصة داخل سجن القناطر.. وهم طبقة الأثرياء من المجرمين وتجار الحشيش وخلافه.. باختصار لقد كان سجن القناطر وعالمه الخاص أغرب مكان رأيته على ظهر الأرض لما فيه من تناقضات لا يصدقها غير الذى عاشها..

وأحب أنؤكد لك أن أسوأ شيء واجهته فى السجن.. هو الانتظار.. ليس انتظار الإفراج.. ولكن الانتظار لأنك لا تعرف ما الذى سيأتى به الغد.. ومع ذلك فإننىؤكد لك أن هذه الفترة التى قضيتها فى السجن أيام الرئيس السادات قد أفادتني كثيرا..

### \* ولكن كيف يا أستاذ محمود؟..

— أقول لك.. حتى أيام السجن فى عهد عبد الناصر أيضا أفادتني لأنه لم يكن مسموحا لنا بالقراءة ولا بالكتابة، فيما عدا قراءة الكتب الدينية لذا أقبلت على قراءتها كلها.. حتى الكتب الدينية المسيحية واليهودية.. وقد استفدت جدا لأننى بمساعدة بعض النزلاء تمكنت من الحصول على بعض كتب التراث مثل كتاب الأغاني وخلافه.. وعلى فكرة يوجد بالسجن مكتبة ضخمة أسسها من قبل الشيوعيون والإخوان المسلمون الذين سجنوا هناك.. وتحضرني قصة لطيفة متعلقة بقراءاتي داخل السجن.. ففى أحد الأيام ذهبت إلى المكتبة أبحث فى دفاترها.. فاككتشف وجود أجزاء كتاب «قصة الحضارة» وبعد بحث طويل.. اكتشف المسئول عن هذه المكتبة أن الكتاب غير موجود وأن أحد المساجين قد استعاره من قبل.. على كثرة عدد أجزائه..

ومرت الأيام.. وكلما أذهب للمسئول عن المكتبة أسأله عن أجزاء كتاب قصة الحضارة اكتشف أنها مازالت مستعارة.. ولما شككت فى الأمر طلبت مقابلة السجين الذى استعارها.. فقالوا لى إنه مقيم فى عنبر (ب) بالدور الثالث بالزنزانة (١٧).. واسمه أحمد قطقط.. مسجون مخدرات.. ومحكوم عليه بخمس عشرة سنة سجن.. ولما سألته عن الكتاب.. أبلغنى أنه يستخدمه مخدة «ينام فوقها»... لقد كان هذا الرجل ينام فوق قصة الحضارة.. لقد كانت فترة السجن الأخيرة فترة ثقافة إجبارية..

\* طوال هذه الفترات التي اعتقلت خلالها.. هل تم اعتقالك وفقا لأصول قضائية.. أو بمعنى آخر.. هل حكمت عليك إحدى المحاكم المدنية بالسجن؟.. أم كيف كان يتم ذلك؟..

- لا.. أنا لم أحاكم أمام محاكم مدنية إلا خلال عملي الصحفي أو ما يتعلق به.. أما بقية الاعتقالات فكانت تتم وفقا لمحاكم عسكرية.. وأيام الرئيس السادات حوكت أمام محكمة تسمى «محكمة الثورة» كان يرأسها القاضي حافظ بدوى الله يرحمه.. وكنت أعرفه قبل دخولي السجن.. وكان فيها أيضا حسن التهامي.. وفي هذه المحاكمة حكموا على بالسجن سنتين.. ونفذ على الفور بتهمة الخيانة العظمى.. يعنى أنا كنت قائدا عظيما وربما لم أكن أعرف..

وعلى أية حال أنا لم أكن مصر طوال حياتي ولن يحدث.. وبعد انتهاء مدة السجن خرجت فوجدت قرارا في انتظاري بعدم عودتي إلى عملي.. وبإبعادى عن الصحافة تماما.. فاشتغلت أياما مع عثمان أحمد عثمان في المقاولون العرب.. وبعد فترة رفضت مواصلة العمل مع المهندس عثمان أحمد عثمان لأننى لم أتحمله.. وطلبت ضرورة أن يحل الرئيس السادات مشكلتي وإلا سوف أترك مصر.. وبالفعل حينما لم أعد إلى عملي الصحفي.. تركت مصر لمدة ٩ سنوات.. ثم عدت بعدها.. وبدأت الحياة مرة أخرى.. وأنا أتمنى ألا تعود هذه الأيام من جديد لأننى اكتشفت أن السجن المتكرر تجربة سيئة وخاصة تجربة السجن في بلدنا.. لأنها تجربة تزيد جرعة الإجرام ولا تقضى عليه بالقدر المتعارف عليه..

وهذا الحديث يجربنا لسؤالك السابق على أحوال السجن.. وأقول لك إننى اكتشفت تفرقه مريرة في المعاملة داخل هذه الجدران العالية كما اكتشفت وجود المسجون الثرى المبسوط.. والمسجون الآخر المعدم والفقير.. وأنا أذكر لك على سبيل المثال.. إنه في يوم من الأيام طرق أحد المساجين على باب زنزانتي طالبا «حسنة يا بيه».. والسبب ربما يرجع إلى أنه كانت توجد عصابت داخل السجن من المسجونين أنفسهم تستولى على الأطعمة والأغطية ولا تعطى إلا لمن يدفع.. وكنت أحد هؤلاء المتتزمين بالدفع فقد كنت أصرف أربع علب سجائر في الشهر لمثل هؤلاء حتى أضمن الغذاء النظيف والخدمة الجيدة..

## \* وهل يعتقد الأستاذ محمود السعدنى أن هذه الظواهر الغريبة مازالت موجودة في سجون مصر الآن..

- لا أستطيع أن أؤكد لك ذلك.. لأننى لم أدخل السجن فى هذه الأيام.. وثانيا أنا لم أعد أعرف أحدا يقيم الآن فى السجن.. فقد تركت السجن منذ ثمانية عشر عاما.. وأحب أن أؤكد لك أن هذه الصور كانت موجودة حتى خرجت.. لقد كان المسجون المصرى يعيش حقيقة فى محنة.. ولا بد من تدارك هؤلاء.. لأنهم موتى على ظهر الأرض يتحركون.. ولا تستفيد منهم البلاد.. وهذا يجعلنى أتساءل لماذا لا نقيم سجوناً أخرى جديدة تلحق بها ورش ومصانع ومزارع يعمل بها هؤلاء المساجين حتى يتحولوا إلى بشر منتجين ونقضى على البطالة بينهم داخل هذه الجدران العالية.. ولماذا لا نعطي المسجون بعض عائد هذه المشروعات كي يرسلها إلى أهله فى خارج السجن حتى يضمن أن بيته لن يهدم بعد دخوله..

وخلاصة القول لابد من وجود نظرة جديدة للسجون المصرية.. بحيث تتحول إلى أماكن منتجة.. نقطة أخرى أقولها لك بهذه المناسبة.. انه لابد من فصل إدارة السجون والإشراف عليها بعيدا عن وزارة الداخلية.. بحيث تنتهى علاقة المسجون بالشرطة والداخلية بوضعه فى السجن.. وبالتالي ينتقل الإشراف على السجون إلى وزارة العدل.. لأنه حين تعددت ألوان الرقابة داخل السجن.. تعددت ألوان الفساد.. ومن هنا لابد من احترام الإنسان المصرى حتى داخل السجن.. ممكن أن تعذمه.. أو تقتله ولكنك حين ارتضيت أن يكون سجيناً فلا بد من احترامه والبعد عن تعذيبه وإهانته.. لأن المسجون الذى تهان كرامته داخل السجن يخرج من أجل أن ينتقم من المجتمع..

## \* معنى ذلك أن الولد الشقى.. يرى السجن ليس هو الوسيلة المناسبة الآن لعلاج ظاهرة الإجرام؟..

- طبعا.. وأقول لك ليه.. أنا الآن وبعد أن ترددت على جميع السجون الحربية منها والمدنية.. وبعد أن ذقت جميع أنواع الصفعات والشلاليت ومارست الأشغال الشاقة فى صحراء الواحات.. أستطيع أن أقول وأنا مرتاح الضمير إن السجن ليس رادعا وليس وسيلة للعقاب.. لقد اخترع الانسان السجن ليقضى على الجريمة، ولكن ها هو السجن قائم.. والجريمة موجودة يسيران معا جنبا إلى جنب.. ولا يلتقيان، كأنهما شريط سكة



حديد يكملان بعضهما ولايتعارضان.. واعتقد أن الإنسان لابد أن يسعى لاختراع بديل اذا أراد أن يقضى على المجرمين والإجرام..

وشىء آخر أن نزلاء السجن في بلد كمصر هم لا يتغيرون، بدليل أن المجتمع ثابت لا يتحرك والأوضاع السائدة فيه تجعل الناس أشبه شىء بقطع الشطرنج.. ثم شىء آخر.. وأخيرا لقد كان القصد من بناء السجن كما هو مكتوب عليه بحروف بارزة أعلى البوابات وعلى الأسوار «السجن تأديب وتهذيب وإصلاح» ولكن يبدو أن الأعمال ليست بالنيات في مصلحة السجون.. لأن السجن تحول بالفعل الى تحطيم وتعذيب وإفساد..

وتسألنى شخصيا ماذا استفدت من السجن؟.. وأقول لا شىء.. فالسجن ليس تجربة مفيدة.. لأن التجربة الحقيقية في الخارج، حيث الحياة عريضة والحركة سريعة، والاختبارات متعددة، ولكن السجن يوما واحدا ممل ومكرر وكثيب..

«أستاذنا محمود السعدنى.. هل تأذن لى سؤال.. عن كيفية معالجة الرأى المعارض أو الرأى الآخر؟.. بعيدا عن عقوبة السجن..

— اذا كنا نؤمن بالديمقراطية ، فلا بد أن نؤمن بالمعارضة.. ويكون لها نفس حقوقها.. وأنا اذكر لك مثلا بسيطا.. أنا توا قادم من بريطانيا ووقتها كانت هناك استعدادات لإجراء الانتخابات العامة.. ورأيت حزب العمال في كل قنوات التليفزيون يحاول فضح سياسة حزب المحافظين.. حزب الحكومة.. وقد حدث ذلك دون أدنى تدخل من أية جهة من الجهات التابعة لحزب المحافظين الحاكم.. لإيمانهم أن وسائل الإعلام هى ملك للشعب وليست ملكا لأى حزب من هذه الأحزاب.. وبالتالي فإن الشعب هو صاحب الاختيار، هذا ببساطة هو مفهوم المعارضة.. بعيدا عن شبح الاعتقال أو السجن لأصحاب الأفكار المعارضة للحكومة.. والسجن في هذه الحالة لا يكون إلا للمعارض الذى يحمل السلاح.. أما المعارضة بالفكر والرأى والقلم والندوات والمؤتمرات فلا غبار عليها.. ومسموح بها لكل أفراد الشعب.. ولكنك حين تحمل السلاح فلا بد وأن تواجه بالسلاح.. هذه هى أزهى عصور الديمقراطية التى أحلم أن تكون فى مصر.. فيكون لكل مصرى الحق فى أن يقول كلمته.. وأن يكون له أيضا حق تكوين الأحزاب.. لأن الديمقراطية الحقيقة ليست حقا إلهيا لأحد فالحكم لمن يختاره

الشعب والجماهير.. وبناء على ذلك فيكون لكل مواطن حق إنشاء جريدة يقول من خلالها رأيه ورأى من يمثلهم.. مادام ذلك يتم في حدود القوانين واللوائح ووفقا للدستور والعرف الموجود..

وأحب أن أؤكد لك أننا رغم وجودنا على بداية الطريق الديمقراطي إلا أننا بالنسبة للدول العربية الاخرى متقدمين جدا في هذا الميدان.. وهذه شهادة لوجه الله.. إنها بالفعل واحدة لديمقراطية بالنسبة لبقية الدول العربية الأخرى.. إننا في مصر نعتبرها باريس الشرق العربى.. حتى في عهد عبد الناصر وعهد السادات.. ورغم قسوة ما يراه المسجون السياسى في مصر.. إلا أن ما يقاسيه لا يضاهى أبدا ما يتعرض له الإنسان العربى في سجون العراق وغيرها من الدول العربية.. وعلى وجه الخصوص في العراق في مختلف العهود والعصور..

ولسوف أضرب لك مثلا واحدا لما يحدث في مصر الآن.. إننا جميعا أصعاب رأى ومفكرين.. نختلف مع الحكومة وننتقدها بقسوة.. ومع ذلك لم يدخل واحدا منا السجن.. ولا فتصور أن هذه هى الديمقراطية التى نحلم بها.. إن هذا النوع من الديمقراطية هو أن يكون لكل فرد منا حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف.. وكذلك حرية الانتخابات دون التدخل من أى جهة من الجهات.. لأننا جميعا نعمل من أجل شعب مصر.. والفيصل في الاختيار وصناديق الاقتراع.. وإننى أحلم بوصولنا لهذه الدرجة من الديمقراطية قريبا.. ووقتها لن نجد مسجوننا سياسيا أو معارضا صاحب رأى داخل المعتقلات، وسوف يقتصر هذا الأمر على الإرهابيين الذين يتحاورون بالسلاح.. وبالفعل تجد مثل هؤلاء الإرهابيين هم ضيوف السجون والمعتقلات في بريطانيا أم الديمقراطية الحديثة.. وأنا أقول لك أيضا إن ماحدث في الاتحاد السوفيتى من انهيار الشيوعية مرجعه غياب الديمقراطية..

\* نعود إلى اللقطات الإنسانية في رحلة السجن الكبرى التى صاحبت حياة الولد الشقى.. ونسأل..

\* هل تعرف محمود السعدنى على شخصيات داخل السجن مازال محتفظا بصداقتها حتى بعد الخروج؟.. وما هى الشخصيات الغريبة التى مازالت عالقة في ذهنه داخل هذا العالم؟..

— من هذه الناحية.. هناك أصدقاء كثيرون.. أذكر منهم مأمور ضرائب اسمه الأستاذ محمود.. وكانت هوايته الكبرى الأكل.. وما زالت علاقتى به قائمة حتى الآن نتزاور من حين لآخر.. فكان يحب الزبيب ولحوم البط، ودائماً يوصينى بضرورة أن يبعثوا إلينا بما يحتاجه من هذه الأصناف فى كل زيارة، وكان محكوماً عليه بثلاث سنوات.. وقد تركته داخل السجن وخرجت قبله.. وهو الآن محاسب كبير..

أما الشخصية الأخرى.. فهو شاب ظريف جداً تعرفت عليه داخل السجن حكم عليه فى تهمة قتل عمد.. والقئلة فى السجن عادة محترمون أو.. موهوبون.. لانهم غير مجرمين مثل النشالين وغيرهم.. ويحضرنى هنا موقف غريب من جملة سمعتها بعد دخولى سجن القناطر بيومين.. فقد شاهدت اثنين من المجرمين فى خناقة حامية.. وكل واحد يقول للآخر: «عيب دا احنا مجرمين ومش لازم نتخانق أمام الافندية دول».. هذه العبارة ظلت لاصقة فى ذهنى طويلاً.. واكتشفت أنها حقيقة فعالم المجرمين مختلف تماماً عن عالمنا نحن.. عالم المسجونين السياسيين وعالم القئلة الذين كثيراً ما يتميزون بالنظافة والنظام ولم لا؟..

فكل واحد منهم على الأقل محكوم عليه بخمسة وعشرين عاماً.. انها حياة كاملة.. ولا يعلم وقت الخروج أو متى سيكون؟.. وأذكر أن الولد اسمه فتحى.. ويعمل الآن بإحدى المحلات بشارع الصحافة.. بجوار أخبار اليوم ولتلقى سوياً من آن لآخر.. ففى العيد نلتقى.. ويفطر عندنا فى رمضان مرة واحدة..

**\* لو أن أحد هؤلاء طلب منك أن تساعدته أو تقدم إليه خدمة هل تسارع فى تلبية هذا الطلب؟**

— مفيش كلام.. أساعده فوراً.. ليس هذا فقط بل العساكر وضباط البوليس الذين مازال بعضهم على علاقة بى حتى الآن.. وأنا أذكر أنه كان يحرسنا فى فترة السجن الأخيرة حوالى تسعين ضابطاً ثلاثة وثمانين منهم يمكن أن تزنها بميزان الذهب.. و٧ ضباط يعنى تقدر تقول مش قد كده ومن هؤلاء الضباط الأوفياء على ما أذكر ضابط اسمه ابراهيم العزازى.. رجل بمعنى الكلمة.. وقد خرج على المعاش الآن برتبة لواء ويعمل فى الكويت.. وفى كل زيارتى للكويت لابد وأن يزورنى.. وآخر اسمه نبيل البرقوقى مدير كلية الشرطة للضباط المتخصصين السابق.. وثالث اسمه حسب

حميده.. وهو الآن برتبة لواء.. وقد التقينا منذ فترة قصيرة.. وللأسف لم أعرفه ولكنه عرفنى بنفسه وتبادلنا الضحكات والذكريات..

### \* وما هى ذكريات محمود السعدنى مع الجلادين داخل المعتقل؟

– ولا حاجة.. تقابلت مع بعضهم خارج السجن.. ولم نتبادل أى حديث.. وأنا أعرف واحدا منهم كان اسمه الأول حلمى وكان شخصية غير مرغوب فيها إطلاقاً من جانب كافة المسجونين السياسيين.. ورغم وصوله إلى أعلى المناصب.. إلا أننى اعتبره لا ينفع فى أى منصب من هذه المناصب الكبيرة.. وقد تقابلنا فى مرة من المرات أثناء إحدى سفرىاتى فى داخل مطار القاهرة.. والتقينا لقاء فتور.. وبالطبع كان يعرف أننى محمود السعدنى.. وثالث ضابط بوليس لاداعى لذكر اسمه.. أيضاً التقيت به.. وكان من هؤلاء الضباط الأشرار.. وكما ذكرت لك فإن أغلبية الضباط الذين تعرفت عليهم آنذاك كانوا ضباطاً أشرافاً ورجالة.. وظلت علاقتهم قوية ومستمرة حتى بعد انتهاء مدة العقوبة.. ولا بد من ذكر المرحوم فريد شينيشن مأمور سجن الواحات الذى لم يسمح فى فترة وجوده من قتل أى مسجون أو دفنه حياً.. كما كان يحدث قبله.. رغم قسوته فكان منصفاً وحازماً فى الوقت الذى مات فيه الكثيرون من مساجين سجن أبو زعبل فى ذلك الوقت.. هذا الضابط ظلت علاقتى به دائمة ومستمرة حتى وفاته.. حيث كان مديراً لأمن الدقهلية ثم رئيساً لمجلس مدينة جمصة.. وعائز أقول لك إن أغلب هؤلاء الجلادين كانوا «صولات» ثم ترقوا.. وكان عليهم أن يثبتوا كفاءتهم فى ميدان التعذيب داخل السجن..

### \* لو قلنا.. كم كتاباً ألفه الأستاذ محمود السعدنى داخل السجن؟

– لم أكتب حرفاً داخل السجن..

### \* لماذا؟..

– أولاً.. أيام سجن عبد الناصر.. كان ممنوعاً علينا القراءة والكتابة.. وفى سجن القناطر أيام السادات.. كان علينا أن نقرأ فقط باعتبارى أحد المحكوم عليهم فى قضية الخيانة العظمى التى حدثت عندها من قبل.. وكان بالسجن مأمور أعرفه سابقاً.. لذا لم أجد مشكلة فى التعامل داخل الجدران العالية من هذه المرة معه.. وقد أبدى استعداداً لتلبية كل طلباتى من الشاي والقهوة والأطعمة.. إلا الورق والقلم.. فقد قالها لى

بصراحة.. (ممنوع الورق والقلم.. وإلا هنزعل من بعض).. واتفقنا على عدم مطالبتي بالورق والقلم.. واستجابتي الكاملة لكل أوامره داخل السجن طلبا لراحة العقل والدماغ.. لكن مع ذلك كتبت بعض الكتب داخل السجن.. بس في دماغى.. مثلا كتاب «الولد الشقى فى السجن».. كونت فكرته فى رأسى أيام السجن.. وكذلك كتاب «مصر من تانى».. وعندما خرجت أفرغت ما فى رأسى من أفكار داخل الكتب التى صدرت فيما بعد..

**\* ولو سألنا.. كم كتاب.. أو كم فكرة كتبها الولد الشقى بعد خروجه من السجن تأثرا بهذه التجربة.. ماذا تقول؟**

- هو كتاب واحد.. «الولد الشقى فى السجن».. وكتاب آخر أنشره مسلسلا بإحدى المجلات الأسبوعية اسمه «الطريق الى مشى» عن فترة سجن الواحات.. وقد كتبت بعد هذه الفترة الطويلة من منطلق نظرية خاصة بى وهى أن مثل هذه الأحداث لابد وأن يكتبها المفكر بعد فترة زمنية طويلة، لأنه بالفعل لن يبقى فى الذاكرة من هذه التجربة إلا ما يستحق أن يكتب فوق الورق.. والباقى سوف ينساه..

**\* هل يعتقد الكاتب الصحفى محمود السعدنى أن فترة السجن بالنسبة للمفكر تعتبرها فترة سوداء فى حياته أو فترة بيضاء؟..**

- إذا كانت متعلقة بمسألة سياسية فهى نقطة بيضاء ووسام يعلقه فوق صدره.. مادام غير مجرم أو حرامى.. ولا مختلس أو قواد.. انها تجربة رهيبة جدا.. فلا بد من أن تكرم المفكر وتقيم له التماثيل وتعطيه الأوسمة لا أن تضعه فى السجن.. وأحب أن أقول لك إن جميع كتاب ومفكرى مصر جاءت عليهم فترة زمنية سجنوا جميعا إلا قلة قليلة جدا.. مثل فتحي غانم وموسى صبرى ولطفى الخولى ويمكن أنيس منصور أيضا ومصطفى أمين.. كل هؤلاء وغيرهم ذاقوا مرارة هذه التجربة..

ولعلك سوف تسألنى عن ارتباط أمر اعتقال هؤلاء المفكرين بتوقيع رئيس الدولة.. وأقول لك بأمانة.. انه زمان بالفعل كانت أوامر الاعتقال لابد وأن يوقعها رئيس الدولة، وربما يرجع السبب إلى سهولة هذه الطريقة لأن اعتقال أى انسان مسألة صعبة جدا.. بجانب أنهم لا يعتقلون إلا المفكر صاحب الرأى المؤثر فى قطاع عريض من الجماهير

والذى له علاقة بأمن الدولة.. وهذا لا يعنى أن الكاتب أو المفكر كان له قيمة.. أبدا.. كانوا يقبضون عليه ويضربونه ويعذبونه بقسوة.. وكل ما فى الأمر أن رئيس الدولة كان ولا بد وأن يوقع على هذه الأوامر حتى يطمئن على عملية القبض على هؤلاء ويستريح من عناء أفكارهم ومشاكلهم لأنه كان يتصور أنهم أعداؤه.. ولا بد من التخلص منهم ومحاربتهم بشتى الطرق.. واسمح لى أن أقول لك إننى رغم حبى لجمال عبد الناصر فقد اعتقلنى كما رويت لك من قبل، ولم أكن ضده فى يوم من الأيام ، ولو تسألنى لماذا حدث كل ذلك.. أقول لك لا أعرف السبب أو الهدف..

وعلى فكرة.. أود أن أشير إلى حقيقة هامة هى أنه حينما تغيب الحرية وتسود الدكتاتورية.. يكثر اعتقال المفكرين.. ويزج بهم داخل السجون والمعتقلات.. ولو كنت مكان رئيس الدولة أو رئيس الحكومة أو حتى مكان وزير الداخلية.. وعرض على كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم.. ومع الفرض أن ذلك لم ولن يحدث.. فإننى كنت سوف أوقع على هذا الكشف بالتنفيذ لأننى أؤمن أنهم وهم فى أماكنهم هذه يرون أشياء لا نراها نحن الذين نجلس خارج السلطة.. وتقديرهم للأشياء غير تقديرنا.. ولو كنت مكانهم.. يجوز كنت أفكر مثلما يفكرون وربما أتخذ نفس إجراءاتهم.. وهذا للأسف من صنع الأجهزة المعاونة.. والحاكم الذى يعطى أذنه للأجهزة لا يكون عادلا.. وأضرب لك مثلا بعبد الناصر الذى أسلم قياد نفسه إلى تلك الأجهزة اللعينة التى قضت عليه فى النهاية.. لأن بعض الضباط من رجال الثورة تصورا أنفسهم أنهم جاءوا للقضاء على الملكية وإحلال ملكية أخرى.. هى ملكية كل منهم.. بحيث تحولوا فى النهاية إلى أمراء وباشوات مصر.. كله ينهب.. وكله يسرق.. وطبعا كان على رأسهم المشير عامر.. ومكتبه وشلته.. وعاشوا ولا الملوك الأوائل.. وللأسف انساق عبد الناصر معهم بكل قوته وعقله.. لأنه كان يعتبرهم مماليكه الخاصة..

ولا نبخس قدر أحد.. لذلك أقول إنه رغم ذلك.. كان من هؤلاء الضباط رجال لهم شرف وكرامة.. وعلى سبيل المثال شعراوى جمعه والذى اعتبره من أشرف الرجال الذين عرفتهم طوال حياتى ومحمد فايق وسعد زايد.. وعلى فكرة لو أن جمال عبد الناصر جاء من خلال جماهير الشعب لتغير موقعه تاريخيا رأسا على عقب.. ولتربع على عرش أبطال مصر الذين يشرفون تاريخ مصر طولا وعرضا..

\* أنا أعرف أنني قد أثقلت على الولد الشقى بالأسئلة ولكثرتها ولطولها.. لذا أرجوك العفو.. وأن تسمح لي بسؤال آخر يقول:

**\*ماذا لو كان محمود السعدنى مأمورا لسجن القناطر أو الواحات أثناء فترة اعتقال كاتب مثل محمود السعدنى..؟**

– لو كنت مأمور السجن في فترة اعتقال محمود السعدنى.. كنت أول حاجة سوف أقوم بها هي أن أضرب محمود السعدنى.. وتعرف لماذا؟ لأننى في منصب المأمور.. وشغلته في الأصل أن يضرب المسجونين لأن السجن في الأصل مؤسسة عقابية.. يعنى مهمتى كمأمور سجن أن أضرب المعتقلين كعقاب لهم..

وعلى الفكرة العقاب ينتج عقابا وللأسف الذى ينتج هذا العقاب ليس المأمور أو المدير.. ولكن عساكر السجن.. الذين اعتبرهم أسوأ فئة خلقها ربنا.. وقد عرفت أحدهم.. وكان يدعى «على حرب» الله يرحمه بقى دلوقت.. كان مشهورا بعصاه الغليظة وقلبه الميت.. واكتشفت وأنا داخل السجن أن أغلب هؤلاء العساكر من أيام زمان.. تقدر تقول من أيام حيدر باشا.. بل أقدم من ذلك كمان..

ولهؤلاء العساكر عذرهم.. فقد كان الواحد منهم يتقاضى مثلا ١٢ جنيها في الشهر.. فكيف كان يعيش.. وأنا أذكر لك بالمناسبة أنهم أيام عبد الناصر.. اتفقوا مع خبير يوغسلافى لدراسة أحوال السجون المصرية فبعد أن لف على كل السجون كتب تقريراً يقول فيه: أنا حتى هذه اللحظة لا أعرف كيف يعيش المسجون المصرى داخل هذه السجون؟.. وأنا أقترح أن تتركوها كما هي الآن.. لأنه لا حل لها.. إن السجون في مصر سيئة جدا ومسئولية خطيرة جدا.. ولا بد من نظرة جذرية لحالة السجون حتى لا تفرز مجرمين آخرين.. وحتى تؤدي دورها في علاج المجرم بدلا من أن تساعد على العودة إلى عالم الإجرام..

كما يكون دورها أن تحول المجرم إلى مواطن صالح يخدم المجتمع بدلا من أن تنتقم منه.. لأننى أعتبر أن هذه المشاكل هي أخطر ما يواجهنا على طريق التنمية.. فكل واحد منا معرض أن يدخل السجن لأى سبب وفي أى لحظة.. فإذا دخله بالوضع الذى كان عليه.. حتما سيدخل مرة أخرى وثالثة ورابعة.. ولا تتخيل أننى حين أكون مأمور

سجن سوف أصلح.. أبدا.. لأن المأمور أو المدير يعمل وفق لوائح وقوانين مفروضة عليه..

ولعل اسمه يدل على وظيفته.. إنه يا سيدي مأمور.. ووفقا لذلك لابد من تغيير هذه اللوائح والقوانين.. ولا تتخيل أنه توجد بهذه اللوائح ما يسمى بعلاوة الإجرام.. تصور يكافئون المسئول داخل السجن بعلاوة وزيادة في المرتب كلما زاد إجرامه.. وأنا أعتقد أن مثل هذه الصور الآن بدأت تتغير كثيرا.. كما أعتقد أن هناك رغبة أكيدة لدى المسئولين لتطوير سجون مصر وتحويلها إلى أماكن منتجة تساعد المسجون في حياته داخل السجن وخارجه.

### \* وهل يوجد في مصر الآن مسجون سياسى؟..

— أبدا.. فعلا مصر الآن خالية والحمد لله من المساجين السياسيين.. ولا أعتبر الموجودين الآن داخل السجن من أفراد جماعات التطرف من هذا الصنف.. لأننى سبق وقلت إن المفكر السجين السياسى هو الذى لا يستخدم السلاح.. وإذا لجأ إلى السلاح فإنه يتحول إلى إرهابى.. وبالتالي لابد من مقاومته بالسلاح أيضا..

وهذا القول لا ينطبق على أناس بعينهم أقول لك أى واحد يحمل السلاح فقد خرج من تصنيف المسجون السياسى وصاحب رأى، وتحول إلى مقاتل وإرهابى.. ولعلمك لا توجد جماعة عبر التاريخ حملت السلاح ووصلت إلى السلطة.. لأن السلاح يولد السلاح.. والنتيجة هى الحرب.. ويا قاتل يا مقتول.. التاريخ يقول ذلك.. إننى أبعثها رسالة من خلال هذا اللقاء أقول فيها لابد أن نتحاور باللسان والقلم..



## الحكاية الثالثة يرويها د. عبد الصبور شاهين:

### لم يستطع السجن أن ينزع مابداخلي من أفكار

كنت ومازلت مثل المئات غيرى.. بل إن شئت قل مثل الآلاف من البشر الذين يتابعون بين الحين والآخر أستاذنا العالم الجليل الدكتور عبد الصبور شاهين ويلاحقون علمه الغزير الذى يفيض علينا وينقله إلينا من عدة منافذ، ما بين منابر المساجد وموجات الإذاعة وشاشات التلفزيون.. وكانت علاقتى به قبل إجراء هذا الحوار مثل هؤلاء الذين يتشوقون إلى متابعة أعماله وسماع صوته الرزين الذى يدل على أصالته وعلمه وشدة إيمانه..

وفجأة احتل هذا العالم الجليل كل كيانى.. وبات شغلى الشاغل ليس من حيث علمه وأعماله ومؤلفاته المتنوعة.. بل من حيث هو إنسان عاش وقاسى وجرب.. وأيضا دخل السجن.. فما أقسى هذه الكلمة على النفس.. ولكنها الحقيقة المرة التى لفحت وجهى.. وأنا أعد هذه السلسلة الطويلة من الحوارات.. وتساءلت فى داخلى.. عن البداية لأننى وكما سبق أن قلت.. إن أسخف عبارة اكتشفتها منذ تفكيرى فى إجراء هذه الحوارات.. أن أقول لضيفى.. العالم الجليل أو الصحفى الكاتب المفكر أو أستاذ الجامعة حامل مشاعل العلم والنور كم مرة دخلت فيها السجن؟

ومنذ نجاحى فى الحصول على تليفون منزله.. وأنا أراجع نفسى وأحاول أن أختار الكلمة تلو الأخرى... وتوكلت على الله فى القيام بالمحاولة الأولى.. وجاء صوت الدكتور عبد الصبور شاهين رجل الدين المثقف عبر الأسلاك الصماء.. هادئا فيه رقة الأب نحو ابنه.. وأقولها بصدق لقد شجعنى على المضى قدما فيما أقدمت عليه.. وعرضت على مفكرنا الجليل فكرة الحوار.. ومضمون موضوعه والهدف منه.. صحيح أننى لم

أحصل على موافقة سريعة.. ولكنى أخذت وعدا بالاستجابة لفكرتى حين معاودة الاتصال.. وقد كان.

ومما ساعد على سرعة إجراء هذا الحوار.. أننى فى حديثى عبر التلفون ذكرت للدكتور عبد الصبور.. أن أحد أصدقائه الأعزاء هو الذى حكى لى جزءا من حكايته فى السجن.. عندئذ خرج صوته الهادىء يضحك.. مصمما على أن يرانى كى يحكى لى هو التجربة.. واتفقنا على موعد اللقاء.. وكان اللقاء فى منزله القابع فى بداية شارع الهرم ناحية محافظة الجيزة.. وداخل شقته حيث الأثاث الأنيق والاستقبال الحافل وأكواب الليمون التى قوبلت بها عند باب الصالون.. والجلبات الأزرق الذى يفضل أن يجلس به عندما يفرغ من عمله وعلمه..

وبعد لحظات الاستقبال المعتادة.. انتقلنا إلى الصالون الكبير الذى تحيط به تحفا إسلامية نادرة.. كان أبرزها سجادة باكستانية كثيرا ما حدثنا عنها أستاذنا العالم الجليل.. وعندما فكرنا بنية تصويره كى تكون الصورة مصاحبة لحديثه معنا.. انتقل على الفور إلى حجرة نومه.. حيث استعد ببذلة جميلة.. وهنا اكتملت كل مظاهر الود والحب.. وبات الاستعداد وشيكا من أجل تشغيل شريط التسجيل كى يسجل لى ولكم وقائع كلمات هذا الحوار.. وتجربة أحد علماء مصر ومفكرها مع السجن والاعتقال..

فى هذه المرة بالذات.. وعند تسجيل هذا الحوار.. وجدت نفسى أتحدث بكلمات اعتذار كثيرة لإحساسى أننى قد أثرت فى نفس محدثى شجون الماضى التى ربما عفى عليها الزمن.. وخشيت أن أصيب بداخل مفكرنا الألم وإعادة نزيق جرح قديم.. وعلى ذلك تصورت أن مثل كلمات الاعتذار هذه ربما تخفف من وقع ما سوف يأتى من أسئلة.. وللمرة الثانية أحسست بصلاية الدكتور عبد الصبور شاهين وترحيبه الزائد عن الحد من أجل أن أبدأ الحديث.. وحتى لا يشعرنى بمزيد من الحرج بادرنى قبل أن أسوق إليه أسئلة الحوار..

فى الحقيقة هناك أمران.. الأمر الأول: أن ما كان هو من اختيار الله سبحانه وتعالى.. وما اختاره الله هو الخير.. حيث قال أحد المريدين لشيوخه أسأل الله لك العافية.. قال له إن العافية ما اختار الله سبحانه وتعالى ورسولنا الكريم حينما سأل ربه العافية من عليه بأكلة خيبر.. وهى الشاة المسمومة التى قيل إنها

أحد أسباب وفاته صلى الله عليه وسلم..

أما الأمر الثانى أن كثيرين ممن أعرفهم قد ذاقوا ويلات السجن أكثر منى.. ولا يحبون أن يتحدثوا عنه.. وأنا شخصيا أعذرهم وألومهم لأن دخولنا السجن لم يكن لعب فينا ولم يكن لقضية شخصية.. حتى نقول إننا لن نتحدث خوفاً من الرياء وضياح الأجر.. لقد كان دخولنا السجن لقضية البلد.. لقد كانت قضية فكر هدفها رفض الدكتاتورية.. ومن أجل ذلك ينبغي أن يعرف شباب مصر أن بها رجالاً وعلماء قد رفضوا العيش في ظل الدكتاتورية وهى في عنفوانها.. وأن هؤلاء الرجال مازالوا رجالاً.. لم يستطع الطاغية أن يؤثر على قدراتهم وعطائهم الفكرى ماداموا قادرين على العطاء وإبداء الرأى والفكر..

**ليسمح لى أستاذنا الداعية الإسلامى والمفكر الكبير الدكتور عبد الصبور شاهين أن أقول إن الألم ما زال يعتصرنى حين أسأل بصراحة كم مرة دخل فيها أستاذنا السجن؟**

- ثلاث مرات.. أول مرة في عام ١٩٥٤ وبالضبط من أكتوبر حتى منتصف ديسمبر عام ١٩٥٤.. أيامها كنت في الليسانس وكان عمري وقتها ٢٦ عاماً.. وقد سبق اعتقالى في تلك الفترة هروب طويل في الشوارع.. خوفاً من أهوال السجن.. كنت أعيش في القاهرة، وبالضبط في الإمام الشافعى وأهرب في عابدين.. والسبب يرجع إلى انتمائى الى الإخوان المسلمين.. وفور حل الجماعة في عام ١٩٥٤ بدأت مطاردة العناصر النشيطة بالجماعة وكنت وقتها من هذه العناصر.. حيث تم إغلاق مسجد الشاطبى الذى كنت أخطب فيه.. وبذلك أصبح لا موضع لى إلا السجن، فهربت..

ومن كثرة حالات هروبى وتنقلى هنا وهناك أشفقت على من كنت أهرب عندهم، لإحساسى بما لديهم من حرج حين أبيت عندهم، فعدت إلى بيتى في الإمام الشافعى وهناك وجدت المخبر ينتظرنى فاستسلمت له.. وذهبت معه إلى السجن.. واعتقلونى لمدة أربعة أيام أو خمسة على ما أذكر.. .. وحين خرجت من السجن دخلت امتحان الفصل الدراسى الأول، في أول تجربة لتقسيم سنوات الدراسة إلى عدة فصول.. وكان الهدف من ذلك أن يتعد الطلبة عن السياسة.. وهذا ما كانت تهدف إليه حكومة عبد الناصر.

أما الاعتقال الثانى فكان فى ٢٥ مارس عام ١٩٥٥.. وكنت الأول على دفعتى فى الفصل الدراسى الأول .. وبقيت بالسجن إلى آخر فبراير عام ١٩٥٦.. ثم دخلت الفصل الدراسى الثانى.. فتخرجت من دار العلوم فى نفس العام متأخرا عاما عن زملاء الدفعة بسبب هذا الاعتقال.. ومكثت خلالها أحد عشر شهرا ما بين سجون القلعة وسجن قنا.. حين أخرجوا تجار الحشيش ووضعونا بدلا منهم.. أى والله.. لقد كنا نشم رائحة الحشيش داخل الزنزانة.. من تأثير وجود هؤلاء التجار قبلنا.. وفى المرة الثالثة سجنتم عام ١٩٦٥.. وكنت وقتها قد حصلت على الدكتوراه.. ومكثت بالسجن آنذاك أربعة أشهر.. وكانوا يطلقون على حينئذ معتقل بدرجة دكتوراه..

**\* ما هو تأثير تجربة السجن خلال هذه المرات الثلاث على أستاذنا المفكر الدكتور عبد الصبور شاهين.. أولا كمفكر وثانيا كإنسان.. وثالثا كمصري؟**

— أولا يجب أن نفرق بين حالتين.. حالة أن يكون الإنسان داخل السجن وحالة أن يرى الإنسان نفسه داخل السجن وهو خارج السجن فالرؤية هنا تختلف.. فأنت داخل السجن تعيش بإحساس غريب يجعلك لا تريد أن تخرج منه.. والسبب يرجع إلى أننا كنا نشعر ونحن داخل السجن أننا فى أمان.. وقد لا ينطبق هذا الإحساس على المرة الأولى حيث كنت محتجزا بقسم الخليفة.. ولكن فى المرة الثانية وهى مدة الأحد عشر شهرا تلك التى قضيتها داخل الاعتقال بدون سبب أو اسم أو عنوان أو أى هوية.

وأنا أتذكر حين وقع الاعتقال.. أنهم قد دخلوا إلى بيتى ليلا وأنا أذاكر تحت لمبة جاز وطلبوا منى الذهاب معهم لمدة خمس دقائق .. وبعدها استمرت الحبسة لمدة أحد عشر شهرا.. وفى المرة الثالثة على ما أذكر اعتقلت وأنا كنت مشرفا على أحد معسكرات الطلبة بحلوان.. وقتها كنت أستاذنا بكلية دار العلوم وكنت ممثلا لها فى الإشراف على هذا المعسكر الذى أقيم تحت رعاية الاتحاد الاشتراكى.. واعتقلت فى ظروف اعتقال الداعية الإسلامى المرحوم سيد قطب.. لاحظتها كنت أبيت تحت الخيمة.. وفى الصباح جاءوا حيث أنام.. وألقوا القبض على .. وأنا سوف أقول لك شيئا مضحكا بهذه المناسبة.. إن هذا المعسكر قد أقيم كما ذكرت تحت إشراف الاتحاد الاشتراكى، واشترك فيه الطلبة وأساتذة الجامعة من الذين تصوروا أنهم يؤيدون الثورة المباركة ومبادئها

الاشتراكية.. وحقيقة لا أعرف كيف اختارونى وعلى أى أساس .. ربما جاءوا بى إلى هذا المعسكر كى يكون من السهل عليهم اعتقالى وبعد أربعة أشهر أفرجوا عنى..

أعود وأقول لك.. إننى فى تلك الفترة كنت أرحب بالسجن أكثر من وجودى خارجه.. لإحساسى بالأمان وأنا بداخله.. وقتها التقيت داخل السجن خاصة الاعتقال الأخير.. بالاستاذين كمال رفعت والدكتور عبد العزيز كامل.. وقد جىء بهما من أجل القيام بعملية غسيل مخ لكل المعتقلين.. وطبعا وأنا منهم رغم أننى وكما سبق أن قلت لك كنت حاصلا على الدكتوراة.. وعندما أحسوا بذلك.. قدموا لنا الاعتذار.. وبعد نهاية اللقاء طلبت منهم أن يتوسطوا لدى المسؤولين حتى لا يفرجوا عنى.. رغم أننى كنت فى غاية الشوق للخروج.. فأثار طلبى هذا تعجبهم واستياءهم عندئذ أكدت لهم.. أننى حين أخرج سوف أعيش فى سجن آخر.. إذن أفضل العيش هنا فى هذا السجن الصغير بدلا من السجن الكبير.. هذا السجن الذى تعودت عليه.. لأننى حين أخرج سوف يراقبوننى ويضايقوننى فى حياتى وفى معيشتى.. بجانب أننى سوف أشعر بعزلتى السياسية.. لأننى كنت محروما من الإدلاء بصوتى..

خلاصة القول.. كنت سوف أفقد حريتى.. إذن أنا هنا أعيش فى أمان أكثر.. بعيدا عن الشعور بالمطاردة.. وكنت قد جربت تأثير ما بعد الاعتقال على حياتى فى الفترة التى أعقبت المرة الثانية التى اعتقلت فيها عام ١٩٥٦ وهى آثار خطيرة جدا..

مثلا.. كنت فى الفرقة الرابعة من الليسانس.. وحين تخرجت التحقت بكلية التربية.. وكنت وقتها فى حاجة إلى أن أعمل كى أعيش وعلى ذلك حاولت كثيرا أن أجد عملا.. فكنت أتقدم للمسابقات التى يعلن عنها فى الوظائف الحكومية.. ورغم أننى كنت أنفوق على زملائى المتقدمين الآخرين فى نفس الوظيفة.. إلا أنهم كانوا يرفضون تعيينى.. وفى مرة من هذه المرات تقدمت لمسابقة مترجم بالإذاعة عام ١٩٥٧.. وحصلت وقتها على المركز الأول.. ومع ذلك رفضوا تعيينى..

إننى وقتها كنت متفوقا فى اللغة الفرنسية التى أتقنتها فى فترة اعتقالى.. واستطعت وأنا داخل السجن أن أترجم بعض الكتب الاسلامية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، وعلى وجه الخصوص للمفكرين الجزائريين.. ومرة أخرى دخلت امتحان الملحقين السياسيين بالجامعة العربية رغم أننى كنت من خريجي دار العلوم لأننى

دارس للحقوق السياسية ومتفوق كذلك في اللغة الفرنسية.. وأيضا لم أوفق في الالتحاق بهذا العمل.. وقد تتعجب حين أقول لك إنه في المرة الأولى التي دخلت فيها امتحان الإذاعة.. خرجت علينا مجلة الإذاعة والتليفزيون بأسماء الناجحين في الامتحانات.. وكنت أنا الأول ثم أمين بسيوني وآخرون..

وقبل أن يقرروا تعييني.. طلبوني بالمباحث العامة.. من أجل أن أعلن توبتي وتنصلي من أفكار الإخوان المسلمين.. حتى يوافقوا على هذا التعيين.. فرفضت.. ورفضوا هم كذلك.. بل أبلغونني بأن هناك أكثر من ذلك.. فما دمت متمسكا بأفكارى هذه فلن أعر على أى عمل فى أى مكان فى مصر.. خوفا من تأثيرى المدمر على الثورة على حد تعبيرهم لقد أصدروا حكما بإعدامى فيما يتعلق بلقمة العيش..

من هذه اللحظة كان على أن أعتد على نفسى لأننى وقتها كنت متزوجا وأول.. وماداموا قد أعلنوا عن هذه النية فلا رجعة عنها من جانب حكومة الثورة.. وأحب أن أؤكد لك أننى فى هذه الفترة رغم اشتغالى بالفكر السياسى إلا أننى كنت مهتما بالعلم ومتفوقا فيه.. خاصة فى اللغات الأجنبية وهى التى نفعتنى فى هذه الشدة من منطلق إحساسى أن رجل السياسة لابد وأن يتفوق فى مجالات حياته المختلفة.. ولإيمانى بأن الزعيم يجب أن يكون أكثر الناس ثقافة وفكرا بخلاف ما اعتدنا عليه طوال التاريخ من أن يكون الزعيم متخلفا من منطلق أن الزعامة لا تفرضها غوغائية الشوارع.. بل تفرضها إمكانياتهم وكفاءتهم ودورهم فى خدمة الآخرين..

ولا تتصور تأثير هذه المواجهة على حياتى.. حين أبلغوننى بهذا القرار.. من ناحية كان المفروض على وقتها أن أخرج من مصر مثلما خرج غيرى من العلماء والمثقفين أمثال الدكتور يوسف القرضاوى وآخرين.. أخرج هروبا وبحثا عن لقمة العيش.. ولكننى أصررت على البقاء رغم هذا التحدى ولن أترك مصر.. وعلى ذلك فكرت فى الالتحاق بأى عمل لا تتحكم فيه سلطة الحكومة.. فبعد تجربتى مع الإذاعة والمحققين السياسيين.. عينت مدرسا فرفضوا.. وعينت معيدا أيضا فرفضوا.. بل طردونى.. وأكثر من ذلك تم ترشيحى للسفر خلال أربع بعثات دراسية فى خارج مصر.. وأيضا رفضوا هذا الترشيح ولم يوافقوا عليه..

ولا تتخيل حين أقول لك مدة هذه الحرب التى أعلنتها على حكومة ثورة ٢٣ يوليو..

لقد بدأت منذ عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦٥ تسع سنوات كاملة والحرب دائرة ضلبي وتقودها سلطات حكومة الثورة.. لقد طردت بالفعل من أربع وظائف.. حتى قيد الله لي الرجل الطيب المرحوم الشيخ أحمد حسن الباقوري الذي رغم عدم معرفتي به وعدم لجوئي إليه من أجل الوظيفة، فتوسط لي لدى المسؤولين حتى وافقوا على تعييني بالجامعة مرة أخرى.. وكما قلت من قبل إنني كنت قد قررت الاعتماد على نفسي والتكسب من الترجمة حيث معرفتي بالطيبة باللغة الفرنسية.. وأنا أذكر أن أول كتاب ترجمته كان بعنوان «شروط النهضة» للمفكر الجزائري مالك بن نبي.. ذلك الكتاب العظيم الذي ألفه هذا الداعية باللغة الفرنسية.. ثم ترجمت له الكتاب الثاني وخرج بمقدمة كتبها المرحوم الرئيس أنور السادات والكلام ده كان عام ١٩٥٧ في ديسمبر ١٩٥٧..

أما الكتاب الثالث الذي ترجمته في ذات السلسلة فقد صدر عام ١٩٥٨.. وكنت وقتها قد عدت من جديد الى التدريس بعد أن طردوني منه وبعد أن توسط المرحوم الشيخ الباقوري لدى زكريا محيي الدين.. ومن جديد بدأت أكافح من أجل العودة الى الجامعة.. وبالفعل عينت معيدا في سبتمبر عام ١٩٥٨.. وكان عندي أربعة كتب مترجمة من الفرنسية..

وفي هذه المرحلة كنت قد ملكت ناصية الترجمة كفن.. ونبذت نفسي آنذاك لأستخدمها في نقل الكتب الإسلامية في الوقت الذي كان فيه من المحرمات أن يكون لديك كتابا عن الإسلام.. وقد وفقني الله حيث كان الداعية الإسلامي الجزائري من بين الرجال الذين كانت ترضى عنهم حكومة الثورة في ذلك الوقت، وبالتالي كانت كتبه هي الكتب الإسلامية الوحيدة التي كان من المسموح اقتنائها وقراءتها.. وكنت أرى أن ترجمتي لهذه الكتب الإسلامية يمكن أن تعوض الشباب المصري عن ضياع الكتب الإسلامية ومحاربتها من جانب حكومة الثورة..

لقد كان الداعية الإسلامي مالك بن بنى صديق الضابط كمال الدين حسين.. وحين أصل بك الى الحديث عن تأثير تجربة عام ١٩٦٥ كآخر مرة دخلت فيها المعتقل.. أقول لقد كانت فترة اعتقالات عن طريق الكشوف بمعنى أن الزعيم عبد الناصر كان يزور روسيا في تلك الفترة فوقف على باب الكرملين رحمة الله عليه أو لعنة الله عليه.. وأعلن

للصحفيين أنه تم اعتقال ٦٥ ألف مصري الليلة الماضية.. وأنه استطاع أن يجمعهم في ليلة واحدة وأنه قد قرر أن يضعهم في السجن الى الأبد.. ولن يخرجوا من المعتقل إلا بوفاته.. ويبدو أنه لم يكن يدرى أن الله كان بسمعه.. فلم يطل به المقام وعجل بنهايته كما عرفناها جميعا..

لقد تأثر الرئيس عبد الناصر كثيرا بموجات الإلحاد والشيوعية التي كانت سائدة في ذلك الوقت للدرجة التي أعمته عن رؤية مشاكل شعبه وأهله.. بل إنه قد ابتعد في تلك الفترة عن مناهج الله وتعاليم الدين الإسلامى.. واتضح ذلك كثيرا فيما اتخذه من قرارات كانت ضد هذا الشعب المسكين.. والسبب أيضا يرجع إلى هؤلاء الذين أحاطوا به وأوهموه بأن الشيوعية هي الحق.. هؤلاء لا يزال بعضهم يعيش بيننا حتى هذه اللحظة.. والحمد لله فقد أمد الله في أعمارنا حتى رأينا سقوط الطاغوت الأصغر.. والطاغوت الأكبر حيث انهارت دولة الشيوعية ورحلت إلى غير رجعة..

### \* كم كتابا ألفتموه داخل السجن أو خارجه تأثرا بهذه التجربة؟

— أنا لم أعمل في مجال السياسة كمحترف ولا كتبت كل ما عندي ولكننى قد تفرغت للعلم.. وجعلت ما عندي من أمور السياسة يخدم طبيعتى العلمية.. وأعتقد أنه قد آن الأوان بالنسبة لى أن أجلس كى أكتب هذه التجربة.. وسيكون مجيئنا إلينا هنا هو البداية.. ولم تكن فترة السجن كلها اطلاع وتحصيل فقط.. بل كنت وقتها أترجم كتباً إسلامية.. وأرسلها إلى الخارج كى أنشرها.. أيضا كانت فرصة السجن طيبة كى أتقن اللغة هذه من منطلق إحساسى بأهمية اللغات بالنسبة للداعية الإسلامى.. وندرة وجود المفكر الإسلامى الذي يعرف لغة الآخرين.. وهذه كانت فى رأى كارثة.. فكيف يكون الداعية الإسلامى جاهلا بلغات القوم الآخرين.. والدعاة فى مصر بالذات كانوا لا يتمتعون بهذه الصفة الهامة.. واللغة الفرنسية كانت فى رأى هامة جدا لارتباطها بالعديد من الكتب الإسلامية التى كتبت بها سواء فى شمال أفريقيا أو فى أوروبا.. وكانت الدافع بالنسبة لى من أجل إتقان هذه اللغة هو نقص العارفين بها آنذاك وإحساسى بأنها تخدم الدعوة الإسلامية.. وحين نعود من جديد للرد على سؤالك بخصوص تسجيل تجربتى فى السجن.. أقول لك إننى من كثرة مشاغلى فى مجال الدعوة



الإسلامية لم أفكر في هذا الأمر.. ولكننى وكما سبق أن قلت أنفا أنه مشروع قادم إن شاء الله..

حتى المقالات لم أضمنها هذه التجربة من قريب أو بعيد.. وقد تتعجب حين أقول لك إن هذه أول مرة أتحدث فيها عن تجربتى فى السجن والاعتقال، وصدقنى لم أتحدث عن هذه التجارب لأحد غيرك من قبل، ولا أحب أن أصرح بها بعد ذلك.. ولكننى على ما أتذكر فى مرة من المرات قد ألفت فصلا فى أحد كتيبى عن لغات أهل الإجرام الذين التقيت بهم داخل السجن ولكنه كتاب بشكل علمى.. سجلت من خلاله بعض الألفاظ التى كنت أسمعها من هؤلاء القوم الذين عاشرتهم طويلا خلف الجدران العالية..

**\*ولو قلنا بالنسبة لرأى المفكر الاستاذ الدكتور عبد الصبور لماذا يسجن المفكر؟..\***

- لأن أخطر شيء على الطاغية الدكتاتور الذى لا يملك شيئا سوى قوته بنفسه وبمن جوله.. وثانيا أنه يمتلئ خوفا ورعبا ممن يملكون العقول.. عندئذ يصبح شغله الشاغل القضاء على عقل الأمة ومفكرىها ولعلنا نميز هذه الحقيقة فيما يخص عصر الرئيس السادات.. الذى كان رحمة الله عليه عندما مات عبد الناصر قد تولى السلطة بفكر آخر.. حيث كان الوجه الآخر من العملة.. ففى مصر بعد الثورة ظهرت العملة بوجهيها الأول وجه الدكتاتور أيام حكم عبد الناصر.. والوجه الثانى حين تولى مسئولية الحكم الرئيس السادات وسعى بكل ما يملك من أجل مقاومة فكر الدكتاتور والقضاء على زبانيته..

فجاء هذا الوجه مقاوما لهذا الفكر المتخلف.. وأنا أقول لك بمناسبة الحديث عن الرئيس عبد الناصر أن كل الذين يدافعون عنه، انما يدافعون عن أنفسهم لأنهم مدانون مثله فيما اقترفته أيديهم حين ساد وجه الدكتاتورية البغيض.. ولأنهم فى الحقيقة هم الذين صنعوا بداخله الدكتاتور باستخدامهم أساليب النفاق والنفعية.. ولو كان هناك فكر حر لما خلقوا بداخل هذا الرجل الدكتاتور الملعون.. بل ربما قد تحول إلى رجل مفكر وعادل وإنسان يعمل لصالح شعبه ولصالح أمته.. لكن المشكلة أنه قد وجد فى الفكر صعوبة.. وأفهموه أن الدكتاتورية أسهل.. وانظر إلى الفرق بين الراعى الذى يتعامل مع قطيعه باللين والحسنى حتى يستطيع أن يتحكم فيما يريعه..

أما الدكتاتور الجزار.. فليس أمامه سوى العقاب حتى يهرب قطعانه.. ويتغلب عليهم.. وأعتقد أن الفرق كبير وواضح.. وطبعاً في هذا الجو الإرهابي نجد الفكر يتراجع أو على الأقل يختفى لحظات.. ثم سرعان ما يعود.. والدكتاتور يفهم ذلك جيداً.. ولهذا يبادر من تلقاء نفسه من أجل القضاء على هؤلاء المفكرين حتى لا يعودوا من جديد.. ويكون رحيلهم بغير رجعة توجع قلبه وتسبب له المتاعب.. فالدكتاتور يحاول أن ينعم بحياته في غياب هؤلاء المفكرين..

لذا عادة ما يكون مصيرهم القتل والاعتقال والنفي وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل.. ولكن لله حكمة عظيمة جداً.. فإله سبحانه وتعالى حين يجعل للإنسان محنة يجعل له في طيها منحة.. وأعطيك مثلاً واحداً أيام عبد الناصر.. حين قبضوا على المفكر والداعية الإسلامي سيد قطب.. كانت فرصة كى يستكمل دراسته الهامة التي صدرت فيما بعد تحت عنوان « في ظلال القرآن » وبقي نشر الكتاب.. فكان لا بد وأن يسخر الله الطاغية كى يكون سبباً في نشره.. فأخذوا الداعية سيد قطب وأعدموه.. فيتحرك تفسير سيد قطب من مصر إلى العالم كله..

وبالفعل قد تمت ترجمته إلى كل اللغات الأجنبية في أوروبا وفي العالم الإسلامي كله، ولينتشر سيد قطب في آفاق العالم كله أكثر مما كان عليه وهو حي.. ودعني أقول لك.. هل هذه من حسنات عبد الناصر؟..

إن عبد الناصر فعلاً له دور كبير في نشر فكر سيد قطب وفكر غيره من علماء الدين الإسلامي دون أن يدري أو يتدخل..

**\* ما هي أهم اللقطات الإنسانية التي عايشها مفكرنا الكبير الدكتور عبد الصبور شاهين داخل السجن خلال هذه المرات الثلاث.. وما هي أهم الشخصيات التي تعرفتم عليها هناك؟..**

— أولاً اللقطات الإنسانية كثيرة جداً أهمها أن السجن هو في الحقيقة مطبخ يوحد بين المسجونين على اختلافهم.. وأذكر أنني كنت وأنا في سجن مصر أتعاطف مع الشيوعيين مع العلم الأكيد بأنهم أعداء الدين وأعداء الإنسانية..

وكان من أهم أصدقائي في السجن مثلاً الكاتب الكبير المرحوم الدكتور يوسف إدريس الذي سجن معه في عام ١٩٥٥ .. حيث كان يعيش في دور (٩) بسجن مصر

بالزنزانة رقم (٤) وأنا كنت في دور عشرة وفي الزنزانة رقم ١٩٠٠ وكانت تقابل زنزانة يوسف إدريس.. وكنا دائما نتبادل التحيات ونتجالس سويا حتى داخل الزنزانة.. وكان معه على ما أذكر طبيب يدعى حمزة البسيوني.. ليس الجلال اللواء البسيوني قائد السجن الحربى.. بل طبيب يحمل نفس اسمه.. وقد استمرت علاقتنا متصلة حتى بعد الخروج من السجن.. وعلى ما أذكر أنني دعوته في مرة من المرات في عام ١٩٧٠كى يتحدث في برنامج كنت أعده بالتليفزيون اسمه « ندوة العلماء ».. ولكن ظروفه الصحية لم تساعده على تلبية هذا الطلب.

لقد كان يوسف إدريس رجلا عاقلا.. ولم يكن شيوعيا.. بل هو فنان.. يبحث في كل شىء مختلف في الحياة.. ولذلك كنت على ثقة من إمكانية تقديم الدكتور يوسف إدريس كعالم إسلامى يتحدث للناس في ندوة العلماء.. كما أتذكر ونحن نحضر سويا لهذه اللقاءات أن الدكتور يوسف إدريس قد اختار بعض الشخصيات المعروفة عنها الميول الشيوعية.. وأكد أنهم في أعماقهم علماء مسلمين وليس كما هو معروف عنهم.. وبالفعل تحول بعضهم الآن إلى دعاة للإسلام في كل مكان..

وأذكر أن أحدهم يدعى الدكتور عودة وهو شقيق الأستاذ عبد القادر الشهيد الإسلامى العظيم.. وكذلك ذكر لى الأستاذ أنور عبد الملك من أجل استضافته في برنامج ندوة العلماء.. وعرفت من الدكتور يوسف إدريس أنه يتحدث عن الدين الإسلامى بسماحة العالم الجليل.. وعرفت من الدكتور يوسف كذلك أن معظم الشيوعيين المصريين لم يكونوا كذلك إلا من أجل الانتصار في بعض القضايا.. وحين يبلغون مأربهم يتراجعون عن طريق الشيوعية فورا.. ودخل السجن أيضا تعرفت على شخصية اقتصادية مصرية تتمتع بسمعة عالية في تخصصها.. إنه الأستاذ الدكتور محمود أبو السعود.. ثم الدكتور توفيق الشاوى الذى كان يعمل أستاذًا للفقه الجنائى بالجامعة ولا يزال حيا متعه الله بالصحة وطول العمر.. وكانت طريقة التعارف فيما بيننا أنهما كانا يعرفان اللغة الفرنسية التى كنت أحبها في ذلك الوقت.. وكان وضعهما في السجن في أعوام ١٩٥٥ و ١٩٥٦ متميزا.. لذلك وجدت لديهما مجموعة كبيرة من الكتب الفرنسية التى عن طريقها قويت هذه اللغة.. واستطعت أيضا من خلالهما الاطلاع على الفكر العلمى الذى كان يكتب أيضا باللغة الفرنسية في مختلف ألوان المعرفة وعلى وجه الخصوص علم النفس التحليلى لفرويد..

وهذه المرحلة وكما سبق وأن ذكرت لك قد نفعتني كثيرا حتى بعد خروجي من السجن.. فقد تمكنت بهذه اللغة من العيش عن طريق ترجمة الكتب حين أعلنت الحكومة الحرب على العبد لله وطرده من كل الوظائف الحكومية.. وهؤلاء العلماء الذين ذكرت لك بعض أسمائهم قد دفعونني إلى المزيد من الاطلاع والقراءة.. ورغم أن الكتب كانت في هذه الفترة وفي هذه الظروف ممنوعة، إلا أنني كنت أحصل عليها من العساكر بالرشوة.. وكنت على يقين أن عددا كبيرا من الضباط الذين كانوا يشرفون علينا داخل السجن كانوا يتعاطفون معنا كثيرا.. حتى مأمور السجن نفسه الذي مازلت أذكر اسمه إنه اللواء محمود صاحب الذي كان بداخله تعاطف غريب مع المفكرين المسجونين لديه في سجن مصر..

وأنا أقول لك إن من بين الشخصيات العظيمة التي تعرفت عليها داخل هذه الجدران والذي تأثرت به وبأفعاله كثيرا.. فقد حضر إلى في يوم من أيام العيد وأنا مسجون انفراديا بسبب هتافى ضد عبد الناصر.. جاء إلى الزنزانة يحمل لي كعك العيد.. ثم مال بث أن أخرجني كي أنضم إلى زملائي في الاحتفال بهذا اليوم العظيم.. وأخذ يخطب فينا وقتها.. مبينا تعاطفه معنا ويكفيه القول بأنه قد رحمنا ورفض قتلنا مثلما كان يفعل غيره من ضباط السجن الآخرين لأننا فعلا كنا لديه داخل السجن بلا أسماء أو عناوين وحتى لو كنا قتلنا على حد قوله.. فلن يلومه أحد.. فقد كانت هذه هي سنة السجون في مصر آنذاك.. وأنا أذكر الكلمة التي قالها لي بالذات.. أنت هنا بدون إيصال.. ومن الممكن ألا ترجع إلى بيتك..

ومن غير المفكرين.. أنا لا أنسى الولد «بورق».. فقد كان مدرسة وحده.. شهرته «بورق».. وكان مجرما متمرسا.. تعرفت عليه حينما كان يأتي إلى زنزانتنا من أجل تنظيفها.. وقد قدم لي خدمات عديدة منها توصيل الرسائل إلى الأهل حين زيارتنا.. بل وتوصيل الرسائل عبر بعض العساكر إلى المنازل في مقابل أجر ثابت.. بأمانة لقد كنا نعيش مع هؤلاء في أمان نوعا ما.. وقد لعب الأخ بورق دورا عظيما في هذا الشأن هذه الشخصية تعرفت عليها عام ١٩٥٦.. فقد كان مجرما ممارسا عاما وليس متخصصا.. وكانت لديه آلاف الألفاظ والمصطلحات الخاصة بعالم السرقة والإجرام.. وكم تعلمت منه الكثير من هذه المصطلحات.. تلك التي استفدت منها كثيرا في كتابي عن «اللغات الخاصة»..

فقد خصصت لتلك المصطلحات فصلا كاملاً في هذا الكتاب بعنوان « علم اللغة العام ».. وكان أيضاً له الفضل في أن يكون لنا نحن المعتقلين السياسيين من المفكرين لغة خاصة.. فعلى سبيل المثال كلمة «خشب» كانت تعنى الضابط.. أما العسكري فكانت إشارته الحذاء.. وهكذا.. أكثر من ذلك عرفت بعض المصطلحات الخاصة به وبالعالم السرقة مثل كلمة «ذهوب» كانت تعنى الجنيه.. وهكذا..

**\* ما هو تصور الدكتور عبد الصبور شاهين للطريق الأمثل نحو معالجة الرأي الآخر أو الرأي المعارض للحكومة أو للحاكم؟ غير عقوبة السجن؟..**

- يجب أولاً أن يكون لدى الحاكم استعداد للفهم.. وليسمع وجهات النظر المختلفة.. لأن الحاكم من وجهة نظري هو مملوك للجماهير وللشعب وللرعية.. فلا بد أن يستمع إليها.. مؤيدين ومعارضين.. في ظل إيمانه بالحرية للجميع.. لأن الإنسان يمكن أن يصبر على الجوع والعطش ولا يصبر أبداً على سلب الحرية.. ولذلك فإن أكبر جريمة يرتكبها الحاكم أن يصادر حرية الناس من منطلق أن رأى الحاكم لا يمكن أن يكون صادقا أو صائبا على طول الخط.. وكذلك المؤيدين له.. وأيضا المعارضين..

والمصيبة أن تغيب هذه الحقيقة عن الواقع.. ويحاول كل من يتصل بالحاكم أن يشبع بداخله شهوة الانفراد المصحوبة بالرأى الصائب.. دون الالتفات لرأى الآخرين.. ودعنى أذكر لك مثالا من تاريخنا المعاصر.. فالرئيس السادات حينما جاء بعد فترة حكم طويلة من الدكتاتورية، كان يحكم عقله وثقافته وكان يستمع لرأى الآخرين.. ولذلك نجده قد أحترم المفكر والمفكرين وقربهم إليه.. وحينما غدر عليهم.. وضعهم في السجون.. وضع نهايته بيده.. وعجل بهذه النهاية لأنه تخاصم مع الفكر والمفكرين.

إن هاتين المرحلتين مختلفتان في عهد الرئيس السادات ولعلنى أذكر أيضا فيما يخصنى بعلاقتى بالرئيس السادات أنه في فترة من الفترات السابقة التى ارتبطت ببداية حكمه.. كنت دائما أخطب في أحد المساجد.. ولا أمل أبداً من توجيه الانتقاد لبعض سياسته.. وأقولها كلمة حق وشهادة لله في حق هذا الرجل.. لم يصبنى أى شئ أو سوء من جراء هذا النقد مهما كانت قسوته حتى أصر السادات نفسه أن يحضر لى إحدى هذه الخطب التى كنت ألقاها قبل صلاة الجمعة..

والحقيقة أننى فوجئت يومها بحضوره إلى المسجد.. ولم أغير من خطتى في نقد

سياسته.. ورغم أنه غضب منى.. إلا أن هذا الغضب لم يوصلنى إلى السجن مثلما حدث أيام سلفه الرئيس عبد الناصر.. ولعلنى أذكر أن أهم نقاط الخلاف التى أكدت عليها أيام الرئيس السادات قوله دائما.. اننا نطلب السلام من موقع القوة.. فكنت دائما أرد عليه علانية بأننا لا بد وأن نطلب السلام من موقع الضعف كما أمرنا بذلك رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.. وأعود وأكرر أننى رغم ذلك لم أؤكد لك أن الرئيس السادات قد أخطأ فى حق نفسه وفى حق المفكرين باعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١.. وأنا أعتقد أنه شخصيا قد اتخذ هذه القرارات ضد رغبته.. فلم يكن قراره من داخله.. بل كان قرارا نابعا من داخل نفس زوجته..

إننى مازلت أعتقد ذلك، فهى التى قادته إلى هذا الفعل لأنه كان أنزه من أن يتخذ مثل هذا القرار.. عارف لماذا؟ لأنه أى الرئيس السادات قد ذاق مرارة السجن.. ويعلم أن السجن لا يمكن أن يؤدب مفكرا.. أو يجعله يتراجع عما يعتنقه.. ولا أنسى أن أقول لك إننى من هؤلاء الذين فشل السجن فى انتزاع ما بداخلهم من أفكار..

وبالمناسبة أرجوك أن تسجل عنى هذه الكلمات.. إننا الآن ننعم بقدر كبير من الحرية والاستقرار.. وأؤكد أن ما أقوله الآن وكل أسبوع فى جامع عمرو بن العاص.. لو كنت أقول عشر معشاره أيام عبد الناصر لطارت رقبتى.. وهذه شهادة منى بذلك.. إن هذه الحرية التى نعيشها الآن.. هى استمرار لجو الحرية الذى عشناه فى السنوات الأولى لحكم الرئيس السادات.. ولولا اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١.. لكننا قد سجلنا تاريخا موريا عريقا على طريق الحرية.. ولكن والحمد لله نحن مستمرون فى الطريق وندعو الله أن نصل إلى آخره حيث تسود الحرية أكثر وأكثر..

**\* لماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر بتوقيع الرئيس أو رئيس الحكومة دائما فى دول العالم الثالث؟..**

- لأن الحكم والسلطة فى هذا العالم الثالث مسخرة وموجهة لخدمة شخص واحد فقط هو رئيس الدولة.. فأمنه هو أمن الدولة.. وفزعه هو فزع الدولة.. ولعلك تذكر الآن أن كثيرين قد كتبوا ومازالوا يكتبون هذه الأيام أن أجهزة الأمن فى الدولة قد انصرفت للحفاظ على الأمن السياسى وتركزت الأمن الاجتماعى.. وهذا فى تصورى صحيح.. ويرجع إلى أصل الموضوعات كاسباب لأخطر مشاكلنا الاجتماعية التى

نعانى منها هذه الأيام.. إن الاهتمام بالأمن السياسى حقيقة قد جعل الأجهزة تتصرف كلية إلى الأمن الاجتماعى..

وفى واقع الأمر أنه حين تسود الديمقراطية فى أى بلد من بلدان هذا العالم.. فعلا لن يكون هناك اعتقال لمفكر سواء بتوقيع رئيس الدولة أو بتوقيع غيره.. مادام هذا الفكر لا يحمل إرهابا أو تدميرا لصالح المجموع والمجتمع.. واننى على يقين أننا هنا فى مصر من بين دول العالم الثالث المؤهلين فى الواقع لحمل مشاغل الحرية والديمقراطية.. لأننا نعبد الحرية ونقدسها ونحترم الحاكم الذى يقدمها لنا مادامت فى حدود الشريعة وخدمة المجتمع.

وفى ظل هذا الحوار دعنى أقول لك إننى أرى ضرورة إلغاء حالة الطوارئ الآن.. لأن مثل هذه القوانين الاستثنائية تبث الرعب فى قلب الحاكم أكثر من الرعية ولعلك هنا تتعجب.. ودعنى أحكى لك حكاية من واقع ذكر قانون الطوارئ.. وقد عرفتها داخل السجن..

لقد كنا نسمع داخل جدران السجن أن الحالة الآن (ج).. ولن تنزل إلى الحالة (ب).. لأن ضباط السجن كانوا يستفيدون ماديا من الحالة الأولى.. من أجل ذلك كانت حالة الطوارئ تستمر مقروضة علينا داخل السجن لا لشيء إلا من أجل زيادة مرتبات وبدلات القائمين على السجن.. وأنا اعتقد أن مثل هذه الأمور كانت صميمة الى حد بعيد فى عهد الرئيس عبد الناصر..

**\* وهل ترون أن يكون للمفكر سجنا خاصا به أم يزج به وسط بقية المجرمين؟..**

– بالنسبة لى ولفكرى.. أنا أرى أن العمل بالشريعة الإسلامية لن يبقى على وجود السجون إطلاقا.. لأن الحدود والتقارير تحسم القضايا.. وأنا أتصور أن هذه السجون والمعتقلات من سيئات القوانين الوضعية..

وعلى شماعه هذه السجون يعلق فشل القانون الوضعى فى معالجة الجريمة، أو فى توفير الأمن أو فى حماية الحرية.. إذن لابد من الواجب أن نفرق بين الفكر وبين أنواع الجرائم الأخرى.. ومما يزرى السلطة ويدينها.. أن تضع مثل المفكرين مشاغل الثقافة والرأى مع غيرهم من القتلة والمجرمين.

لابد من الفصل بين الإثنين.. وإن كان من الضروري قيام مثل هذا الاختلاط.. فأنا أرى من الضروري أن يعين المفكر داخل السجن حتى وهو سجين في وظيفة معلم لغيره من المجرمين.. وعلى ذلك يكون له احترامه ويمارس فكره داخل السجن.. لأنه سوف يمارس هذا الفكر شاءت السلطة أم أبت.. وكل ما هنالك أنه في مثل هذه الحالات.. يتم التنبيه على المفكر أنه سوف يتم حجب فكره عن العامة أى عموم الشعب والجماهير.. ومن حقه ممارسة هذا الفكر داخل السجن.. ويمكن له أن يوظف فكره هذا في إصلاح أحوال بقية المسجونين على ذمة قضايا الإجرام المختلفة وقد يكون ذلك نوعاً من الإنسانية..

### ﴿وما رأيكم في سجون مصر الآن؟﴾

- لدينا نوعان من السجون.. نوع يتسم بالأشغال الشاقة وهى أمور تمارس خلالها حرف وهى فى الواقع أشياء عملية.. ولكن هناك أنواع من السجون ربما خصصت لبعض المدللين.. مثل المضبوطين فى قضايا أخلاقية أو إلى آخره أو المدمنين.. وكلها أمور تدخل فى إطار التخبط لأن السجن لابد وأن يكون فقط سلب لحرية الإنسان لفترة محددة.. وأن يمارس خلالها إنسانيته وحياته.. بعيداً عن التعذيب والإهانات.. لأن السجن إذا أراد أن يصلح مجرماً.. فلن يصلحه إلا بالتكريم وبالتربية الصالحة داخل السجن وإشعاره بالتأنيب.. ولا بد أن يفهم السجين أنه رغم خطئه ضد المجتمع.. فالمجتمع يعامله بخلاف الجرم الذى ارتكبه.. هذا من ناحية السجن كعقوبة.. أما أنا فأساساً أرفض حتى وجود عقوبة السجن من وجهة النظر الإسلامية.. لأن السجن فى ظل التشريع الإسلامى لا وجود له إلا على سبيل الحجز فى انتظار الحسم وفقاً للشرعية الإسلامية.. وليس للعقوبة طويلة المدى.. فإن أقصى عقوبة معترف بها شرعاً هو تغريب عام بعد مائة جلدة.

ولا تخص هذه العقوبة القتلة فإن من يقتل لابد وأن يقتل، لأن الحدود فى الإسلام أساسها صلاح حالة الرعية.. والهدف منها الردع وليس التشويه وأيضاً لمنع الجريمة.. وهنا دعنى أحدثك عن ضرورة وجود المجتمع الإسلامى الصحيح القائم على أسس صحيحة، منها التربية السليمة التى يكون أهم رسالتها خلق إنسان مسلم يتعد كلما استطاع عن ارتكاب الجريمة.. وفى ظل أوضاع السجون الآن لا أجد غضاضة فى



القول بأنها تساعد على إفراز الجرائم أكثر من كونها أداة إصلاح.. وأنها بالفعل من وجهة نظري مدرسة تخرج المجرمين أكثر إجراما وأكثر تخصصا..

فالمجرم سارق الفراخ يخرج منه أكثر خبرة فيتحول إلى سارق الشقق أو سارق بنوك.. إنه مدرسة حقيقية تخرج مجرمين متمرسين في الإجرام..

وذلك عكس ما نتمناه وننشده.. لأن السجن معناه ردع المجرم وتخويفه حتى لا يرتكب الجريمة مرة أخرى.. وهذا للأسف مالا يحدث في سجوننا الآن.. وهذا التصور ليس بعيدا عن الواقع والممارسة.. بل أقول لك أكثر من ذلك.. إننى عرفت أوضاع هذه السجون قبل دخولها.. من قراءاتى لمذكرات صول في البوليس يعمل سجانا.. وكنت وقتها طالبا بالثانوية.. وجاء لى بهذه المذكرات من أجل أن أضحها له لغويا قبل طبعها.. وعرفت منها أن السجن باعترافات هذا الرجل هى بحق بؤرة فساد قذرة وعالم رهيب. وما شاهدته خلال رحلتى عبر السجون في المرات الثلاث أكد لى ما قرأته وربما أكثر.. ودعنىؤكد لك أن الأمن الذى يختل في الشوارع في المنازل وفي الأتوبيسات مصدره الحقيقى أصحاب السوابق الذين حولهم السجن إلى مجرمين متمرسين.. وتقدر تقول إنهم من نتاج صورة السجون السيئة وأوضاعها التى هى في حاجة إلى مزيد من الرعاية والإصلاح..

وماذا لو كان الدكتور عبد الصبور شاهين مأمورا للسجن؟

- أنا.. أنا كنت حولت السجن إلى جامعة.. والمسجونين إلى تلاميذ.. وأضع بين يدي كل منهم أستاذنا في علم النفس كى يسجل لهم تقدمهم على طريق الإصلاح والتوبة.. وهجران الجريمة إلى الأبد..

\* وأخيرا ماذا لو كان الأستاذ الدكتور عبد الصبور رئيسا للحكومة أو وزيرا للداخلية.. وعرض عليه كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم ماذا كان يفعل؟

- عارف أقوم باستعراض أسماء هذا الكشف وأطلب فورا منح كل منهم وساما من الدرجة الأولى..



## الحكاية الرابعة يرويها الدكتور ميلاد حنا:

### دخلت السجن أستاذاً جامعياً وخرجت منه.. سياسياً ومفكراً

لا شك أن الحياة داخل المعتقلات حافلة وغريبة، ومليئة بالأعاجيب ورغم ما كتب عنها إلا أن المكتبة المصرية مازالت بحاجة إلى رؤى جديدة من خبرات مختلفة لما يجري في سبتمبر الغاضب.. ولأن سبتمبر هذا هو خبرتى الأولى في الاعتقال أرجو أن تكون الأخيرة بحكم السن.. والموقع والتاريخ.. وقد تصادف أن كنت من ثمرات القطفة الأولى للمعتقلين، وتصادف أيضاً أن كنت من المجموعة الأولى التي تم الإفراج عنها كى تنتقل من زنازينها إلى قصر رئيس الجمهورية مباشرة.. وبين تاريخ اعتقالى وتاريخ الإفراج فى قصر الرئاسة تدفقت فى النهر مياه كثيرة تروى حكايات بالغة العمق والدلالة..

هكذا بدأت كلمات الدكتور ميلاد حنا تنساب منذ اللحظة الأولى لإدارتى لشريط التسجيل الذى حمل إلينا نص هذا الحوار.. وكثيراً ما توقفت عند كلماته قبل التسجيل وبعده.. مثلاً عند قوله: «أضيت تسعة أسابيع مع الأساقفة والكهنة المسيحيين، فكان احتكاكاً جديداً بالنسبة لى، إذ أن اعتقال وسجن رجال الدين المسيحي فى مصر غير مسبوق فى تاريخها المكتوب، وعندما ما أعلنت احتجاجي على ذلك لما يمثله من شرخ فى جدار الوحدة الوطنية تم نقلى إلى سجن آخر مع السياسيين.. فكان احتكاكاً أكثر حدة وأكثر طرافة..

مثل هذه العبارات والجمل التى كان يخرجها الدكتور ميلاد حنا أستاذ الهندسة والسياسى الشهير، كانت تحمل فى كل كلمة يقولها معنى المصيرية والحب المتأصل فى دماء هؤلاء المصريين الذين يعشقون تلك الأرض الطيبة بصرف النظر عن الدين.. وحين تراه وهو يحكى ويقول لك لا بد وأن تتوقف وتستمتع حتى تستفيد.. وتعرف لأن حبه للحياة العملية والعلمية لم يجعله ينفصل عن حبه الأول للعمل السياسى من أجل مستقبل جديد.

وها نحن نتوقف مرة أخرى أمام كلماته قبل أن يدور بنا شريط التسجيل.. وتراه

يحدثك بصوت العالم الواصل من كل معلوماته وأحاديثه.. وهو في كل ما كان يروييه صادق إلى حد بعيد.. ولقد شغله العمل السياسي كثيراً حتى وهو في منصبه الجامعي.. ففي عام ١٩٦٩ على سبيل المثال كان نشاطه السياسي قد اتخذ أشكالاً واضحة مما دفع جهات الأمن إلى طلب القبض عليه.. بل وطلب فصله من الجامعة.. بل تجاوز الطلب حد وضعه تحت الحراسة.. ولكن ذلك لم يحدث لأسباب سوف نحكيها فيما بعد.

المهم دخل الدكتور ميلاد حنا المعتقل... وأول شيء صادفه ذلك الموقف الذي يحيكه بقوله: عندما انتهى الضابط من تسجيل مضبوطات الكاهن في محضر رسمي وطلب منه التخلي جانباً على أن يظل واقفاً... سأل الضابط.. هل هناك معتقل ثانٍ.. قلت نعم.. أنا ذلك الثاني وأسمى ميلاد حنا..

\*\*\*

وحين يدور شريط التسجيل.. ونبدأ في سماع كلمات هذا الحوار بأسئلته التقليدية يخرج علينا صوت الدكتور ميلاد حنا وهو يحكي الذكريات وكأنما يعزف على أوتار أحباله الصوتية.. وبدون الدخول في تفاصيل ذكر الأسئلة وإجاباتها.. علينا من هذه اللحظة الإنصات جيداً من أجل تتبع واع لما سوف يروييه لنا هذا المفكر عن تأثير تجربة السجن والاعتقال في حياته..

وقبل أن يظهر صوت الضيف عبر جهاز التسجيل سبقته كلمات كاتب هذه السطور مقدماً إياه بعبارات الود والتحية... مثل قوله: بسم الله الرحمن الرحيم إننى في غاية السعادة لإجراء مثل هذا الحوار مع أحد المفكرين المصريين الذين لم ييخلوا ولو بحبة عرق من أجل مصر.. سواء في الجامعة أو في ميدان العمل السياسي والعمل العام.. وأستاذنا الدكتور ميلاد حنا هو من المفكرين الذين أعطوا ولا يزالون يعطون من فكرهم لتلاميذهم في كل مكان. والذين وقع عليهم الاختيار ضمن المفكرين المصريين الذين ذاقوا مرارة السجن والاعتقال رغماً عنهم أو بإرادتهم.. وهذا ما سوف نعرفه بعد لحظات وهذا حوار سيكون الأستاذ الدكتور ميلاد حنا ضيفاً فيه من خلال مجموعة من الأسئلة.. وتدور جميعاً حول مفهوم الفكر وارتباطه بالقضبان والسجون.. فأهلاً بك معنا ومع هذه الكلمات كى تبعدنا بأصول هذه التجربة مع اعتقادنا بأنها تجربة مريرة وأليمة.. من منطلق أن مرارة جيل المفكرين الحاليين.. هي خير المصائب التي تنير للأجيال القادمة طريق الفكر وتكون دافعا قويا من أجل المزيد

من حرية الرأي..

وبعد عبارات الترحيب التقليدية.. بدأ الدكتور ميلاد حنا ذكرياته بقوله: أنا سوف أحكى لك بدون قلق.. وبداية أقول لك: لكل مرحلة تاريخية سمة من سمات النضال والكفاح.. فأنت ترى في سابق الأزمات الخصوم السياسيين كانوا لا بد وأن يختلفوا.. وبطرق مختلفة ومتنوعة.. مثلاً كانوا يوضعون فوق خازوق ثم يوضعون في الزيت ثم يصلون إلى مرحلة العدم.. ولا يعرف عنهم أحد أى شىء ولا أى مصير.. ولكن في زمن الحضارة وظهور الاستعمار اتجه الفكر الاستعماري لانجلترا إلى النفي.. وتستطيع أن تقول إنها كانت مرحلة ثانية أو مرحلة أرقى من سابقتها..

وعرفت مصر الصراع السياسى آنذاك ضد الاحتلال البريطاني.. وكان مصير هؤلاء المفكرين الوطنيين هو النفي إلى المستعمرات البريطانية في دول وقارات أخرى مثل مالطة وسيشيل وما شابه ذلك.. أما في خارج مصر.. فقد نفوا نابليون إلى أن مات في نفيه.. أما في العصور الحديثة ماذا يستطيع الحاكم أى حاكم في ظل دولة مستقلة أن يقاوم خصومه السياسيين والمفكرين.. وهذا الحدث ينقلنا إلى المرحلة الوطنية التي مرت بها مصر بعد حصولها على الاستقلال يعنى تقدر تقول الكلام القادم نخص به مصر فقط التي شهدت في المرحلة التي تلت الاستقلال اختفاء صفة نفي هؤلاء الخصوم.. ومن ثم الجديد هو لجوء الحكام إلى فكرة بديلة.. وهى الاعتقال.. أو السجن أو أسماء مختلفة.. وأنا أذكر لك بالنسبة لحالتي.. كان الاسم الرسمي لاعتقالي هو «التحفظ عليه».. وطبعاً كان ذلك هو الاسم المستتر للسجن أو للاعتقال.. إذن أنت منذ هذه اللحظة أمام ظواهر جديدة ومختلفة.. ولو عدنا إلى تأصيل هذه الإجراءات وفها لمفهوم اللغة العربية نجد أن ما تسميه أنت الاعتقال وما أسميه أنا التحفظ يعنى لغويًا «التوقيف».. أى إيقاف هذا الإنسان عن الحياة.. وهذا الوصف ينطبق تماماً على اعتقال الرئيس محمد نجيب.. الذى تم اعتقاله في مكانه.. في بيته.. أى تحديد إقامته.. إذن تجد أنك أمام مفاهيم مختلفة لهذا الفصل في العصر الحديث..

جانب آخر من جوانب اختلاف المفاهيم هو التعذيب فتجد التعذيب أيضاً يختلف من مكان إلى مكان.. بالنسبة للمعارضة الوطنية.. وأصحاب الفكر الذين هم في صدام سلمى مع الحكومة..

وأحب أن أؤكد لك أنه رغم ما سوف أحكيه من تجاوزات ارتبطت بمفهوم السجن أو الاعتقال فإن مصر العظيمة وخاصة في العصر الحديث.. لم يسمح أى حاكم أن يقتل معارضاً له.. مهما وصلت هذه المعارضة إلى الخصومة..

والصراع العلنى يعكس ما كان يحدث ولا يزال في بعض الدول العربية وعلى سبيل المثال في دولة مثل العراق.. هناك لا يعترفون بهذه الخصومات وبالتالي تجد المصير معروفاً وهو التصفية الجسدية المستمرة لأولئك المعارضين وأصحاب الفكر الحر.. وبصرف النظر داخل هذا البلد عن اسم الحاكم أو شخصه.. إنه هناك يعتبر اتجاهاً عاماً وسياسة معلنة.. ولعلك سمعت مثلى عما يحدث في بعض الدول العربية التي تستعين بقواتها الجوية من أجل تصفية المعارضين..

ودافعى الحقيقى لاستعراض هذا الأمر في عمومياته.. حتى يكون أمام الشباب بانورما لما يمكن أن يحدث تحت مسمى الاعتقال أو التصفية الجسدية.. وتحديد الإقامة.. أو التحفظ.. أو أى مصطلح من هذه المصطلحات التي اخترعت من أجل معاقبة المفكرين والخصوم السياسيين..

ودعنى أقول لك وبشكل عام.. إن أنواع القضببان.. مختلفة وإن معاملة الخصوم السياسيين والمفكرين وأصحاب الرأى المخالف.. كانوا يعاملون بشكل أكثر احتراماً أيام الاحتلال الانجليزى عما كان عليه أيام ثورة ٢٣ يوليو.. بصرف النظر عن التسميات التي أطلقناها على تلك الفترة.. ولا دخل لى بأن ذلك كان استعماراً أو غير استعمار.. المهم شكل المعاملة التي يلقيها هؤلاء المفكرين.. وكان ذلك يحدث من منطلق أن العادات والتقاليد السياسية الانجليزية لم تكن تسمح حتى داخل انجلترا نفسها بمعاملة المعارض أو الخصم أو المفكر الذي يقف في صف المعارضة معاملة سيئة.. لقد كانوا يعاملونهم معاملة حضارية راقية.. وكفى أن أقول لك وأصف سجن الأجانب والمعاملة الحضارية التي كانوا يعاملون بها المسجون السياسى بداخله..

\*\*\*

\* بعد هذا السرد التاريخى.. نريد أن نعرف من الدكتور ميلاد حنا.. كم مرة دخل فيها السجن.. بمفاهيمه المختلفة؟..

ملحوظة: ربما لاحظ القارئ أننى منذ البداية قد اخترت أن يقول لنا هذه المعلومة

الدكتور ميلاد حنا ونقلها بحروفها كاملة من الكتاب الوحيد الذى سجل فيه مذكراته عن السجن بعد خروجه بست سنوات.. ومع ذلك تعمدت أن أكرر السؤال.. وأن يجيب عليه الدكتور ميلاد حنا.. لإحساسى بأنه يمكن أن يضيف الشئ الجديد.. ولسوف نرى بعد ذلك بلحظات من كتابة هذه الكلمة.. وفي رده قال لى:

- لا بد لى أن أقول لك خلفية تاريخية.. أنا تربيتى الإنسانية يسارى.. ومن ثم فقد كنت جزءاً من الحركة الوطنية اليسارية ورغم ذلك لم أكن منضمًا إلى أية منظمة يسارية آنذاك وكنت متعاطفاً مع بعضها ومتبرعا لبعضها بالمال.. وتقدر تقول ده كان سنوات ٤٣، ٤٤، ٤٥، ١٩٤٦ ثم كنت جزءاً من حركة الطلبة والعمال.. فى نفس التيار اليسارى فى ذلك الوقت وذلك لأن أى مفكر أو سياسى لا يبدأ من فراغ.. وفى هذه الفترة تعرفت على العديد من أعضاء الحركة الوطنية اليسارية فى ذلك الوقت مثل خالد محيى الدين وآخرين.

ثم ذهبت إلى جامعة الاسكندرية وعينت بها معيدا بقسم الهندسة عام ١٩٤٥ وكانت الحركة اليسارية فى ذلك الوقت على أشدها وفى ازدهار.. وفى هذه الفترة تعرفت على عزيز فهمى الذى كان يمثل ما يسمى بالطليعة الوفدية وكنت جزءاً من هذه الطليعة.. حتى سافرت إلى بريطانيا.. وهناك كنت عضواً فى اللجنة الوطنية للطلبة المصريين، ثم انتخبت عضواً فى مجلس إدارة نادى الطلبة المصريين عام ١٩٥٣.. وهناك وبعد معرفتنا بأحداث الثورة كنت أحد الذين طالبوا بعودة الجيش إلى مكانته بعد نجاحه فى القيام بثورة ٢٣ يوليو وأخذت موقفاً عنيداً جداً ضد عبد الناصر من منطلق أننا لا بد وأن نبعد عن حكم العسكريين.. وتوقع الكثير من زملائى أننى حين أصل إلى مصر سوف يتم اعتقالى فوراً وفقاً لهذا الموقف..

أما الذى حدث أن الله قد سلم ورجعت إلى مصر من جديد واستلمت عملي بالجامعة فى هندسة عين شمس منذ عام ١٩٥٤ وحتى هذه اللحظة.. وظللت كذلك أستاذًا جامعيًا.. وبعدت بعض الشئ عن مجال الحركة السياسية المصرية آنذاك.. لأننى عرفت أن عبد الناصر قد أمم العمل السياسى.. ومن ثم اتجهت إلى الفكر السياسى أكتب عنه وأمارسه.. وفى عام ١٩٥٩ على ما أذكر أن كل زملائى من رفاق العمل السياسى اليسارى قد تم اعتقالهم جميعاً وكان على قمتهم الدكتور عبد العظيم أنيس.. وفى عام ١٩٦٠ جاء عبد الناصر بحركة التأميمات التى نالت إعجابى الشخصى..

مما جعلنى أشعر أن عبد الناصر قد تجاوز فكره العسكرى.. وهو يحاول أن ينقل مصر إلى المعسكر الاشتراكى وفقا لمبادئ اليساريين.. ومن ثم تمت اتصالات بينى وبين الثورة، وعلى أثره دخلت الاتحاد الاشتراكى وكنت عضوا نشطا فيه.. إلى الدرجة التى كنت وقتها مرشحا وزيرا للإسكان.. وكان ذلك عام ١٩٦٣.. ولكنه لم يحدث لاعتراضى على وجود كافة الشيوعيين المصريين آنذاك فى السجن.

وبعد هذا السرد التاريخى الذى أميل إليه كثيرا.. أستطيع أن أقول لك إن أول مرة أدخل فيها السجن معتقلا فكريا وسياسيا كانت عام ١٩٨١ ضمن اعتقالات سبتمبر الشهيرة.. ومع ذلك تستطيع أن تقول إننى قبل هذا التاريخ كنت مؤهلا لدخول السجن فى أى لحظة.. وعلى ما أذكر كان ذلك عام ١٩٦٨ حينما قادت الطلبة بالجامعة وأنا أعمل أستاذا بها كزعيم لهم.. ووقتها أشيع أننى قد اعتقلت بالفعل.. ولكن ذلك لم يحدث.

ومرة أخرى عام ١٩٦٩.. كان نشاطى السياسى فى ازدياد مستمر ويميل بدرجة ٩٠ درجة ناحية تزعم مطالب الطلبة آنذاك.. مما دفع جهات الأمن إلى طلب القبض على وفصلى من الجامعة.. بل تجاوز الطلب حد وضعى تحت الحراسة.. وما أن اقترب القرار من دائرة التنفيذ حتى تمكن أحد أصدقائى من ترتيب لقاء بينى وبين شعراوى جمعة وزير الداخلية آنذاك.. وبدلا من فصلى أو وضعى تحت الحراسة تصادقنا.. وأصبحنا نلتقى كثيرا لا لمناقشة أحداث الجامعة بل لمناقشة كل ما كان يدور حولنا فى المجتمع.

\*\*\*

وحين أعود لأحدثك عن ظروف اعتقالى عام ١٩٨١ كأول وآخر مرة، أقول لك إننى دخلت تجربة الاعتقال تحت مظلة.. وعبر تاريخ سياسى طويل اهتم بثلاث قضايا هى بالترتيب: قضية إسكان الفقراء فى مصر.. وهذه مشكلة اجتماعية لم تسبب لى أى مشاكل على الإطلاق.. بل أعطتنى رصيذا كبيرا من الحب.. والقضية الثانية: قضية الديمقراطية فى مصر.. وقد أوجدت لى متاعب كثيرة مع عبد الناصر ومع غيره.. ولا أقصد بها الرأى والرأى الآخر لأننى أعتبر هذه العبارة هى تسطيح لمفهوم الديمقراطية وذلك من منطلق إيماني أن الديمقراطية هي نظام متكامل يسير بالية منتظمة.. وما الرأى الآخر إلا مناظرة تتم تحت مظلة الديمقراطية.. بمفهومها الواسع.. لأن الخلاف فى الرأى يتم أيضا ضمن أعتى الأنظمة الديكتاتورية.



إن مفهوم الديمقراطية في خيالي هو نظام شامل ومتكامل يدور بألية منتظمة تابعة من المجتمع وأفراده ووعيه.. وفي مفهومها العميق ما يسمح بتداول السلطة وفقا لرأى الجماهير.. هذه القضية الثانية التى أحدثك عنها وأعنى بها قضية الديمقراطية هى شاغل الشاغل الآن.. وفي المستقبل كما كانت في الماضى.. تلك القضية التى سببت لى العديد من المشاكل مع نظام الرئيس عبد الناصر ونظام الرئيس السادات.. أما القضية الثالثة التى أزعج أننى قد اعتقلت بسببها.. هى قضية الوحدة الوطنية.. التى أعتبرها إحدى ركائز المجتمع المصرى فى كل العصور.. وهذه الألفة بين المسلمين والأقباط التى عشتها فى حياتى المبكرة منذ أن كان والدى عضوا بارزا فى حزب الوفد الذى كان يمثل عنصرى الأمة ووحدة الهلال مع الصليب.

ومع نهاية العهد الملكى.. ووصول أيام الثورة وعبد الناصر.. تلك الأيام التى لم تثر فيها مثل هذه القضية، ولم نشاهد أية مشاكل بين المسلمين والأقباط فى ذلك الوقت.. وربما يرجع ذلك إلى العديد من الأسباب مثلا أولها يرجع إلى امتداد تأثير أفكار الوفد الذى استمد وجوده من عنصرى الأمة.. وثانيا: قيام عبد الناصر بتأميم العمل السياسى الوطنى لكل المصريين سواء المسلمين أو المسيحيين.. فلم يكن يسمح لتحرك سياسى على أعلى مستوى من هذه المستويات.. واستمر هذا الوضع الهادئ داخليا مستمرا فيما يخص الوحدة الوطنية المصرية أعوام ٧٣ و٧٤ و١٩٧٥.. وعندما جاء الرئيس السادات إلى الحكم ودفع بالجماعات الإسلامية إلى الساحة السياسية.. وظلت الصراعات الطائفية تستشرى فى مصر منذ حريق كنيسة الخانكة عام ١٩٧٢.. حتى أحداث الزاوية الحمراء عام ١٩٨١.

والذى حدث بالنسبة لى تحديدا.. أن هذا الموضوع قد أثارنى، وأحسنت أن مصر على حافة الهاوية من ناحية الشرخ الطائفى بين الأقباط والمسلمين.. وهذا الأمر من أساسه مرفوض لأننا قد نختلف سياسيا أو اقتصاديا.. أما الاختلاف حول المبدأ الطائفى فكان من الممكن أن يحول مصر إلى لبنان أخرى.. وذروة الأحداث فى رأىى كانت عندما أعلن الرئيس السادات فى عام ١٩٨٠ أنه رئيس مسلم لدولة مسلمة.. هذا الموضوع أثارنى إثارة شديدة للدرجة التى جعلتنى أقرر النزول إلى الشارع السياسى والشارع الفكرى فى مصر من أجل إيقاف هذا الشرخ الذى ربما يتسع فى لحظة من اللحظات.. ويأخذ فى طريقه الأخضر واليابس.

وكانت الاستجابة خرافية من جانب عنصري الأمة حيث لم يوافق الأغلبية منهم على مثل هذا الموقف.. باعتبار أن مصر للجميع.. ولا فرق بين مسلم وقبطى ما داموا يشربون من ماء النيل.. ويعملون من أجل صالح مصر داخليا وخارجيا.. وقد برهن المسلمون المصريون أن الأقباط المصريين هم جزء من هذا المجتمع ومن أساسيات وجوده.. وفي وسط هذا المجهود الذى كنت أبذله من أجل الحفاظ على مجتمعنا المصرى بعنصريه.. كنت لا أمل من ترديد عبارة وصلت وقتها إلى السادات.. أقول فيها: سيدى الرئيس أنت لست رئيسا لدولة مسلمة.. بل رئيس مصرى لدولة مصرية.. ثم تصادف وقتها بجانب ذلك أن جمعت مادة علمية بسيطة وبسرعة طبعتها فى كتاب صدر وقتها تحت عنوان «نعم أقباط.. ولكن مصريون».. وقد تصور الرئيس السادات أننى بهذا الكتاب أرد على ما جاء فى خطابه السياسى الذى قاله آنذاك.. وقد حاولت استغلال كل الظروف السياسية التى كانت سائدة فى ذلك من أجل توصيل صوتى عاليا إلى الرئيس السادات.

ووقتها لاحظت أن قبضة الرئيس أصبحت شديدة.. وأنهم يحرصون على تسجيل كل ما أقوله من أجل نقله إلى الجهات المسئولة فى مصر.. وكان النبوى إسماعيل وزيرا للدخالية فى هذه الآونة.. وقد حذرنى بعض زملائى فى حزب التجمع الذى كنت أحد قياداته فى تلك الفترة.. من عدم التعرض فى أحاديثى لوزير الدخالية.. لأنه يملك المعتقلات والسجون.. وقد اعتبرت هذا التحذير نبوءة مبكرة لدخول السجن بالفعل.

وبالفعل فى مساء يوم الأربعاء ٢ سبتمبر عام ١٩٨١ وكنت فى اجتماع روتينى بالحزب للجنة العلاقات الخارجية.. وكنت رئيسها.. جاءت إلينا أخبار من بعض المسجونين اليساريين فى مزرعة طرة أن هناك ترتيبات لدخول السجن لاستقبال عدد كبير من المعتقلين الجدد.. وعلينا أن نحذر.. وعندما علمت بالخبر، ظننت لأول وهلة أن الرئيس السادات سوف يعتقل بعض الجماعات الدينية قبل خطابه فى ٥ سبتمبر كإجراء وقائى، ولا مانع من اعتقال بعض شباب التجمع المعروفين.. ولم يدر فى خلدنى للحظة واحدة أننى شخصا على رأس قائمة الاعتقالات الجديدة.

### \* وهل لا يزال الدكتور ميلاد حنا يتذكر لحظات اعتقاله؟

— طبعا مفيش كلام.. ودعنى أحكى لك بعض تفاصيلها.. لقد اقتحمت القوات الخاصة من رجال الأمن منزلى.. وألقى القبض على.. وفى حراسة الشرطة أخذونى إلى

قسم الدقى ثم إلى سجن الاستقبال بليمان طره.. وهناك تعذر استقبالي بسبب التفرقة الدينية، فتوجهنا من طره إلى سجن المرج شمال القاهرة.. وفي غرفة المأمور تجمعنا نحن المعتقلين الأقباط وكانت بشائر الفجر قد أطلت علينا.. وقد أمسك بكل منا حارسان أحدهما يتأبط الذراع اليمنى والآخر يتأبط الذراع اليسرى وسرنا جميعا في هيئة طابور يجمع بين الكهنة والعلمانيين.

وتأكدت من عمق الشرخ الذى أصاب مصر آنذاك بعد أن أعدت وزارة الداخلية سجن المرج لاستقبال الأقباط وحدهم.. وبخطوات منتظمة تتناغم مع خطوات رجال الأمن الذين أمسكوا بنا.. وقد سرنا جميعا إلى السجن الداخلى وتوقفنا عند سجن التجربة وهو سجن داخل السجن.. وفي زنانات باردة دفعوا بنا إلى ساحتها القذرة.. لقد كانت توحى إلينا بالرهبة والعقاب معا.. كما كانت توحى أيضا باستحالة الهرب.. وعلى وسادة من الكاوتش وبنفس الملابس التى غادرت بها منزلى ألقيت بجسدى المتعب وأنا في حالة من الذهول وانعدام الوزن.. وقتها لم أستطع النوم.. وبعد أقل من لحظة قصيرة.. فإذا بطابور جديد وإذا بهم يدفعون كاهنا للإقامة معى في زنانتى.

\*\*\*

**\* ما هو تأثير تجربة السجن التى عاشها الدكتور ميلاد حنا طوال الثلاثة والثمانين يوما.. ضمن اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١؟**

- هو أولا.. عندما يفرض على الإنسان حبس لمدة عدد معين من السنوات، لابد أن يؤهل نفسه لمثل هذه الحبسة.. ولكن وجه الجمال والقهر معا فيما واجهته من اعتقال هو أننا دخلنا إلى المجهول.. فلم نستطع فور دخولنا السجن أن نعرف لماذا حبسونا.. وظللنا نضرب أخماسا فى أسداس حول هذا السؤال.. وتساءلنا عن المصير.. باعتبار أن ذلك كان من أصعب الأسئلة التى واجهتنا فى تلك الفترة.. إنه المجهول بعينه.. وبمجرد اعتقالى وإيداعى سجن المرج فى الساعة الثانية صباحا.. فى الفجر.. ودخلت الزنانة مع بداية الشروق.. وكان معى بها أحد الكهنة من رجال الدين المسيحى.

وكما ذكرت من قبل.. كان ذلك بداية تفرقة عنصرية.. الأمر الذى جعلنى أقوم بإضراب داخل السجن على هذه التفرقة.. وهذه كانت تفاصيل دقيقة كتبها الأستاذ هيكى فى كتابه.. وكذلك أنا كتبته كذلك.. المهم.. هو أننى حين كنت فى طريقى من غرفة مأمور السجن إلى الزنانة بين حارسين من حراس السجن.. أحسست بنشوة غريبة..

وشعرت أنني قد انتقلت من الأستاذية الجامعية.. ومن رجل الفكر إلى النضال السياسي.. وأنتى سأكون شخصية تاريخية بدلا من أن أكون شخصية جامعية علمية.. وما إن دخلت إلى الزنزانة وكانت انفرادية وكريهة الرائحة ومظلمة.. تخرج منها جيوش من الحشرات من كل الأنواع.. حتى نمت نوما عميقا.. لم يحدث لى من قبل.. لأننى كنت قبل ذلك بأسبوع منفعلا بشدة لما حدث لمصر خاصة بعد أحداث الزاوية الحمراء.. وشعرت بأننى كان من الممكن أن أموت لو لم أدخل السجن فى هذه الفترة.. واعتبرت اعتقالى منقذا لى من مثل هذا الموت المحقق..

وبالفعل تركت لنفسى ولجفونى الفرصة.. ونمت كما لم أنم من قبل.. ولا أذكر متى استيقظت لأن الزنزانة كانت مظلمة فى كل الأوقات.. حتى جاء الحارس والسجان بكاهن آخر يزاملنى بالزنزانة.. بعدما عشت بها ساعات طويلة منفردا.. وكان اسمه القمص «أثناسيوس بطرس».. ولم يكن بينى وبينه معرفة مسبقة ولكنه قابلنى بترحاب شديد.. وعشنا معا داخل هذه الجدران واعتبرنى أستاذا له.. وما زالت تربطنى به صداقة حتى الآن.. وكان رجلاً ديناً من القاهرة ومن حى المطرية.. وعرفت فيما بعد أن كل من دخل السجن من الكهنة والأساقفة كان بسبب مشكلة «الخط الهمايونى» وإمكانية بناء كنائس بطريقة معقولة.. وهذه كانت قضية سياسية ربما نتعرض لها فيما بعد.

\*\*\*

**\* وبشكل عام.. هل يمكن أن تقول لنا.. ما هو تأثير هذه التجربة على الفكر الإنسانى قديماً وحديثاً؟**

**\* ابتداء.. فى تقديرى أن كل مسجون سياسى يعتبر السجن بالنسبة له فى مراحل الأولى هو فترة الرجوع إلى الذات.. وتصحيح المسار.. وهى وقفة إجبارية ممتازة.. لأن الإنسان خارج السجن من النادر أن يقف مثل هذه الوقفة نظرا لمشاغل الحياة الكثيرة.. ومن هنا.. فمجرد أن دخلت السجن.. كانت توجهاتى على محاور مختلفة عندما كنت مع نفسى.. أولا تساءلت من أنا؟.. وإلى أين سأكون؟ وما هو مصيرى؟.. وما هى فلسفتى فى الحياة؟**

**إذن السجن هو المدرسة الكبيرة للفكر والفلسفة.. وأى مناضل سياسى لا يستغل فترة السجن فى المزيد من التفكير والفلسفة.. وفى إعادة حساباته يخطئ فى حق نفسه..**

ويجد نفسه دون أن يعود إلى نفسه، وهذا خطأ شديد جدا.. والمسجون السياسى أو المفكر الذى يخرج من السجن ويناضل فى نفس الطريق وبنفس الحماس وبنفس التجربة.. هو سجين لا يستحق أن يكون مفكرا.. ويمكن أن نلقبه بالمشاغب دون أن يكون مبدعا أو سياسيا أو أى شىء نافع لنفسه أو لوطنه.. وبالتالي.. لابد من اعتبارها فترة تصحيح مسار.. وبالنسبة لى كانت كذلك.. فقد بدأت أراجع تاريخ حياتى كله وأخذت أستعرض شريط ذكرياتى وأضع خطوطا حمراء تحت الأجزاء المضيئة وغير المضيئة.. ولا بد لى هنا أن أقول.. إننى قد اكتشفت نفسى من جديد.. وتستطيع أن تقول إنها «بيروسترويكيا الميلادية» نسبة لى.. وخرجت ولدى نقد شديد فى نواح كثيرة.. منها النواحى السياسية بالذات وموقفى من حزب التجمع حيث وجهت إليه نقدا شديدا واختلفت مع مبادئه، لأنه يدعو إلى الاشتراكية من نهج ماركسى ويستبعد النهج الديمقراطي.

ومن هنا بالفعل قد أثر فى تأثيرا شديدا.. ورفضت أن أكون فردا فى قطع، ورأيت أن تكون لى هذه الخصوصية فى المزج بين الاشتراكية والديمقراطية.. وتجندنى من هذا المنطلق قد اخترت طريق التعامل مع حزب الوفد.. وحرصت فى الفترة الأخيرة أن أكون كاتباً ومفكراً فى صحيفة الوفد لفترة طويلة.. لأننى أؤمن وما زلت أن طريقى الوحيد يرتبط بالاشتراكية والديمقراطية كنهج واحد ومشترك.. لأنه لا يكفى أن تطعم الإنسان.. بل لابد وأن تعطيه حريته فى الاختيار وحرية المطالبة بحقه فى الحياة.. هذا هو البعد الأول.

أما البعد الثانى.. فهو أننى قد نشأت وتربيت فى بيت قبضى فى حى شبرا فى جزيرة بدران وفى شارع مسرة بالتحديد، حيث توجد أقدم كنيسة بنيت فى شبرا فى عام ١٩٢٤ وهو تاريخ ميلادى.. وكان جدى لأمى من الأثرياء حيث كان يرعى هذه الكنيسة.. وبالتالى كانت نشأتى دينية خالصة.. ارتبطت بحفظ الكتب الدينية والتراتيل.. ثم كنت قائدا لإحدى مدارس الأحد فى منطقة جزيرة بدران.. ومصر القديمة.. حيث كنت زعيما فى سن السادسة عشرة من عمرى، وتعرفت على المناورات السياسية وغير ذلك.. ثم تعرفت على «نظير جيد».. الذى أصبح فيما بعد البابا «شنودة».. حيث كان القائد فى الجهة الأخرى من شارع شبرا وفى المنطقة المقابلة لى من نفس الحى فيما كان يعرف بالترعة البولاقية.

ثم سافرت إلى بريطانيا.. وهناك قرأت عن الفكر السياسى الحديث ثم أصبحت بعد فترة وجيزة عضوا بارزا فى حزب العمال البريطانى.. وربما يكون انتمائى إلى الاشتراكية الديمقراطية يعود لتلك الجذور.. ومن ثم ابتعدت عن الفكرة الدينية.. وأصبحت علمانيا مفكرا وسياسيا.. وتحول انتمائى القبطى إلى انتماء أسرى واجتماعى أكثر منه انتماء كنسى دينى.. ولكن عندما اعتقلت مع الأساقفة والرهبان.. أرجع هذا الاختلاط من جديد تراثى الدينى السابق وأثار فى وجدانى كل مشاعر الطفولة.. وعلى الفور استعدت قدراتى على قول التراتيل وقراءة الإنجيل.. وعلى هذا أصابت الدهشة كل من حولى.. لأننى كنت فى أذهانهم أمثل الرجل العلمانى الشيوعى.. وخلاصة القول أن هذه الحبسة قد أشعلت فى وجدانى مرة أخرى التراث الدينى المسيحى، وربطتنى من جديد برجال الدين.. لأننى كنت بالنسبة لهم المدافع عنهم وعن حقوقهم الدينية والفكرية داخل القضبان وأمام مأمور السجن.

**\* وإذا ما عدنا إلى الحديث عن فترة وجودك بحزب العمال البريطانى ماذا تقول عنها بالتفصيل؟**

— أنا قعدت فى حزب العمال البريطانى أعوام ٤٨ و ٤٩ و ١٩٥٠ وانتخبت انتخابا حرا سكرتيرا للجنة الطلبة الاشتراكيين فى الجامعة.. ثم انتخبت ممثلا عن هؤلاء الطلبة فى المؤتمر القومى الذى عقد آنذاك فى مدينة مانستر وكانت لدى حتى فترة وجيزة مكاتبات ورسائل بينى كـممثـل لهذه الجماعة وبين مستر بيفين وزير الخارجية البريطانى.. وكذلك مستر بيفان وزير الصحة البريطانى.

ولكننى للأسف أحرقـت هذه الأوراق كلها خوفاً من الاعتقالات فى وقت عبد الناصر وخشيت أن أتهم بالعمالة.. ولكنها كانت فى رأى أوراقا تاريخية مهمة بالنسبة لى وبالنسبة لمصر.

**\* نتوقف عند نقطة مهمة.. وليسـمـح لنا الدكتور ميلاد حنا إثارتها.. وهى تتعلق بالشخصيات التى تعرفت عليها داخل السجن وخارجه.. ومدى تأثيرك كمفكر سياسى بهؤلاء؟**

— كان من الطبيعى داخل السجن.. وداخل هذه الجدران السوداء أن يسقط الزمن، ونفقد إحساسنا به.. فلا جرائد.. ولا معلومات.. وأصبحت الأيام كلها متشابهة، فلا معنى لأسمائها أو تواريخها.. ورحنا جميعا ننشغل بحياتنا داخل السجن ونتصيد

## الأخبار بين الحين والحين..

وفي أيامنا الأولى لم تكن يعرف بعضنا البعض.. فالاتصال ممنوع والاختلاط مستحيل والغموض يسيطر على المكان.. حتى جاء صباح أحد الأيام وسمعنا صوتا يصيح أنا اسمى سمير تادروس.. صحفى فى أخبار اليوم ولا بد أن يعرف بعضنا البعض، لأن أيام الاعتقال قد تمتد سنوات.. وكانت أبواب الزنازين من الحديد المصمت من الصاج، وبالجاء العلوى منها فتحة صغيرة لا يتعدى مقاسها ١٠ فى ١٠ أسميناها «الطاقة».. فهى مصدر النور الوحيد أثناء النهار.. وعن طريق هذه الطاقة عرف بعضنا البعض.. وعرفنا أن السجن به ٢٨ زنزانة وساكنوها هم الأساقفة والقساوسة والأفراد العاديين.

وقد حاول القمص بولس باسيلي عضو مجلس الشعب عن دائرة شبرا فى أيام الرئيس السادات أن يخفف عنا.. وكان رجلا بليغا فأطلق على الزنزانة اسم «القلالية» وبذلك عرفنا أسماء الموجودين بالقلاليات وعددهم، حيث كانت الزنزانة عندما استقرت الأمور تضم اثنين وبذلك يصبح عدد المسجونين فى سجن التجربة ٥٦ رجلا.. وقد لاحظت آنذاك أن إدارة السجن قد استبقت جميع الأساقفة والكهنة فى سجن المرج.. وفى يوم من أيام سبتمبر.. انضم إلينا زميل جديد وهو أسقف بورسعيد.. إنه الأنبا تادرس.. الذى كان فى مؤتمر خارج مصر أثناء حملة الاعتقالات، وما أن علم بها حتى رفض الإقامة بالخارج وآثر العودة وبالفعل اقتادوا الرجل من المطار إلى السجن.

وفى وسط هذا الظلام.. كان السؤال الذى ظل يطاردنى طوال الأيام الأولى من الاعتقال: ترى ما هى التهم الموجهة لنا؟ وهل هذا تحفظ أم سجن؟ وما علاقة ذلك بالتكليف القانونى.. وعلى ما أنكر كان فى الزنزانة المقابلة لى.. كان يقيم محام من سوهاج اسمه الأستاذ وصفى وكان يصر دائما على ترديد حقيقة أنه كان عضوا بارزا فى الحزب الوطنى.. وكان الرجل فى حالة من الذهول فهو أكثر الأعضاء داخل الحزب تأييدا للسادات فى كل تصرفاته، ويظل يضرب كفا بكف على هذه المفارقة الغريبة والموجعة.. ودعنى أحكى لك ذكريات يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٨١.. ففى هذا اليوم دخل علينا الصول خليفة بملابسه المدنية إلى عنبر سجن التجربة.. وقال لدينا إشارة من وزارة الداخلية بأن الأنبا صموئيل سوف يأتى إلى السجن للاجتماع بنا..

وكان السادات قد عينه رئيسا للجنة الخماسية البابوية التي انتقلت إليها سلطات البابا عقب قرار عزله.. ثم أضاف بأنه لم يعرف بعد ما إذا كان مجيؤه قبل أو بعد انتهاء العرض العسكرى بمدينة نصر.

ثم عاد الصول ليعلن أن الزيارة تحدد لها موعدا في الثالثة ظهرا بعد العرض العسكرى.. وجاءت الثالثة ولم يأت الأنبا صموئيل.. وفي الرابعة عاد الصول خليفة يحمل نبأ تأجيل الزيارة لصعوبة المرور عقب احتفالات أكتوبر.. ولم يكن أحد منا يعلم أن الزيارة قد تأجلت إلى الأبد.. وطبعا السبب معروف.. وفي مساء نفس اليوم جاءنا النقيب مجدى طبيب السجن وأخبرنا أن هناك تعليمات بفتح أبواب الزنازين للجلوس والتسامر.. وبالفعل كانت سهرة ممتعة.. وظل النقيب محتفظا بهدوئه وقوة أعصابه ولم يقل لنا أن مصرنا الغالية كانت تعيش أحداثا رهيبية في تلك الليلة.

وليلتها لم أنم.. فقد كنت على موعد زيارة أسرته في الصباح وجاء صباح اليوم السابع من أكتوبر.. وفجأة انفتح باب الزنزانة ودخل مأمور السجن كى يبلغنى بإلغاء الزيارة والسبب إعلان الأحكام العرفية.. وعندما سألته هل السادات مات؟ صمت.. ولم يرد.. وبعد دقائق صدرت الأوامر بفتح أبواب الزنازين على أن يقف كل منا أمام باب زنزانته بلا حركة.. وفوق كرسى فى منتصف العنبر وقف مأمور السجن.. كى يعلن أن السادات قد مات.. وأن الأحكام العرفية قد أعلنت.. لقد لفنا الذهول جميعا فى تلك اللحظة.. ونحن مسمرون فى أماكننا.. ولم ننتبه إلا على صوت الحرس بإدخالنا الزنازين مرة ثانية وممنوع الكلام.. لحظتها أحسست أن نسائم الحرية تقترب، وأننى سأعيش وسوف أعود إلى منزلى.. ولم تعد ثمة مسافة كبيرة بينى وبين يوم الإفراج عنى.

وبعد أن هدأت الأمور.. ودخلنا إلى الزنازين علمنا بوفاة الأنبا صموئيل فى حادث المنصة.. وفى يوم الأربعاء ١٤ أكتوبر فوجئنا بالأوامر أن نستعد للرحيل.. البسطاء منا قالوا إنه الإفراج.. والآخرى قالوا سوف ننتقل إلى القلعة أو إلى طرة للمحافظة على حياتنا.. وفى انضباط صارم وخطوات محسوبة خرجنا من سجن المرج إلى سجن وادى النطرون.. وكنت حتى هذه اللحظة لا أعرف الفرق بين السجن والليمان.. وهناك كان المكان أرحب والهواء أنقى والسماء صافية.. وشاهدنا المساجين بملابسهم الزرقاء وأدركنا أن فى مصر إذاعة تسمع حتى فى السجون.. فكل مسجون لديه راديو صغير..



كما شاهدنا كذلك داخل سجن وادى النطرون التليفزيون.  
وكانت إقامتنا في هذا السجن في غرفة واحدة واسعة ولكنها كانت مهجورة من قبل  
تملؤها الفيران والصراصير وبداخلها دورة مياه قدرة وحقيرة.. ورغم ذلك فقد سعدنا  
بها أكثر من سجن المرج.. وكان عددنا داخلها ٥٦ مسجوناً.. وقد جاءتنا مأكولات  
وكتب من الأديرة المحيطة بنا.. وشعرنا بقرب الإفراج للمرة الثانية.

\*\*\*

هؤلاء هم الأساقفة الذين تعرفت على بعضهم داخل سجن المرج.. وهناك  
شخصيات أخرى كانت لى علاقة قوية بها داخل السجن أيضاً.. ولكن ليس في سجن  
المرج.. ولا سجن وادى النطرون.. ولكن في سجن ليمان طرة كان لقائى بالقادة  
والزعماء والسياسيين.. ولاننتقالى إلى هذا السجن قصة أخرى تستحق أن أرويها لك..  
ففى يوم الأربعاء على ما أذكر الموافق ٤ نوفمبر عام ١٩٨١.. وفى لهجة حازمة.. طلب  
منى أحد الضباط أن أجمع أمتعتى وأشياى.. فد تقرر نقلى إلى ليمان طرة.. حيث يقيم  
السياسيون في مبنى «الملحق» وهو أحد العنابر الموجودة بسجن طرة.. وكانت الدولة في  
عهد عبد الناصر قد أنشأتها خصيصاً لهذا الغرض.. وقد تتعجب حين أقول لك إن هذا  
كان أول مطلب لى منذ اعتقالى مع الآباء والأساقفة في سجن المرج.. وكثيراً ما أردت  
التعبير عن هذا المطلب بالاحتجاج على تقسيم المعتقلين إلى مسلمين وأقباط وما يعنيه  
هذا التقسيم من وجهة نظرى من أنه تقسيم لمصر كلها.. وليس للمعتقلين.. ولما كان  
الإضراب في السجون له قواعد وأصول فقد جاءت محاولتى غير مدروسة وباءت  
بالفشل الذريع.. الأمر الذى جعلنى ألجأ إلى محاولة الانتحار.. حتى أنبه المسئولين في  
السجون إلى رغبتى هذه.. والحقيقة أن محاولتى لم تنجح في الانتقال إلى سجن  
السياسيين والزعماء إلا بعد اغتيال السادات حين وافقت وزارة الداخلية بإتمام نقلى إلى  
ليمان طره مع باقى السياسيين.

وتضم منطقة طرة ثلاثة سجون كبيرة بها حوالى ٦٠٪ من السعة الفندقية للنزلاء..  
الأول ليمان طرة ويطل على الكورنيش.. أما السجن الثانى وهو مزرعة طرة ويقع في  
الخلف شرقاً مواجهاً سلسلة الجبل في امتداد المقطع ويبدو وكأنه مخصص لإقامة  
المساجين الأقل عنفاً والمحكوم عليهم في جرائم مخففة.

أما السجن الثالث فهو مبنى جديد تماما وليس بسجن الاستقبال حيث يتم بالفعل استقبال المساجين.. وما إن دخلت سجن الملحق هذا حيث يقيم السياسيون حتى شعرت أنني في سجن «خمس نجوم» فهو سجن له سور خاص ومعزول تماما.. وفيه يقيم بعض من حوكموا في أحداث ١٥ مايو عام ١٩٧١ مثل على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف.. أما أبرز الأسماء التى ارتبطت بها بهذا السجن من رموز العهد الناصرى هما محمد فايق وفريد عبد الكريم فقد عاشا في هذا السجن عشرة أعوام.

كذلك من الشخصيات السياسية المصرية التى التقيت بها داخل نفس السجن.. الأخ العزيز فؤاد سراج الدين الذى احتضننى بقوة وشعرت نحوه بمودة وإعزاز وبلقائى به نسيت أنني في السجن.. فعلى الرغم من أن الرجل تعود حياة القصور ومارس السلطة في شبابه وزيرا في أهم وزارات مصر - المالية والداخلية - إلا أنه كان صلبا في مواجهة السجن.. أيضا من الشخصيات الأخرى التى كانت لى علاقة قوية بهم.. إكليل العنيد عبد الفتاح حسن باشا الذى راح يقاوم بشدة كافة أشكال الظلم.. ولعل اللقاء الحار الذى جمعنى بزميلي العزيز المرحوم عبد العظيم أبو العطا.. كان أكثر هذه اللقاءات تأثيرا لما تربطنى به من علاقة خاصة.. لقد عرفت عبد العظيم أبو العطا في عام ١٩٤٦ أثناء عملى في كلية الهندسة.. وفي أحداث الحركة الوطنية إبان فترة مقاومة اتفاقية صدقى - بيغن عام ١٩٤٩ تصادقنا واستمرت صداقتنا حتى فارق الحياة.

وفي الملحق العظيم داخل نفس السجن التقيت بالصديق القديم محمود القاضى وبالدكتور اسماعيل صبرى عبد الله والدكتور فؤاد مرسى.. كذلك الرجل الشجاع الدكتور محمد أحمد خلف الله بشعر رأسه الأبيض الفضى.. ونقطة أخرى مهمة أذكرها لك في سياق هذه الذكريات أنه قد جاءت إقامتى في الزنزانة رقم «١١» بالدور الأرضى مع الزعيم فتحى رضوان.. وكان ثالثنا أحمد فرغل الصحفى وعضو مجلس نقابة الصحفيين وعضو مجلس الشعب عن حزب العمل الاشتراكى.

وثمة اعتراف يجب أن أبوح لك به.. فقد كانت أشهى الأطعمة وأفخرها تلك التى تعدها السيدة هدايت حرم الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل.. فقد كان الرجل يصير دوما على أن أتناول غذائى معه كل يوم.. وكانت غرفة الأستاذ هيكل في الطابق الأعلى باعتبار أنه من أوائل المعتقلين الذين قدموا إلى سجن ملحق طرة.. وحيث اتفق الجميع

على ترك الدور الأرضى للشيوخ والكهول الذين لا يتحملون صعود السلالم.. وغير هؤلاء هؤلاء.. عرفت المحامى عبد العزيز محمد وعبد العظيم المغربى الذى كان مسئولاً عن الإذاعة المحلية داخل السجن.

**\* فى ضوء عقوبة السجن المرفوضة.. كيف ترون الطريقة المثلى لمعالجة الرأى الآخر أو الرأى المعارض؟**

- طبعا قصة السجن مع أى مفكر سياسى تختلف باختلاف الظروف والأوقات وهى بالتالى جزء من تاريخ مصر.. وبالنسبة لى كنت حالة خاصة.. حيث اعتقلت فى ظروف غير عادية.. بمعنى أنه وكما سبق أن ذكرت لك.. أنه حين اعتقالى حدثت تفرقة غربية بين المسلمين والأقباط فى سجن المرج.. ومن بعده انتقلت إلى سجن وادى النطرون ثم إلى سجن ليمان طره.. وفى هذه الحقبة.. كنا فيما يسمى بسجن التجربة.. وهو نوع من أعتى أنواع السجون وفيه يجربون المساجين الجدد داخل السجون كى يكتشفوا ويجربوا مدى تحملهم لهذه العقوبة.

ثم جانبا آخر هو السجن الذى يضعون فيه المحالين للأشغال الشاقة إلى الإعدام.. وقد قضيت فيه من ٢ سبتمبر عام ١٩٨١ حتى ١٥ أو ٢٠ أكتوبر من نفس العام.. ونعود للإجابة على سؤالك.. بالقول إنه سيأتى وقت ليس ببعيد عندما سيضحك الناس ويتندرون علينا لأننا نضع أصحاب الرأى المعارض داخل السجون لمجرد أنهم يعارضون بأرائهم وأفكارهم فقط. وهذه قضية مبدئية وخطيرة.. ونحن الآن ندهش بنفس القدر حين علمنا أن بعض أجدادنا فى البشرية كانوا يضعون المعارضين لهم فى أقفاص معلقة مع الأسود كوجبة شهية عقابا لهم على آرائهم المعارضة.. أو وضعهم فى زيت مغلى أو وضعهم على خازوق.

إذن هى سمة من سمات تطور البشرية.. وفى كل فترة زمنية تختلف الوسائل.. ولكننا نلاحظ أنه كلما تقدم وتحضر الإنسان كلما قبل الخلاف فى الرأى ورحب بالمعارضة.. ولكنى أزعم أنه أمامنا شوط طويل على هذا الدرب فى مصر.. والسبب يرجع إلى أننا مررنا على عصور قهر شديدة ومتنوعة ووجود مثل هذه الفترات بدءاً من أحداث التعذيب داخل السجن الحربى وخلافه.. ليست ببعيدة ولا خافية علينا.. أيضاً ما يعاناه الآن بعض فئات المعارضة الأخرى رغم اختلافى معهم.. إلا أننى لا أقر عقوبة السجن أو التعذيب ما دامت التهمة هى الرأى والفكر.. ولا بد لنا أن نفرق هنا بين

موضوعين أساسيين الأول: محاولة قلب نظام الحكم بالقوة ومن هنا لابد على النظام سواء مصرى أو غيره أن يدافع بالقوة عن مثل هذه المحاولات.. لأننا في هذه الحالة أمام نوع من المعارضة التى تستخدم العنف والسلاح والتآمر.. أما أن يحبس الإنسان لأن لديه عقيدة أو فكرا.. فإن ذلك فى منتهى الخطورة وهذا هو الموضوع الثانى المتعلق بأصحاب رأى الحر المستنير حتى ولو كان يتعارض مع رأى النظام.

وفى يقينى أن الزج بأصحاب رأى والمفكرين داخل السجن مجرد أنهم يعارضون يولد داخل أنفسهم العنف والحقد على النظام نفسه.. وبالتالي نجد أن النظام فى هذه الحالة.. يخسر ولا يكسب، وخسارته تكون كبيرة وعلى المدى البعيد.. وخذ مثالا واحدا على ذلك.. عبد الناصر حينما اعتقل كل الإخوان المسلمين وأدخلهم السجن.. هذه العقوبة أفرزت بداخلهم العنف الذى تمثل فى ظهور جماعات دينية متطرفة مثل الجهاد وآخرين.. ولعلها دعوة أوجهها.. دعنا نتحاور ونختلف ما دمنا لا نستخدم السلاح.. لأن المحاورة تولد الأفكار الجديدة.. والعبرة فى الاختيار للفكرة الأنسب والأصلح للمجتمع من منطلق أننا مقبلون على عصر قبول الاختلاف فى رأى وأنه لا يحتكر أحد الحكمة وحده.. وأنه لا غلبة لأصحاب رأى بالقهر.

**\* وهل ترون أنه من الضروري أن يكون هناك سجون خاصة للمفكرين وأصحاب رأى.. أو أن يزج بهم وسط المجرمين والقتلة؟**

.. شوف.. لقد كانت هذه قضيتى وأنا عضو مجلس الشعب.. وتجربة السجن التى عايشتها كانت وما زالت ماثلة أمامى.. وقد أليت على نفسى طوال وجودى داخل المجلس آنذاك أن أحقق هذه الرغبة فطالبت أولا بفصل السجون عن وزارة الداخلية ونقل تبعيتها إلى وزارة العدل، لأنها جزء من تطبيق العقوبة.. هذا بالنسبة لجميع الجرائم فلا ينبغى أن يكون السجن برئاسة ضابط يقهر النفس الإنسانية وإنما ينبغى أن يكون قائد السجن أستاذا جامعا أو دارسا لعلوم النفس وعلوم الجريمة حتى يتحول السجن من مجرد أداة للعقوبة فقط إلى أداة للعقوبة والإصلاح فى آن واحد.. ولا مانع من قرار العقاب كجزء من العودة إلى الذات.. ولا بأس من العزل.. حتى يفكر الإنسان فى مصيره وفى أسباب وجوده هنا.. ولكى يصحح مساره.. هذا جزء أساسى من العقوبة.. وطالبت به كحق للمسجون العادى.. أما المسجون السياسى ورجل الفكر الذى ترى الحكومة أيا كان نوعها أن فى وجوده خطرا عليها لأنه صاحب فكر معارض..

وتود أن تعزله فلا بد أن يوضع في مكان أمين وآدمى، ويعامل معاملة إنسانية جيدة كأن يتم عزله في أحد القصور الملكية مثلا ويكرم.. ولا يتم تعذيبه أو إهانته.. ولقد عاهدت نفسي ومنذ خروجي من السجن أن أناضل وأكافح من أجل حياة أفضل لكافة المسجونين.. وعلى رأسهم المسجون صاحب رأى وصاحب الفكر.

**\* نريد أن نعرف كم كتابا.. ألفه الدكتور ميلاد حنا داخل السجن أو خارجه  
تأثرا بهذه التجربة؟**

– في الحقيقة أنا خرجت من السجن في انفعال شديد.. ولم يكن لدينا أى وقت على الإطلاق لتأليف كتب.. وانغمست في حياتي السياسية داخل حزب التجمع.. وبسرعة شديدة جاء عام ١٩٨٤ واختارنى الرئيس مبارك عضوا بالبرلمان.. ثم تم اختياري رئيسا للجنة الإسكان.. ومن ثم انخرطت في حياتي السياسية بالكامل.. ولم أفكر في تسجيل هذه التجربة في كتاب إلا في عام ١٩٨٧.. عندما حل البرلمان.. وهجرت العمل السياسى لشهور عديدة.. أى بعد خمس سنوات بالضبط.

وعلى عجل استطعت أن أعيد الذاكرة من جديد.. وأحاول تسجيل ما شاهدته وشعرت به من خلال هذه التجربة.. عندئذ خرج كتاب «ذكريات سبتمبرية».. وكان أول الكتب التى سجلت فيها هذه الفترة وهذه التجربة.. بخلاف ذلك عكفت على تأليف كتب أخرى في مجال الإسكان.. ثم كتاب آخر متأثرا بتجربة السجن وأصالة الإنسان المصرى.. وخرج بعنوان «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية».. وهذا بخلاف كتبى العلمية المتعلقة بتخصصى في فرع الهندسة.. وأقولها لك كما كتبتها في ظهر غلاف أحد كتبى لقد دخلت السجن أستاذًا جامعيًا.. وخرجت منه ممارسا سياسيا ومفكرا.

وفي ختام حديثى أقول: إنه عندنا في مصر الإنسان لا يكون سياسيا أو مفكرا أو زعيما إلا إذا دخل السجن.. فهو البوتقة ذات الحرارة العالية المكثفة التى تولد وتفجر طاقات في النفس الإنسانية التى يصعب اكتشافها بدون تجربة السجن.



## الحكاية الخامسة يرويها: لطفى الخولى:

اعتقلت ١٢ مرة.. خمس في عهد

الملكية.. والباقي في عهد الثورة

يبدو أننا سوف نقضى معظم الوقت داخل هذه الأوراق البيضاء عند حدود كلمات الحوار الذى أجريته مع الكاتب الصحفى والمفكر والأديب الأستاذ لطفى الخولى.. وذلك لأنه لم يفعل كما فعل أغلب المفكرين الذين التقيت بهم.. من حيث إسراعهم فى تسجيل تجربة السجن فى حياتهم فى كتاب..

والشئ الجديد الذى اتبعه الأستاذ لطفى الخولى على هذا الدرب أنه عندما خرج من المعتقل آخر مرة حرص على تجميع تجربته هذه التى سجلها فى قصص قصيرة وأصدرها فى مجموعة كبيرة صدرت فى عام ١٩٨٧.. بمعنى أنه قد لجأ إلى الأسلوب الروائى فى نقل تأثير تجربة السجن والاعتقال على حياته الفكرية والسياسية.. وأسفر هذا الأسلوب عن كتابة مجموعتين قصصيتين هما «رجال وحديد» وقد كتبها لطفى الخولى فى سجن بنى سويف عام ١٩٥٣.. ثم مجموعة «ياقوت مطحون» التى كتبها ما بين سجن القلعة ومعتقل الفيوم والقصر العينى على امتداد أعوام ١٩٥٩ و ١٩٦٠.. وقد نشرت هاتان المجموعتان منفصلتين أعوام ١٩٥٣ و ١٩٦٤ على التوالى..

وقد يبدو هذا المدخل للحديث عن الكاتب والمفكر لطفى الخولى غريبا للبعض منا.. وربما يرجع سبب الغرابة إلى أننا جميعا نعرف الأستاذ لطفى الخولى ككاتب سياسى فى المقام الأول.. وصاحب رأى وفكر فى هذا الميدان.. فله عدة دراسات سياسية تبلغ تسعة كتب كبيرة.. بجانب مقالاته السياسية المعروفة على هذا الدرب.. ولكن ما كتبته منذ لحظات لا يبدو لى غريبا على الإطلاق خصوصا وأننى اكتشفت أن لطفى الخولى يتسم بصفة الأديب أكثر من صفة الكاتب والمفكر السياسى.. وليس هذا الاكتشاف من اختراعى.. بل عرفته من السيرة الذاتية للمفكر لطفى الخولى.. ومن التعرف على بدايات

كتاباتة في هذا المجال.. وعلى حد قوله لى أثناء الحوار.. إن كل كتاباته الأدبية قد أفرزتها تجربة السجن والاعتقال.. فبجانب المجموعتين السابقتين هناك ثلاث مسرحيات هم: «قهوة الملوك» و «القضية» و «الأرانب»..

وهذه المسرحيات الثلاث شاهدها جمهور القاهرة في منتصف الستينات من هذا القرن.. بجانب ذلك فهو أيضا كاتب سيناريو مبدع.. كتب أكثر من عشرة سيناريوهات لأفلام روائية طويلة نذكر منها على سبيل المثال «ثمن الحرية» إخراج نور الدمرداش.. «القاهرة ٣٠» إخراج صلاح أبو سيف و «العصفور» من إخراج يوسف شاهين..

ورغم أن الأستاذ لطفى الخولى قد ابتعد قليلا عن ميدان الأدب الذى أبدع فيه.. وكانت بدايته الحقيقية على أرضه.. حيث انشغل طويلا بهوموم الفكر السياسى.. إلا أنه كان يعود من حين لآخر إلى ميدان الأدب والفن، فقد حرص على رئاسة وإدارة الدراسات التى نظمتها مؤسسة السينما الفرنسية بباريس عام ١٩٧٣.. ونفس الشئء حدث لحلقات الدراسة عن السينما والعالم الثالث التى نظمها مهرجان قرطاج عام ١٩٧٤..



لهذا كله.. لم أجد أى غرابة في حديثي عن الأديب لطفى الخولى كمدخل لحديث المفكر وتجربة السجن.. ورغم أنني لم أعثر على أية ورقة سجل فيها لطفى الخولى تجربة السجن كذكريات مباشرة إلا أنني حاولت العثور على هذه الكلمات من خلال الخوض وراء سطور عباراته التى سجل بها انطباعاته عن تجربة السجن في مجموعته القصصية التى صدرت منذ عدة أعوام.. وقد سطر بعض هذه الانطباعات في المقدمة التى حرص على كتابتها مشيرا إلى هذه التجربة والتي قال فيها: في تجربتي قصة من فصلين: فصل أسميه «ما قبل السجن».. كانت نيران الحرب الثانية على وشك أن تتحول من ساخنة ملتبهة إلى باردة عاصفة في منتصف الأربعينات، عندما رحلت أدرس القانون، وأحضر نفسى للمحاماة.. يؤرقنى مع شباب جيل المتفجر هموم وطن محتل مطحون يسعى للخلاص بطرق شتى صاخبة.. ولأن المحامى أو المناضل السياسى سلاحه الكلمة وفن الخطابة.. أو هكذا تفتحت الرؤيا في أعماقى.. لجأت إلى الأدب والفن قراءة ومشاهدة.. وإذا بى أدخل عالما جديدا، الواقع فيها غير محسوس، بيد أنه أكثر



حيوية من الواقع المحسوس خارج الذات..

والفصل الثانى تحركت أحداثه بين فراغات الحرية وسط قيود السجن حيث تقزم القانون الذى حسبته يوما سييدا عملاقا، لا يرقى إليه إنسى ولا جنى.. انسخط أمام عيني عبدا ذليلا يطيع بلا تردد أدنى إشارة من أصبع الشاويش. انحشر فى الزنازين أكوام من البشر، تدل عليهم أرقام معدنية.. جاءوا من سراديب العالم السفلى.. سرق قانون المجتمع حقهم فى الحياة.. وكنت حينما كان يغرق السجن فى لجة الصمت بعد غروب كل شمس.. كنت أقبع فى زنزانتى المنفردة، أجلس مع خبزى الجاف فى الظلمة.. وحيدا إلى نفسى كأنها ذلك الآخر الذى عاد فجأة بعد غربة التشرد فى الزمن العتيق الذى لا عمر له.. فى هذا الجرح السجين، تفتتت أولى كلماته الأدبية.. كانت قصة قصيرة بعنوان «وصرت رجلا».. نشرتها فيما بعد فى صحيفة فى الخمسينات كتبتها آنذاك بقلم «كوبيا» فى حجم عقلة الصباغ على ورق «البفرة» الرقيق الذى كان يستخدم فى لف السجاير..



ولسوف نجد أرضية مشتركة من الفهم إذا ما تعمقنا فى كلمات الاستاذ لطفى الخولى.. وتعبيراته.. ولعلها تنقلنا بصدق إلى واقع الألم والظلم الذى لاقاه المفكر لطفى الخولى من جراء هذه التجربة.. وكانت التهمة هى القلم والكتابة وحرية الرأى.. ولسوف نلمس ذلك أكثر حين نتتبع بشكل واع كلمات هذا الحوار.. التى لم تخرج عن صلب موضوعنا الذى اخترناه عبر هذه الصفحات.. وهو تأثير تجربة السجن أو الاعتقال على الفكر المصرى بشكل عام والمفكر بشكل خاص..

وضيفنا هو الكاتب الاستاذ لطفى الخولى.. مع وعد غير مؤكد من جانبنا يتمثل فى محاولة الاستعانة ببعض الجمل والعبارات التى صور من خلالها الأستاذ لطفى واقع هذه التجربة مستخدماً أسلوبه الأدبى فى قصصه القصيرة التى نشرها.. ونوهنا عنها منذ لحظات.. كما سنحاول أيضا أن نقف خلف الأسئلة.. وربما لا نقولها صراحة.. حتى نفسح المجال أكثر لنص الحوار ويحاول القارئ من جانبه أن يقف على نصوص هذه الأسئلة من واقع تتبّع كلمات الضيف.

وقبل أن ندير الشريط لابد أن نذكر أن هذا الحوار قد سجلناه في حلقتين.. وفي يومين متتاليين بناء على حماس الأستاذ لطفي الخولي ورغبته في أن يقول لنا كل تفاصيل هذه التجربة..

\*\*\*

يقول الأستاذ لطفي الخولي: لو حسبنا مجموع السنوات التي سجت خلالها تقدر تقول «دسته».. يعنى ١٢ مرة.. بخلاف «الفكة».. وإذا حاولنا تفصيل ذكر هذه المرات أقول لك.. لقد اعتقلت خمس مرات في العهد الملكى.. المرة الأولى منذ تفتح الوعى السياسى بداخلى وانشغالى بهوموم مصر آنذاك وبهوموم الوطن في إطار الحركة الوطنية ابتداء من عام ١٩٤٤ أو ١٩٤٣.. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وكان عمري في ذلك الوقت أربعة عشر عاما..

وتراها بداية مبكرة.. والسبب أننى قد تربيت في بيت سياسى.. فقد شاهدت فيه مناظرات ومناقشات سياسية من مختلف الاتجاهات والأحزاب من ناحية والذى كان انتماءه للحزب الوطنى.. وخالى الذى كان من الوفد وعمى البهى الخولى أحد رجال مصر التسعة الذين أسسوا حركة الإخوان المسلمين. في ذلك الوقت المبكر من عمرى كان منزلنا يضج بالمناقشات السياسية.. كما ترى على اختلاف ألوانها واتجاهاتها..

أضف إلى ذلك وجود تيار تاريخى آخر متمثل في حكايات والدى عن تاريخ مصر الوطنى وأبطال هذا التاريخ وعلاقاته مع زعماء الحزب الوطنى ودورهم السياسى آنذاك.. وكذلك كان هناك كثير من الكتب والصحف التى كانت تعبر عن مختلف هذه الاتجاهات الفكرية والسياسية.. أضف إلى ذلك انتعاش الحياة العامة مثل المظاهرات التى كانت تطالب بالانسحاب والحريات العامة التى كانت متوفرة آنذاك والتى في ظلها كنا وراء أبوابنا نطالب بمحاربة أغنياء الحرب وهم الفئة القليلة التى أفرزتها الحرب العالمية الثانية..

كل هذه المؤثرات قد شكلتني في بداية حياتى السياسية.. وجعلتني أعيش هذا الواقع وأنا مازلت صبيا.. وأذكر أن أول مرة اعتقلونى قد سبقها موقف من جانب والدى.. حيث شاهدنى أشارك في مظاهرة من تلك المظاهرات التى كانت تطوف شوارع القاهرة.. والتى نجحت خلالها في الإفلات من رجال البوليس.. بينما قبضوا على غيرى..

هذه المرة حين عدت إلى منزلنا فوجئت بوالدى الرجل الوطنى المخلص الذى قدم لمصر الشئ الكثير.. يعنبنى على اشتراكى فى هذه الأعمال.. وهنا كانت علاقتى بالوالد علاقة متميزة.

فرغم هذه الوطنية.. وهذه الأعمال الجليلة إلا أنه كان ينظر إلى كابن يريد أن يبعد به عن هذا التيار.. فقد كانت تغلب عليه مشاعر الأبوة للدرجة التى هددنى فيها بأنهم لو أمسكونى فسوف يتخلل عنى ولن يسعى لإخراجى من السجن.. والشئ الغريب أننى أعرف نبرات صوت الوالد.. وأفهم منها ميوله وحالته النفسية.. وما يريد أن يقوله صادقاً أو غير صادق.. وفى هذا الموقف بالذات فهمت أن والدى لا يعنبنى من أجل أن أبتعد عن الاحساس الوطنى والمشاركة فى أحداث بلادى.. ولكن كان هدفه وكما سبق أن قلت كان يخاف علينا جداً.. لقد أحسست بالفعل أن هذا التهديد قد خرج من وراء قلبه وعقله..

وفى المرة الثانية.. رغم هذا التحذير اشتركت فى المظاهرات وقبضوا على وسجنت.. وأذكر أن أول علاقة لى بعالم السجون والاعتقالات كان حجز قسم السيدة زينب.. وكان ذلك عام ١٩٤٣ أو أوائل عام ١٩٤٤.. وفى هذه التخشيبية التقيت لأول مرة مع قادة الحركة الفكرية والوطنية المصرية فكان معى الإخوان المسلمون.. والشيوخ والوفديون والأحرار الدستوريون.. وفى هذه التخشيبية رأيت أيضاً والدى يأتينى مسرعاً.. بالطعام والشراب بخلاف ما كان منه سابقاً..

واسمح لى أن أعود بك إلى السوراء قليلاً حتى أقول بعض المعلومات عن أسرتى وأصلها.. إننى رغم ولادتى بالقاهرة إلا أن جذور أسرتنا من القرشية بمحافظة الغربية.. وهى قرية لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ مصر.. وفى منتهى الأهمية.. ففى هذه القرية اختفى عبدالله النديم ثمانى سنوات.. وتستر عليه أهل القرية ورفضوا تسليمه للسلطات آنذاك رغم المكافأة السخية التى أعلنوا عنها.. وقد قضى عبدالله النديم هذه السنوات الطوال داخل القرية معلماً للأهالى على لمبة جاز.. وقد أثرت هذه الواقعة فى نفسى.. تأثيراً كبيراً.. امتدت إلى سنوات طويلة.. فقد اتخذت مع آخرين شعار «الحصيرة ولمبة الجاز» من أجل ثقافة وطنية.. وطبقناه عملياً بإنشاء دار نشر لتحقيق

هذا الهدف.. بجانب ذلك تمتاز قرية القرشية بإنجاب شعراء رومانسيين على مستوى عال أمثال الشاعر أحمد الكاشف وكان من أكبر المعاصرين لأمير الشعراء أحمد شوقي..

\*\*\*

المهم.. في هذا الإطار بدأت أتعرف على التيارات السياسية الموجودة آنذاك.. وتأثرت أولاً بتيار الوفد الذى امتاز في هذه الفترة بدفاعه عن كل المساجين والمفكرين السياسيين من كل التيارات الأخرى بدون تفرقة.. فكان يوكل المحامين بما في ذلك للإخوان وللشيوعيين وكل التيارات التى تخالف تعاليم حزب الوفد.. من منطلق ما كان يردده النحاس باشا آنذاك من أن الوفد ليس حزبا.. وإنما هو يمثل الأمة المصرية كلها.. ومع ذلك فقد كنت أرى حزب الوفد تتوقف طموحاته السياسية عند التحرر من الاستعمار ووطنية الحكم، ولم يصل بفكره آنذاك إلى الأفكار التى بدأت تجتاح الساحة السياسية والتى كان يمثلها الشيوعيون..

بجانب الأفكار التى طرقتها آنذاك الإخوان المسلمون والتى كنت أراها تمثل تيار الأصالة والمعاصرة من حيث التمسك بالقديم.. والبحث عن كل ما هو جديد.. لكن مع ذلك كنت تشعر أنهم يقدمون مواعظ.. وليست رؤى للمستقبل.. وهذا في حد ذاته كان خلافاً مع عمى الذى كان من رجال الإخوان في ذلك الوقت والذى كان له الفضل الكبير في تربيته الدينية.. ولعلك تستغرب حين أقول لك: إننى دخلت المعتقل لأول مرة متأثراً بأفكار الإخوان المسلمين.. صحيح أننى لم أكن عضواً معهم.. ولكننى كنت قريباً جداً من فكر هذه الجماعة بحكم تأثير عمى.. للدرجة التى كنت أذاكر فيها دروسى بمسجد السيدة زينب حتى لا يفوتنى أى درس من الدروس الدينية..

\*\*\*

وتوالى عمليات الاعتقال.. بعد ذلك إلى أن أمسكوا بى في حريق القاهرة عام ١٩٥٢ حيث أصبحت عضواً نشطاً في الحركة اليسارية المصرية آنذاك أو ما يمكن أن تسميه الحركة الشيوعية أو الماركسية.. وكنت قد اكتشفت عند إلقاء القبض على بسبب حريق القاهرة أنه ليس هناك حركة ماركسية واحدة.. بل عدة حركات مختلفة ومتنافرة في هذا الإطار..

وفي هذه المرة.. ساقونا إلى معتقل روض الفرج ولا أستطيع أن أحدد لك بالضبط عدد الأيام التي قضيتها في هذا المعتقل.. لكننى أستطيع أنؤكد لك أن المرات الاثنتى عشرة التى دخلت فيها السجن يمكن أن تصل إلى حوالى ثلاث سنوات ونصف فقط.. فى حين أن لى زملاء قضوا فى سجن متصل ومرة واحدة أكثر من اثنتى عشرة سنة..

وأنا أعتبر نفسى فى هذا المجال سعيد الحظ.. ليس فقط من ناحية المدة.. ولكن من حيث تنوع عدد مرات السجن واختلاف أماكنها.. وكان لكل مرة ومكان تأثير خاص على مسار حياتى السياسية والفكرية.. وأنا أذكر أن آخر مرة دخلت فيها السجن.. كانت أيام جمال عبد الناصر.. حين زرعوا التسجيلات فى بيتى بعد مناقشة سياسية.. وبالتحديد فى عام ١٩٧٠ وقبيل وفاته.. حتى إننى كنت معتقلا بسجن القناطر حتى بعد وفاته وفى حبس انفرادى..

**\* لو قلنا.. ما هو تأثير تجربة السجن طوال هذه المرات على فكر لطفى الخولى؟..**

- شوف.. أنا فى السجن أولا تعرفت أكثر وبعمق وبشكل مباشر على المجتمع المصرى.. كما لم أكن أعرفه من قبل.. لأنك داخل هذه الجدران الصماء تتعرف على أنماط بشرية غريبة ومتنوعة.. رغم أن ذلك لم يكن من جراء الاختلاط.. لأنه كان هناك عزل تام بين المسجونين السياسيين وبقية المسجونين بتهم وجرائم أخرى.. وهذا العزل كنت أراه بدرجات مختلفة وكان فى كثير من الأحيان عزلا شكليا.. ولكن المجتمع داخل السجن يكون نفسه رغم هذا العزل.. ويبدأ فى عقد ارتباطات وعلاقات بعضها جيد وبعضها غير جيد.. ولكن بشكل عام هذا المجتمع لديه القدرة على تسيير الحياة داخل السجن أكثر من إدارة السجن نفسها.. بالإضافة إلى أننى لم أجد مجتمعا أنظف من مجتمع السجن.. فى العلاقات الإنسانية فاللص يتخلى عن طبائعه داخل السجن.. فلا يسرق ولا يغش.. ولا تعرض لعقوبة من زملاء السجن تكون أقسى مما يناله من عقوبات تفرضها عليه إدارة السجن.. وعلى سبيل المثال يمكن أن يحكموا عليه بالسجن داخل السجن.. فلا تعاون معه.. ولا علاقات.. إذن كأنما يحكم عليه بالموت.. أيضا هناك مشاكل أخرى تعرفنا عليها داخل السجن.. المساجين الفقراء.. وأصحاب التجارة المنوعة.. والإتاوات.. كما اكتشفت أن أسوار السجن العالية قد فشلت فى منع هؤلاء المساجين من الاتصال.. بالخارج..

لذلك تجد كل شيء موجوداً داخل السجن وداخل هذه الأسوار.. أما الحاجة الثانية.. أننى اكتشفت داخل السجن أيضاً أنهم يمنعون عنك الورق والقلم.. وأى شيء يقرأ فيما عدا الكتب المقدسة.. لكن مع ذلك كان هناك إمكانية لتهديب الصحف والورق والكتب والأقلام.. أما أصعب شيء واجهته داخل السجن هو الحبس الانفرادى.. الذى كان يعنى.. أن تكون فى زنزانة وحدك لمدة ٢٣ ساعة.. مع نفسك فقط.. وتخرج لمدة ساعة واحدة فى اليوم لقضاء حاجتك وللتريخ.. وكانوا يسمونها «ساعة شمس».. فأنت طوال هذه الفترة الطويلة تجد نفسك أمام نفسك.. حينئذ تحاول اكتشاف نقاط الضعف والقوة فيها.. وقد صورت هذا الإحساس ونقلته بأمانة من خلال كلمات سطرته فى أحد كتبى الأدبية.. حين قلت:

فى إحدى الليالى الليلية.. أحكموا حبس السجن فى القمقم عندما أعلننا اضراباً عن الطعام.. فلا ورق ولا كتب ولا صحف.. ولا حتى نسمة هواء، تحمل إلينا زقزقة العصفور اليتيم الذى بنى عشه بين الأغصان الجرداء لتلك الشجرة البائسة المصلوبة عند البوابة الكبيرة.. وحين كنت أتوسل فى وحدتى، سماع صوت، أى صوت.. حتى ولو كان طنين صمتى، داهمتنى قوة روحية، لا عهد لى بها من قبل.. راحت تدب الحركة فى أوصالى وتدفعني إلى نزع علامات الاستفهام عن الجدران وزرعها فى النفس العارية.. وأعود وأؤكد لك أن هذه هى إحدى مميزات السجن، وإن شئت قل إحدى ميزات المحن الكبرى.. وفى هذا المجتمع المغلق وأنت مع نفسك تبدأ فى تحديد اختياراتك وتساءل نفسك هل ستبدأ الطريق من جديد.. أم ستظل على ما أنت عليه.. المهم أنك تعيد حساباتك من جديد وعلى ضوء هذه الحسابات تعرف هل ستستمر أم لا.. وطبعاً كان من أهم أهداف البوليس السياسى فى ذلك الوقت أن تتراجع عن أفكارك وآرائك وميولك.. وكان سبيلهم إلى ذلك مساعدة هؤلاء على الخروج مبكراً.. وكان شرطهم الوحيد أن تقدم تعهداً بعدم الرجوع مرة أخرى إلى تلك الأفكار ولتلك الممارسات السياسية التى يرونها تعارض أفكار النظام.. ويظل هذا التعهد موجوداً بأيديهم سيفاً مسلطاً على رقاب الفكر السياسى.. حتى لا يفكر فى العودة إلى ما اعتنقه وما أقر على الابتعاد عنه سلفاً..»

بجانب ذلك رأيت داخل السجن ألوانا متعددة من التعذيب النفسى والبدنى.. لذلك يواجهك الاختيار رغم أنفك.. وتعود وتسأل نفسك هل ستستمر وتحمل كل هذه المشاق.. أم تستسلم وتتخلى عن أفكارك وآرائك..

الحاجة الثانية أنك خلال تلك اللحظات ترى نقاط ضعفك وقوتك وتحاول استخدام هذه النقاط في استكمال النقص الذى قد يعترى نفسك في وقت ما.

والحاجة الثالثة.. أنك تتعلم من مجتمع السجن وترى قيما جديدة تظهر لدى بعض الناس في لحظات معينة.. حينما يتخلون عن عالم الجريمة ويصبحون مجتمعا آخر يشعر كل منهم بأحاسيس الآخر.. إلى درجة أنك تكتشف وجود أناس ربما تراهم في عالم الحياة لأول مرة بهذه الشهامة وبهذه الرجولة..

ولعل أقول لك.. إن أى انسان حينما يدخل السجن لأول مرة.. تتصور أن هذا الإنسان المكبل بهذه القيود الحديدية وأسلوب الحياة الخشن إلى درجة بدائية.. بجانب الضرب والركل وألوان امتهان كرامة الإنسان ثم التجويع في بعض الأحيان.. عندئذ يعتقد أنه لن يستطيع أن يتحمل ساعة واحدة داخل هذه الجدران.. ثم تفاجأ بمرور الساعة وراء الأخرى ببطء شديد ويأتيك اليوم التالى.. وهكذا.. وبعد مرور عدة أيام تحاول أن تتأقلم داخل هذا المجتمع الجديد.. عندئذ تتفجر في الإنسان طاقات عظيمة تظل مختفية لحين ظهورها في وقت الأزمات والمحن، وأعظمها اللحظات داخل السجن، وتجعلك تتقبل هذه الحياة الخشنة والشاذة والبدائية.. ومن ثم تصير سيد هذا الموقف وتتغلب على هذه المشاكل وتتقبل العيش داخل جدران السجن..

وما أريد أن أصل إليه هو قدرة الإنسان على التكيف مع ظروف حياته الجديدة مهما كانت شاقة وعسيرة.. أيضا بخلاف ذلك تكتشف وأنت داخل السجن مناطق مجهولة داخل نفسك.. وبالنسبة لى.. فقد اكتشفت امكانياتى وقدراتى وموهبتى الأدبية والفنية.. ولعلك تدهش أننى قد أنجزت معظم مؤلفاتى الأدبية والسينمائية داخل هذه الجدران فيما عدا قصة وحيدة خارج السجن وهى قصة «المجانين لا يركبون القطار».. هذه القصة بالفعل كنت قد كتبتها بعد خروجى من السجن.. أما بالنسبة للقصص القصيرة التى أعادوا طبعها فقد كتبت لها مقدمة.. أوضحت فيها كيف اكتشفت هذه القدرة الكامنة فى داخلى.. وكيف اكتشفت فى نفس الوقت مواهبى الأدبية؟.. ودعنى أقرأ

لك بعض مشاهد قصص مجموعة رجال وحديد.. وهى المجموعة التي خصصتها لنقل مشاعرى وعالمى داخل السجن..

تحت عنوان «الليلة الأولى» كتبت أقول: «دار مفتاح فى ثقب الباب دورتين صاحبهما صرير رتيب.. وسمع حسن وقد صار وحيدا فى الزنزانة رنين طرقة أو اثنتين أحس أنهما من صنع الطرف السفلى للمفتاح الذى أغلق دونه الباب الحديدى.. وتبع ذلك وقع أقدام ثقيلة تبتعد وصوت خشن يأتية من خلال ضجيج المساجين الذين تتكدس بهم زنزانات العنبر: تصبح على خير يا أستاذنا.. ورغم أن التحية كانت قد نفذت تماما إلى أذن حسن غير أنه لم يستطع أن يحرك لسانه بردها إلا بعد مضي شوط غير يسير يستعرض الصور العديدة التي تزاوجت فى وعاء رأسه من الساعات القليلة الماضية.. وتذكر الزمن فجأة..»

ومن مجموعتي القصصية الثانية.. والتي صدرت بعنوان «ياقوت مطحون».. خصصت إحدى قصصها لنقل صور غريبة شاهدها خلف القضبان.. وعلى سبيل المثال.. صورة الشذوذ الجنسى.. وعلى ما أذكر أن اسم هذه القصة هو «الصفحة».. ولعللى أقرأ لك منها بعض الجمل والعبارات..

«.. وبدأ الشاويش سليمان.. يتحرك ببطء فى أرجاء المطبخ وتحركت معه عينا «سنقر» خطوة خطوة.. كانتا فى ظهره عندما انحنى يختبر الاعشاب الخضراء المتربة التى يقوم بتقطيعها ثلاثة من المساجين لاعدادها للطبخ على أساس أنها ملوخية خضراء.. وكانتا فوق طرف حذائه الأيمن حين له أن يرتفع فجأة دون ما سبب ليركل السجين الهزيل كالعصا الخيزران.. فید حرجه إلى الجدار مذعورا.. وكان يبدو أن ثمة حديثا صامتا قد دار بين «سنقر» والشاويش سليمان خلال النظرات المتبادلة وانهما قد وصلا إلى اتفاق.. ولم يبق إلا مناقشة التفاصيل»..

\*\*\*

**\* وهل هناك ذكريات أخرى تحملها بداخلك عن هذه التجربة؟ \***

— طبعاً.. خاصة آخر مرة دخلت فيها المعتقل.. لأنهم سجنوا معى زوجتى.. وعلى ما أذكر أنهم أيضا قد سجنوا سكرتيرة الأستاذ هيكل «مدام نوال وزوجها».. وكل ده كان أيام عبد الناصر.. وقد مات ونحن داخل السجن ثم أفرج عنا..



## \* نريد أن نعرف من الاستاذ لطفى الخولى.. وبشكل عام لماذا يسجن المفكر؟

- دا بيختلف من بلد إلى بلد.. ومن عصر إلى عصر.. أما بالنسبة لمصر.. فهناك سببان ونوعان من المفكرين.. وبشكل عام ليس هناك شك في أن السجن والاعتقال في اتجاهه العام ضد الفكر ويكبت.. ولكننا رغم رفضنا لهذا الكبت وندينه.. إلا أننا نعتبره تحد جديد للفكر.. من حيث أنه يثقله ويحدد نشاطه.. ويكشف جوانب خفية جديدة في هذا الإطار وكثيرا ما أعتقد أن فترة السجن هذه تعتبر نقطة تحول في حياة المفكر.. ومع ذلك ليس بالضرورة لكي يكون للمفكر نقطة تحول أن يدخل السجن.. ولكن بشكل عام فإن المحن والمعضلات الحياتية في العالم محليا ودوليا وتصدى الفكر لها سواء في شكل فلسفى وتاريخى أو شكل اجتماعى أو فنى.. هو التحدى المستمر للفكر أو بمعنى آخر أن تدخل في محنة بمعناها الواسع.. وليس كما نفهمها بمعناها الضيق..

\*\*\*

وحين تسألنى مثلا.. عن الأسباب التي تؤدي إلى سجن المفكر والزج به وراء القضبان.. أقول لك بشكل عام وطبقا لتجربتي هناك أنواع من سجن المفكر.. المفكر العضوى كما كان يعبر عنه الفيلسوف المفكر الإيطالى «جرامش».. والذى يقصد به ذلك المفكر الذى يعتبر أنه ملتزم بأن يدافع عن فكره اجتماعيا.. ويحشد له الناس في تنظيم أو أن يواجه النظام المعادى لفكره.. طبعا هنا لابد وأن يصطدم بالنظام و الموروثات والتقاليد ولا بد من أجل ذلك أن يدفع الثمن.. إذن كل مفكر يختار هذا الطريق لعرض فكره داخل المجتمع عليه أن يتحمل نتائج هذا الطريق.. ولا نعتقد أن هذا الموقف قاصر على مجتمع بعينه.. بل تجده في كل المجتمعات المتخلفة منها والمتقدمة لأنك هنا تتحدى النظام.. وعلى القائمين على هذا النظام التصدى لأفكارك ومقاومتها.. وعادة ما يكون المصير هو السجن أو الاعتقال بمختلف ألوانه وأنواعه.. والمفكر في مثل هذه الأحوال لا يتصدى للقائمين على السلطة، فقد يساهم في تكوين رأى عام كبير هو الذى يتقدم من أجل التصدى للقائمين على السلطة من وحى آراء هذا المفكر أو ذاك الذى ينظم قوى هذه الجماهير لحظة المواجهة والتصدى.. وعلى ذلك فلا بد وأنت كمفكر في هذا الموقع عليك أن تكون مستعداً في أية لحظة لدفع الثمن.. لأنك هنا لم تتوقف عند مجرد قول الأفكار وترديدها.. بل تنزل بها إلى الشارع في الواقع كى تتحقق..

وهذا هو النوع الأول أو المدرسة الأولى من مدارس الفكر.. وماسميناه في الأول مدرسة الفكر العضوى..

أما النوع الثانى من المفكرين مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأحمد بهاء الدين يرون أن مهمتهم أن أكتب وأقول رأى فى هذا الموضوع.. وأنتج هذا الفكر.. فمن يريد أن يستفيد منه يقترب منه.. ومن لا يريد يبتعد.. والكثيرون يسمون هذا الاتجاه أو هذه المدرسة.. مدرسة مهادنة السلطة.. وهذا تصور خاطئ.. لأن مثل هذه الخطوات يراها المفكر من وجهة نظره الأصلح للمجتمع.. ولكل تصوره الخاص.. فهم يرون أن مهمتهم تتوقف عند التثقيف والتنوير.. وغيرهم يرون أن دورهم لا يتوقف عند ذلك فقط.. بل يمتد من أجل تنفيذ هذه الأفكار فى الواقع.. وهؤلاء ينتمون إلى مختلف المدارس الفكرية اليسارية واليمينية والليبرالية وخلافه..

وبالنسبة لأصحاب الاتجاه الأول الذين يرون ضرورة النزول الى أرض الواقع لتنفيذ أفكارهم.. يتوقف نجاحهم على سعة صدر السلطة من حيث وجود بعض التكوينات الديمقراطية.. التى تساعد على تقبل مثل هذه الأفكار رغم اختلافها مع القائمين على السلطة.. هذا أولا.. أما ثانيا: تقبل السلطة أن يستمر هذا الفكر فى نشر تلك الأفكار بحرية دون تدخل أو رقابة أو مضايقة ومن هنا تتفاوت ردود الفعل.. ومع ذلك من الممكن أن تحدث حالات لوى ذراع مثلما حدث مع المفكر توفيق الحكيم.. رغم أنه ينتمى الى المدرسة الثانية التى تقف عند حد قول الفكرة دون السعى الى تنفيذها.. ففى إحدى المرات نشر قصة قصيرة.. رأت فيها السلطة آنذاك أنها ضدها.. وكما كان يحكى لنا الله يرحمه.. عاقبوه بخصم نصف شهر من مرتبه.. وقد تصل إلى الإيقاف عن العمل مثلما حدث مع الكاتب الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين.. أو إيقافه عند درجة مالية معينة.. ويتساوى هذا العقاب المادى والمعنوى.. وهذا فى حد ذاته نوع من العقاب الذى يؤدى إلى الإيلاام.. بحيث تشعر فى النهاية بأنك مسجون داخل نفسك.. حتى ولو لم تدخل السجن وتعيش داخل جدران.. وفى كثير من الأحيان لا تصل إلى عقوبة السجن أو الاعتقال.. المهم يصاب الفكر فى النهاية بالإحباط.. ويتوقف..

وفى هذا الإطار توقف الكثيرون من المفكرين عن العطاء.. وفقا لما عانوه من ألوان التعذيب.. وإذا ما استمر فى طرح أفكاره وعاند نفسه فهو يكون أمام أمرين: إما أنه مع

هذا الإصرار في معرفة التصدى لأفكاره يتجه للعمل من أجل تنفيذ هذه الأفكار وبالتالي يتحول إلى الصدام المباشر مع السلطة.. ويكون مصيره في النهاية السجن والاعتقال.. أو أن الدولة تتركه يطرح أفكاره دون التصدى له.. باعتبار أن هذه الأفكار مجرد كلمات جوفاء لا تأثير لها.. ومتنفس ضعيف داخل المجتمع.. ولا خوف منه.. وعندما تشعر السلطة بخطر هذه الأفكار تتدخل فوراً لمحاربتها.. ولو بالسجن أو الاعتقال.. ولكن على العموم لا يجب اعتبار السجن التحدى الأكبر أو الوحيد للمفكر.. وإنما الاغتراب.. والضرب تحت الحزام.. هو أخطر ما يواجه المفكر داخل مجتمعه حتى ولو لم يدخل السجن..

### «هل تعرفتم على شخصيات تأثرت بها في فترة الاعتقال؟»

– طبعاً.. وعليك بقراءة المجموعة القصصية «رجال وحديد».. وقبل أن أقرأ لك ما جاء في بعضها أذكر لك أسماء المفكرين الذين عرفتهم وتأثرت بهم كثيراً على هذا الدرب.. منهم الدكتور محمد الخفيف والمرحوم الدكتور لويس عوض.. ويوسف حلمي وعبد المنعم الغزالي ومحمد قطب أخو الأستاذ سيد قطب..

ومن غير هؤلاء عرفت مثلاً «أبو السباع».. ذلك السجين الذي كان اسمه الرسمي المسجل بدفاتر السجن والمكتوب بمداد أحمر باهت في أعلى «التذكرة» المثبتة بباب زنزانته رقم عشرة بالدور السابع اسماعيل محمد.. لكنهم أقصد كل من اتصل به في حياته العامة أو تلك التي قضاها خلال الاغلال لم ينادوه يوماً إلا بـ «أبو السباع».. وبالرغم من أن إسماعيل أو أبو السباع هذا.. أو سماعين كما كنت أسميه.. كائن حي.. يعيش ويتنفس ويدخن وتستطيع بكل سهولة أن تلمسه وتحدث إليه إلا أنه لو حدث وصافحته مرة تحاشيت طوال حياتك أن تكرر ذلك مرة أخرى.. فإن يدك عندما تغوص في راحة يده الخشنة تحس وكأنك قد أطبقت على ثمرة من ثمار التين الشوكي تحيط بها عضلات ضاغطة في قوة لا عهد لك بها.. فكأنها من حديد.. وتحاول أن تخلص يدك بكل ما أوتيت من إرادة حب الحياة ولكنك تفشل.. فتتأوه لحظات وتئن أخرى.. ثم تصرخ.. عندئذ يفرح أبو السباع ويفرج عن يدك وقد احتبس الدم في مواضع متفرقة منها وانبعثت من فمه الواسع ضحكته التقليدية.. والذين اتصلوا

بـ«أبو السباع» يوما أو عاشوا معه ولو ساعات يسيرة يروون عن شخصيته وتصرفاته الأساطير..

ومع الزمن صار معروفا أن للسجن مديرين أحدهما الموظف العمومي الذي يرتدى السترة العسكرية الصفراء والآخر «أبو السباع».. ذلك العملاق الذي يحس الناظر إليه أنه قد أدخل بصعوبة في لباس السجن الأزرق.. ولم تكن الزنزانة التي استقل بها أبو السباع تختلف كثيرا عن محل بقالة صغير وكان هذا المحل يتعامل مع جميع المساجين بأسعار يحددها بعدما راعى في ذلك أن تكون أقل ارتفاعا من تلك التي تسود في السوق السوداء والتي كان يباشرها كثير من السجناء في الخفاء.. ومن هنا كان دائما يدخل في منافسة مع تجار السوق السوداء.. ولكنه كان الرابع دائما.. وكان في كثير من الأحيان يتدخل تارة بيديه وتارة بواسطة «الحاجة» أي العصا الغليظة ليحمى عملاءه من بطش منافسيه عندما يحاولون تطبيق نصوص اللائحة عليهم..

والشخصية الثانية.. هو «أبو دراع».. أو «اللومنجي».. ذلك السجين الذي بدأ حكايته أيضا ولا الأساطير داخل جدران السجن.. فقد نشأ في الصعيد شابا شريدا لا يعرف له أصلا.. ولم يصادف الخوف في حياته.. بدأ عمله في الصعيد حارسا ليليا في منطقة مقابر القرية.. وكان الوحيد الذي قبل هذه الوظيفة بعد أن رفضها الكثيرون غيره.. وفي ذات يوم طلبه العمدة أن يتزعم تنفيذ مؤامرة لحرق أحد حقول القطن.. ثم تطورت هذه الطلبات من جانب العمدة من حرق الحقول وسرقة المواشى وتسميم الدواجن إلى سفك الدماء.. وجاء الوقت الذي خشى فيه أبو دراع أن العمدة يستغله ولا يدفع له.. لذلك قرر الانفصال عن العمدة وأن يدير أعماله العدوانية لحساب نفسه.. وبالفعل كون عصاة أفلحت بحوادثها الدامية في أن تشيع الإرهاب داخل القرية والقرى الأخرى.. ومنذ هذه اللحظة عاش أبو دراع مطاردة رسميا من الحكومة.. حتى تم القبض عليه.. وكان يطلب دائما للمساجين الجدد الاستماع إلى حكاية أبو دراع وهم واقفون في عيادة السجن الطبية ينتظرون العرض على الطبيب وحتى هذه اللحظة لم أعرف السبب..

\*\*\*

خلاف ذلك هناك شخصية ثرية جدا تعرفت عليها داخل السجن وهي شخصية الشاويش رجب.. وأنا شخصا أعترف أنها شخصية تهزك بعنف وتتأثر بها بسرعة..

وأنا أعتقد الآن أنه مات.. وعم رجب هذا كان في الستينات من عمره.. وكان العسكري الوحيد تقريبا الذى لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة.. وبالتالي خصصوه لحراسة السياسيين.. وكان يمتاز بإنسانيته الغربية التى أبعدته عن صفات كل عساكر السجن الآخرين.. فلا يقبل نقوداً ولا رشاً ولا أى شىء من هذا القبيل.. لقد كان نموذجاً فريداً يتسم بطبيعته السمحة راضياً بحياته وعيشته.. وبالتالي كان يعتبر الرشوة من أجل أداء الخروج على الواجب وعلى مقتضيات الوظيفة حراماً، وكان اختياره فى هذا المكان موفقاً.. لأن السجناء السياسيين كان أول عمل لهم داخل السجن هو تكوين شبكة من العساكر والشاويشية وعن طريقهم يتم تهريب كل شىء يتعلق بالفكر والثقافة.. وطبعاً كله بالفلوس.. إلا مع عم رجب.. بجانب ذلك كان هؤلاء هم حلقة الاتصال بين المساجين السياسيين وبقيّة المساجين الآخرين ثم بينهم وبين الخارج..

إن عم رجب كان شخصية غير عادية.. وكان مسئولاً عن مجموعة زنازين خصصوها للتأديب بسجن القناطر الخيرية.. وكنت سجين إحدى هذه الزنازين عام ١٩٧٠.. وقد مر عليه عدد كبير من المساجين السياسيين.. مثل فؤاد باشا سراج الدين وآخرين.. هذا الرجل اتصافه بصفة الأمية ووجوده بيننا كان مقصوداً..

تتم عملية التجهيل التامة.. لأننا كنا دائماً فى شوق أن نعرف كل جديد فى الصحف والمجلات.. فكيف يمكن أن يتم ذلك لنا والحارس لا يقرأ ولا يكتب.. بالفعل لقد كان عم رجب لا يعرف القراءة.. وبالتالي كنا كثيراً ما نفشل فى معرفة أخبار العالم من صحف الصباح.. والشىء الغريب أن هذه الشخصية.. قد لفت على جميع السجون المصرية مصاحباً للمساجين السياسيين سواء فى الواحات أو فى السجون الأخرى.. وقد تأثر هذا الرجل بمصاحبة هؤلاء السياسيين فتحول مع الأيام رغم أنه كان جاهلاً.. إلى أحد خبراء السياسة المصرية فى وقت من الأوقات..

ولأنه بدأ يتعامل مع السياسيين فقد أصبح له موقفاً.. وبدأ يتكون لديه قناعة بأن سجن هؤلاء الرجال غير طبيعى وغير قانونى كما بدا عليه عدم الاقتناع بالسلطة التى سجنّت هؤلاء.. وبدأ يتكون لديه رأى مؤداه أن هؤلاء لابد وأن يخرجوا على الفور ويمارسوا حياتهم الفكرية دون قيود.. وعلى الناس أن تختار بين فكرهم.. ولماذا لا يكون هو من بين هؤلاء الذين لهم مثل هذا الاختيار.. فبدأ يأخذ موقفاً من السلطة.. كما

بدأ يأخذ موقفا مع أو ضد هذا التيار.. وفقا لاقتناعه بأفكاره.. دون التعرف على صحة أو خطأ هذا التيار أو ذاك.. بل أكثر من ذلك بدأ يتدخل معنا في حوار مثير وثرى.. كما بدأ يذهب إلى المقهى قبل دخوله إلينا في نوبة حراسته بالسجن.. ومن خلال حواراته مع أصدقاء المقهى.. ينقل إلينا النبض العام لهؤلاء الناس البسطاء.. وكان يشعر أحيانا أن من واجبه أن ينقل إلينا أو يبلغنا بقضية ما.. ويتم ذلك من تلقاء نفسه دون توجيه من أحد منا ودون أن يأخذ أجرا على ذلك.. وبذلك أصبح صديقا لكل المعتقلين السياسيين والمفكرين على اختلاف انتماءاتهم..

ومرة أخذ يحدثنا عن شجاعة وبطولة فؤاد سراج الدين في السجن بدرجة كبيرة.. وكان صديقا لنجم وإمام.. وكان يداري علينا فيما نكتبه داخل الجدران.. وبالنسبة لي شخصا كان يخفى الأوراق التي كنت أكتبها عن سيناريو فيلم العصفور.. أيضا كان متعاطفا مع الاخوان المسلمين ويساعدهم كثيرا في تلبية طلباتهم رغم تحفظه على بعض آرائهم واختلافه معهم.. يعنى تقدر تقول بخلاف ذلك: السجن مجتمع غنى بالشخصيات..

ويحضرني بخلاف قصتي مع «عم رجب».. قصة أخرى مع أحد صولات سجن الفيوم.. هذه الشخصية طيبة القلب.. رغم مظهرها القاسى.. كان يتعامل معنا بإنسانية غريبة.. ويتغلب كثيرا على التعليمات والأوامر التي تسرى علينا كمسجونين سياسيين.. ودائما كان يكرر أمامنا أنه غليظ القلب وعنيف.. وكنا نلاحظ تكرار هذه العبارات أمام مسئولى السجن فقط ولكن حين يخلو بنا.. ينقلب إلى انسان من نوع طيب.. وأستطيع أن أقول لك إنني ظلت على علاقة ببعض زملائى من المسجونين غير السياسيين حتى بعد الخروج ومن الضباط.. وللأسف.. كان منهم بعض الضباط الذين اشتركوا في تعذيبى كما لو كنا أعداء.. هذه العلاقة اتسمت بيننا بالود حتى إن بعضهم كان يطلب منى خدمات..

**\*ولماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر في دول العالم الثالث بتوقيع رئيس الدولة؟\***

- أنا أعتقد أن رئيس الدولة لا يعلم كل شىء قبل وقوعه.. بل قد يعرف بعد وقوعه.. ويؤكد لك ذلك ما سأروييه بعد لحظات.. فعندما كنت قريبا من الرئيس

السادات وكانت علاقته به طيبة حتى ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧.. قال لي إن هناك طريقة ما يلجأ إليها الحاكم في حالة وجود ما يعكر صفو النظام.. وكان ذلك ردا على ما أثرته آنذاك من لجوء السلطة إلى تقييد حرية الفكر واعتقاله.. ومنعه من الكتابة دون أن يعرف هو ذلك.. وأحيانا يكون الاعتقال لأمر ملفقة يتم اكتشافها أثناء إجراء التحقيقات في النيابة أو أمام القضاء..

وفي رده على ما أثرته.. قال لي الرئيس السادات الذي كان يمتاز بحسن استماعه حتى لخصومه.. إن آلية هذا العمل يأتي بالشكل التالي: هناك مجموعة ما من الوزارة قد قررت أن تأخذ موقفا ما من كاتب أو مفكر.. مثلا من لطفى الخولي.. فعندما تشوع في كتابة تقاريرها للرئيس عبد الناصر تذكر اسمه بشكل هامشي في إحدى التقارير الأمنية.. أنه شوهد مثلا يصافح فلان وفلان.. وهما من أعداء عبد الناصر أو من خصومه.. ثم تمضي أسابيع ويذكر في تقرير آخر أن لطفى الخولي قد اجتمع مع بعض هؤلاء المعارضين.. وقال ضمن ما قال إنه لا بد من إعادة النظر فيما هو قائم من نظام سياسى.. ثم يبدأ بعد سطر وسطرين... ثم إلى فقرة.. ثم إلى ورقة في التقرير.. إلى أن يتم كتابة التقرير كله عن لطفى الخولي وعن تحركاته.. ويلاحظ أن ذلك يتم بشكل مكثف في فترة زمنية قصيرة.. مما يلفت نظر الرئيس عبد الناصر.. الذي يطلب من أحد معاونيه وليكن مثلا سامى شرف.. معرفة حكاية لطفى الخولي بالتفصيل.. في الوقت الذي يكون فيه التقرير جاهزا للعرض على الرئيس وفيه كل ما يدين لطفى الخولي من اتهامات صحيحة وغير صحيحة.. وأحيانا عبد الناصر كان يرى بعد قوات الأوان أن ما جاء في التقرير غير صحيح.. وكان عليه أن يأخذ به لأنه تقرير مرفوع إليه من جهات عليا في الدولة.. وأنا هنا لا أعفى عبد الناصر من المسئولية لأنه كان عليه أن يضع آلية معينة تضمن صحة التقارير التي ترفع إليه بدون تحيز أو اتهامات باطلة لأحد.. بجانب أن الاعتقال بدون تهمة هو شيء مذموم.. أضف إلى ذلك أن ما جاء بهذه التقارير يضعك تحت المراقبة وأحيانا تمنع من السفر ومضايقات أخرى كثيرة..

وفي اعتقادي أن ما يحدث من مثل هذه الأمور هو جزء من الصراع السياسى الذى يعالج بطريقة غير صحيحة وفردية.. وعبد الناصر لم يكن دكتاتورا ولكنه كان حاكما

فرديا.. لا يؤمن بالديمقراطية باعتبارها عقبة معطلة للانطلاق نحو التنمية.. وطبعاً كان ذلك تصوراً خاطئاً إلى أبعد الحدود..

وبأمانة الكلمة.. أقول لك إن الرئيس السادات في نهاية تعقيبه على ما أثرته معه آنذاك.. قد وعدنى بشكل عام أنه لن يلتفت لتلك التقارير.. وأنه قد قطع عهداً على نفسه بأنه سوف يناقش كل مفكر يأتى ذكره فى أحد هذه التقارير.. ومواجهته بهذه التهم..

**\*وأخيراً.. لو كان الأستاذ لطفى الخولى رئيساً للحكومة أو وزيراً للداخلية وعرضت عليه أسماء مفكرين معتقلين منهم لطفى الخولى.. ماذا سيفعل؟..**

- الحقيقة أنك تضعنى فى موضع مستحيل.. وهذا نوع من الأسئلة الصحفية الذكية.. وأحب أنؤكد لك إننى لم أجرب أن أكون رئيس حكومة أو وزيراً للداخلية.. ولذلك لا أستطيع أن أقول لك لأن رئيس الحكومة يكون مقيداً بأنظمة أمن معينة ومتطلبات جماهيرية مفروضة عليه.. ولكن بشكل عام أحب أنؤكد لك إننى ضد الاعتقال على طول الخط لأنه لا يفيد.. ولم تنجح عملية اعتقال المفكرين.. لأنك فى الحقيقة تعتقل الجسد ولكنك لا تستطيع أن تعتقل العقل الذى يخرج منه هذا الفكر.. لأن خروج الفكر من عقل الإنسان حتى فى هذه الحالة يصبح الفكر ملكاً للغير وليس ملكاً للمفكر فقط..



## الحكاية السادسة يرويها جمال الغيطانى:

### واكتشفت أن صرخات التعذيب داخل المعتقل.. أسطوانة

العثور على كلمة تصلح كى تكون بداية موقفه لمثل هذه الحوارات.. مهمة شاقة وعسيرة.. وربما تتبع هذه المشقة من إحساسك بأهمية الموضوع.. وأيضاً أهمية الضيف المتحدث، من أجل ذلك وفى مثل هذه المواقف وهذه المهام العسيرة أستمع جيداً.. وأقرأ ذلك بنفس الصفة.. أملاً فى العثور على ما أبحث عنه وتكوين بداية طيبة ومرضية.. ومعبرة عما سوف أقوله من بعدها..

والكاتب الأديب الصحفى المفكر الغيطانى يجعلك تعيش لحظات رهبة وخوف وقلق حين يحدثك عن مثل هذه التجربة التى أثارت بداخله الشجون.. وعادت بذكرياته ألف عام.. حتى قبل أن يولد.. لأنه لم يكن يتصور فى يوم من الأيام أنه سوف يدخل السجن ويعتقل.. ويزج به فى زنزانة ضيقة.. وحيداً مكروباً.. ولسوف تشعر عزيزى القارئ بأنك مشدود مثلى مع كل كلمة قالها لنا خلال هذا الحوار الذى لم يخل من لقطات إنسانية تذيب القلب.. وتوجع البدن والعقل..

وبالاستماع الجيد والإنصات لكلمات المفكر والأديب جمال الغيطانى من خلال شريط التسجيل اكتشفت أنه قد دخل تجربة الاعتقال، وهو لا يزال صغير السن.. وقبل أن يدخل عالم الصحافة.. فقد كان وقتها لا يزال فى بداية الطريق نحو عالم الأدب وعالم الشهرة.. ولولا الإصرار بداخله.. وإحساسه بمرارة الظلم الذى وقع عليه لكان قد انسحب من الساحة كلية وأثر السلامة وأعطى للأدب والصحافة والفكر ظهراً.. والتحم بالحياة العملية.. خوفاً ورعباً من تكرار نفس التجربة.. ولكن الذى حدث هو العكس.. فقد ولدت لديه تلك التجربة الرغبة فى مواصلة المشوار نحو عالم الفكر والأدب بمفهوم جديد.. لا يقترب من عالم السجن.. ولا يخاف منه.. ولكنه يحاول من خلال قلمه أن يقاومه كظلم يقع على الإنسان.. وتراه فى ذلك قد عبر عن هذا العالم الغريب ومآسيه المتنوعة فى العديد من كتبه ورواياته.. وإن لم يكن بشكل مباشر على طريقة كتابة المذكرات أو تسجيل وقتى لأحداث تلك الفترة..

أضف إلى ذلك أن تعرضه لمثل هذه التجربة وهو في سنه المبكرة دون أن يكون ذا باع طويل في عالم الفكر والمفكرين.. أثار حفيظته وخلخل كيانه.. وفرض على واقعه سلسلة طويلة لاتنتهى من الأسئلة.. يأتى في مقدمتها السؤال التقليدى.. لماذا؟.. ومن أجل البحث عن إجابة شافية له، قرر أن يدخل المعركة بفكره وبقلمه ينقل الصورة بلا رتوش.. أملا في أن يستفيد غيره من المفكرين من هذه المحنة التى اعتبرها البداية الحقيقية لوجوده داخل هذا العالم.. وبصرف النظر عن الانتماء الفكرى أو السياسى الذى ليس هو مقصدنا من هذا الحوار.. فقد دخل جمال الغيطانى السجن بتهمة الشيوعية.. وهو لم يكن يدرى وقتها ضخامة هذه التهمة أو المصير الذى ينتظره من جراء الاقتراب من مجالها.. ولكن ذلك قد حدث وكان عليه أن يقرر وأن يختار..

وفى بحثنا الدائم عن كلمات سطرها المؤلف هنا أو هناك تكون معبرا نطمئن إليه.. فى بداية حوارنا كمدخل للحديث القادم.. وجدنا تلك الكلمات نائمة فى أحضان مجموعة قصصية.. صحيح أنها ليست الوحيدة من نوعها.. بل كتب غيرها الكثير متأثرا بتجربة السجن.. إلا أنه وبفسه قد رشح لنا هذه المجموعة كى نبحث بين سطورها من أجل العثور على المطلوب.. ولقد وجدنا ضالتنا فى بعض عبارات وجمل هذه القصص مثل قوله فى قصة «رسالة فتاة من الشمال»: عبرت الأرض الساخنة الصفراء، حرارة تخرق نعل الحذاء الخفيف وتؤلّم باطن قدمى.. لم يقترب موعد الغداء، عندما تتجاوز الشمس منتصف السماء وتميل عنه.. عندما يزحف الظل الرمادى من أول عنبر للنوم متسلقا جدران العنبر الثانى والثالث حتى الرابع.. ينطلق نفير الغداء، بجوار جدار حجرى قصير البناء فكروا يوما فى إقامته ثم عدلوا، جلس أربعة زملاء..

وفى موضع آخر من نفس القصة يقول معبرا عن تلك المشاعر التى سجن من أجلها على لسان الفتاة التى بعثت إليه برسالة من بلاد الجليد.. أننى أسفة قد أكون ألتك بهذا الوصف لذوبان الجليد، لأننى أعرف أنك مقيد، لكننى أحترمك جدا.. ولا أعرف هذه المبادئ التى قيدوك من أجلها ربما لا أميل إليها لكننى أحبك وأحن إليك وإلى من معك.. فأى شىء أعظم من أن يسجن الإنسان من أجل مبادئ يؤمن بها.. إننى فتاة من آلاف يعيشن فى بلاد الثلوج البعيدة عنك، ولن ترانى ولن نتصافح بالأيدى.. ولو لم أقرأ اسمك فى نشرة الجمعية التى أنتمى إليها لما سمعت عنى أبدا.. كذلك أنا لا أعرف عمرك ولا سنك ولا أوصافك.. لكنى أعرف أنك لاتمشى فى الشارع كما تشاء ولا تأكل كما

يجب، ولا تنام كما ينبغي أن تنام.. وأعرف أنك إذا رغبت في رؤية أهلك لن تراهم..  
كذلك صديقتك وزوجتك..

\*\*\*

وكلمات كثيرة نثرها جمال الغيطاني هنا وهناك.. من أجل أن يصف لنا تجربته مع  
السجن.. وفي كل مرة سوف نتوقف عند إحداها.. وعلينا منذ هذه اللحظة أن نعد أنفسنا  
من أجل سماع تفاصيل الحوار الذي دام أكثر من ساعتين.. وتم تسجيله على ثلاث  
مراحل.. وقد لعبت الحالة النفسية للأديب والمفكر دورا عظيما في تحديد مواعيد هذه  
المرات الثلاث.. فلم أكن أتصور ولا هو كذلك أن مثل هذا الحوار سوف يفتح عليه  
أبواب التاريخ وذاكرات الماضي.. ويقلب مواجع القلب التي لعب الزمان دوره في  
شفائها.. وكأنما رأيته لأول مرة وهو يدخل المعتقل.. خائفا مرتجفا.. صحيح أنه رحب  
بالفكرة.. ولكننا عندما بدأنا التسجيل.. ومع دوران الشريط.. انفعل بشدة.. وخرجت  
الذكريات من فمه مصحوبة بالآلام ذلك الماضي القريب والبعيد في آن واحد..

وآه لو كنتم معي حين التسجيل.. وسمعت كلماته التي أخذ رنينها يزداد داخل  
الغرفة التي ضمنتنا لحظتها.. فحتمنا سوف نشعرون بسخونة هذه الكلمات ولهيب تلك  
الجمال الاعتراضية العديدة التي نقلت لنا الصورة بدون رتوش.. وكان لابد من  
التسجيل.. فهي كلمة للتاريخ بصرف النظر عن الفكرة السياسية أو الانتماء.. مادام  
صاحبها ينادي بها في سلام وبعيدا عن استخدام وسائل العنف، لإيماننا بأنه لا يقارع  
الحجة إلا الحجة وأن اللجوء لاعتقال العقل والبدن كوسيلة لإبطال مفعول الفكرة.. هو  
تصرف عاجز.. ويدل على القصور في التصرف.. وما هذه الحوارات إلا خطوة على طريق  
تصحيح المسار وتنمية الشعور العام والإحساس بأن المفكرين مهما شطحت آرائهم  
وأفكارهم لا يكون مصيرهم السجن ماداموا لا يلجأون إلى العنف من أجل تطبيق هذه  
الأفكار.. وحتى لو ثبت عليهم هذا الأمر.. فإنهم لا بد وأن يحاكموا وفقا للقانون.. ولا  
يصدر ضدهم أوامر فوقية قبل سماع دفاعهم.. أو يزج بهم وراء القضبان قبل النطق  
بالحكم.. فالقضاء العادل هو رمز الحرية.. وهو السيف المسلط فوق جميع رقاب  
العباد دون تفرقة.. والعبرة هنا بالأدلة..

وكما تعودنا.. سوف نترك للضيف حرية التصرف.. وبداية الكلمة ونهايتها.. ولن

نتدخل إلا من أجل إدارة الشريط وإيقاف دورانه.. أو وضع ملامح لسؤال نراه بداية لحوار جديد.

\*\*\*

وكانت بداية الحوار هكذا بعد كلمات الترحيب والثناء المعتادة..  
\* نريد أن نعرف من الأديب المفكر الصحفي جمال الغيطاني كم مرة دخل فيها السجن؟..

- مرة واحدة فقط. وكانت بالتحديد في ٩ أكتوبر ١٩٦٦ فجرا، حين طرق الباب واقتحم شقنا الصغيرة جدا بحى الجمالية ضابط مع مجموعة من العساكر بزيهم المدني.. وكان وقتها عمرى لا يتعدى الواحد والعشرين عاما.. تقدم منى الضابط فى ذلك الوقت المتأخر من الليل بعد أن فتحت له الباب.. وذكر لى اسما أعتقد أنه اسم غير حقيقى.. وإن كنت مازلت أذكر ملامح وجهه جيدا حتى هذه اللحظة..  
المهم دخل شقنا ومعه ثلاثة من المخبين الذى انتشروا بسرعة داخل الشقة التى كانت فى ذلك الوقت غرفتين وصالة.. وبدأت عملية تفتيش واسعة لكل الموجود بالشقة.. ولفت نظرى إصرارهم على تفتيش كل ورقة وكتاب موجود بالشقة.. ويبدو أننى كنت سييء الحظ.. لأن هذا الضابط أخذ منى كمية كتب ضخمة أنا مازلت حتى هذه اللحظة متحسرا عليها وحزينا بشدة لأن أغلبها كانت كتب من التراث النادرة.. حيث كانت هوايتى فى هذه السن المبكرة تدور فى فلك كتب التراث القديمة.. وأسعى جاهدا لجمعها ولشرائها بأى ثمن.. أيضا استولى على كمية ضخمة من الكتب الماركسية التى كانت متداولة بكثرة فى ذلك الوقت..

أيضا على ما أذكر استولى الضابط على كمية من الورق الأبيض الذى كنت أكتب عليه وكنت أحصل عليه من عملى أو من أحد أصدقائى العاملين بالآلة الكاتبة.. والغريب أن رزم الورق هذه قد ألتنى كثيرا وسببت لى أزمة نفسية لأننى أبدا لم أكن أكتب إلا وهى بجوارى.. وتقدر تقول.. ربما يرجع ذلك إلى عدم إحساسى بالأمان فى هذه الآونة والخوف.. وقد تتعجب حين أقول لك إن مجموع ما حصل عليه الضابط من هذه الكتب وهذه الأوراق قد ملأ ثلاث ملايات سرير.. حملها المخبرون فوق أكتافهم حين غادروا منزلنا وأنا معهم فى الفجر..

ولا تتصور أن اعتقالى فى مثل هذه السن المبكرة.. وبهذه الطريقة قد أثار أسرتى

الصغيرة.. وأصابها بالفرع والهلع.. فوالدى رجل كان طول عمره فى حالة.. وقد عاش فى القاهرة لأكثر من خمسين عاما ولم يدخل خلالها إلى قسم بوليس أو ذهب فى مرة من المرات إلى المحكمة.. أما بالنسبة لوالدتى.. فكان هذا الحدث فى حياتها بمثابة الزلزال.. أضف إلى ذلك أنه بالنسبة لبقية أفراد أسرتى وعلى وجه الخصوص على أخى الصغير فقد أصيب بصرع منذ هذه الليلة.. وظهرت عليه هذه النوبات ابتداء من عام ١٩٦٧ بعد الإفراج عنى.. واستمرت معه هذه النوبات.. وظل يعالج حتى برأ منها منذ سنوات قريبة..

لقد ولد عنده هذا المشهد الذى رأى فيه هذا الكم من رجال البوليس والخوف والفرع والصرع الذى ظل ملازما له طويلا وأعتقد لمدة ١٨ عاما.. لقد كان ذلك إحدى النتائج المباشرة والعنيفة لعملية الاعتقال.. جانب آخر أن الاعتقال كان يتم فى ظروف اقتحام.. ودون أن يذكر لك أو لأسرتك إلى أين أنت ذاهب الآن.. وهل ستراجع أم لا؟.. لقد كنت تذهب إلى المجهول.. وفى حالات كثيرة كان يتم هذا الاعتقال بإهانة ووحشية.. سواء فيما يخص الشخص المطلوب اعتقاله أو أهله.. ومن هذا المنطلق تؤكد لك أن ظروفى فيما يتعلق بهذه الخصوصية كانت جيدة.. ولعب الحظ دوره فى عدم تعرضى لأى نوع من أنواع هذه الإهانات التى كنا نسمع عنها أو شاهدنا بعضها.. بل بالعكس حاول الضابط وقتها أن يهون علينا هذا الأمر.. فتحدث مع والدى عن بلدته ومولده وأشياء أخرى من أجل التخفيف عليه من وقع هذه المصيبة.. ولكن حينما خرجت فوجئت بأفراد الشرطة وقد وضعونى بين أذرعهم خوفا من الهرب.. والمسدس فى ظهري من جانب آخر.. وكانت من المشاهد التى أثارت سخريتى فيما بعد.. فقد تصورت نفسى من المجرمين العتاة.. أو زعيم عصابة.. لم يصدقوا أنفسهم حين اعتقالهم..

وعلى بعد خطوات من المنزل وخارج الحارة فى شارع قصر الشوق بالجمالية.. وقفت سيارة شرطة رمادية اللون على رأس الشارع لأنها فشلت فى دخول الحارة لضيق ممراتها.. وزكبت معهم وسط حراسة مشددة.. إلى مبنى المباحث العامة.. ومكثت هناك ساعة.. وأذكر وأنا موجود فى إحدى الغرف هناك أننى تقابلت مع أحد الصحفيين ويدعى محمود عزمى، وكانوا قد أتوا به مع مضبوطات من الورق والكتب.. وقد لفت نظرى داخل هذه الغرفة كذلك صورة تعلق الحائط للسيد زكريا محيى الدين ومن فوقها الآية القرآنية: «رب اجعل هذا البلد آمنا»..

ولقد لصقت بذهنى طويلا للدرجة التى جعلتنى أكررها كثيرا فى روايتى «الزينة بركات».. طبعا أنا كنت داخل هذا المبنى.. وأثناء تنقلى فى شوارع القاهرة قبل الوصول إليه.. كنت أسترجع الصور الحية للشوارع والأشجار والمباني.. لإيمانى بأننى ربما لن أشاهدها مرة أخرى.. يعنى احتمال القتل أو الموت كان ماثلا فى ذهنى، لأنه كانت لدى معرفة سابقة بأن مثل هذه الأمور تحدث وراء القضبان.. وربما تكون من نصيبى.. وكان السؤال الذى يتردد فى ذهنى وأنا أتجول ببصرى طوال رحلتى داخل شوارع القاهرة قرب الفجر.. وأنا وسط هذه الحراسة المشددة.. هو متى أشاهد هذه الشوارع من جديد؟ وهل سيقدر لى أن أراها مرة أخرى أم لا؟.. وبعد أكثر من ساعة داخل مبنى المباحث العامة اقتادونى إلى سجن مزرعة طرة الذى كان مقاما فى ذلك الوقت داخل أحد معسكرات الجيش.. ودخلت المعتقل.. وأثناء تدوين البيانات.. لاحظت أنهم كتبوا أمام اسمى «شيوعى» ونسيت أن أقول لك إننى طوال الرحلة من المباحث إلى السجن كنت مقيدا بالكليشات ولا أعتى المجرمين.. فكان ذلك طبعا شعورا غريبا بداخلى.. حيث أحسست فعلا أننى تحولت هذه اللحظة إلى زعيم عصابة.. وأنا هنا داخل المعتقل، ومما أثار نفسى أيضا أننى بمجرد دخولى تعرفت على أحد جيراننا بحارة الطبلالوى.. كنت طول عمرى أعرف وأسمع عنه أنه دائم الدخول إلى المعتقلات بسبب أنه من الإخوان المسلمين منذ عام ١٩٥٤.. ووجدته ينظف أرضية السجن ببذلاته الزرقاء التى كانت تختلف عن البذلة التى كنت أرتديها.. وكان لونها الأبيض هو اللون المميز للمعتقلين.. وكان اسمه الأول أحمد..

وفور لقائى به.. أعطانى هدية غالية جدا لم أكتشف قيمتها إلا بعد فترة من وجودى بالسجن.. تعرف ماذا كانت هذه الهدية؟ قطعة جبنه مثلثة الشكل «نستو».. وأوصانى بضرورة الاحتفاظ بها ولا أكلها مباشرة.. وفعلا بعد فترة من وجودى داخل المعتقل اكتشفت قيمتها الغالية على حد تعبير عم أحمد.. وهذه النقطة تجرنا للحديث عن نوع المعيشة والطعام داخل الجدران السوداء.. فالوجبات الثلاث من الفول المهروس بالسوس والزלט.. وكنا نأكله بعد معالجة بالزيت وأشياء أخرى حتى يمكن ابتلاعه بسهولة..

وكانت أنواع الجبن والسالمون.. والمعلبات الأخرى نوعا من الترفيه لا يحصل عليه إلا المحظوظ.. وبوسائل ملتوية.. كنا فى الغالب نحصل عليها بالفلوس لأنها كانت تباع

لمن يقدر على الدفع.. المهم أننى دخلت حجرة كبيرة جدا.. وبدأخلها فوجئت بعدد كبير من أصدقائى خارج السجن وعدد آخر ممن لا أعرفهم.. وعلى ما أذكر كان من بينهم صلاح عيسى الذى كانت تربطنى به علاقة قوية فى تلك الفترة للدرجة التى اعتبرت نفسى فى طريق الاعتقال بمجرد أن عرفت أنه قد اعتقل قبلى. وآخرون سبقونى إلى نفس المعتقل منهم على ما أذكر عبد الرحمن الأبنودى.. وعلى الشوباشى.. لقد كانوا من الكتاب والمثقفين المصريين المستنيرين فى تلك الفترة.. وبعد فترة اكتشفت أن هؤلاء قد اعتقلوا قبلنا ومنذ خمس سنوات.. أما أنا ومعى الشاعر سيد حجاب كنا ندخل المعتقل لأول مرة.. وهؤلاء كان يجمعهم انتماء واحد يدعى آنذاك «وحدة الشيوعيين».. والذى دخلت السجن بسببه لأول مرة فى حياتى..

فى نفس الوقت تم اعتقال مجموعة من أعضاء الاتحاد الاشتراكى بتهم انتمائهم لتنظيم يدعى «القوميين العرب».. ومنهم مسئولون كبار فى ذلك الوقت.. وعلى ما أذكر منهم الدكتور محمد الخفيف «الله يرحمه».. ولطفى الخولى.. وأمين عز الدين.. والدكتور إبراهيم سعد الدين هؤلاء الذى كانوا على مقربة من النظام فى ذلك الوقت.. الأمر الذى جعلنا نتصور ببلاهة أنه قد وقع انقلاب يمينى فى مصر.. مما أدى بهؤلاء إلى دخول المعتقل..

**\* ليسمح لنا الأستاذ جمال الغيطانى أن نقاطعه كى نسال.. كم مدة قضاها داخل السجن؟..**

— أنا مش فاكرك. لكن أقدر أقول لك .. إنها بدأت بأسبوعين انقطعنا خلالها عن العالم تماما.. ثم بدأ استدعاؤنا فى مجموعات إلى السلخانة وهو لفظ كان يطلق على سجن القلعة.. للتحقيق ووقتها كنت أصغر معتقل ربما فى مصر كلها، ولذلك لم أكن أملك خبرة فى هذا المجال.. وقد تعرفت فى هذه الآونة على بعض الشيوعيين من الطبقة العمالية منهم مثلا عم منصور زكى ومحمد بدر.. وقد بهرتنى شخصيتهم.. واكتسبت من وجودهم قبلى خبرة طويلة.. للدرجة التى جعلتنى مصدر تشجيع دائم لهم طوال إقامتى فى السجن الحربى.. حتى وفى فترات التعذيب. أيضا.. المهم فى ليلة من الليالى.. فوجئت بأنهم ينادون على اسمى.. فخرجت أنا والدكتور صبرى حافظ.. أستاذ الأدب العربى.. وشخص ثالث لا أذكر اسمه.. وتوجهنا إلى إحدى السيارات التى سوف تنقلنا إلى سجن

القلعة للتحقيق.. وأثناء جلوسى بالقرب من ضابط الحراسة وقع بصرى على الجواب الخاص بالترحيل.. وقرأت فيه عبارات تقول: أمر بترحيل فلان وفلان.. وفلان.. تحت الحراسة المشددة مع العلم بأنهم من الخطرين..

وبناء على ذلك شددوا الحراسة علينا وأحاطوا سيارتنا بسيارات أخرى أمامنا وخلفنا.. وفي هذه اللحظة انتابنى احساس بأننى لن أعود مرة أخرى، خصوصا ونحن فى طريقنا إلى السلخانة ومعقل التعذيب بأنواعه المختلفة.. وللمرة الثانية أسمع لخيالى بالتقاط صور من الشارع فربما لن يسعدنى الحظ وأراها مرة أخرى.. وداخل القلعة توقفت بنا السيارة أمام باب أثرى عتيق.. وأخذونا معصوبى العينين فى طابور، ووضعونى فى زنزانة كان رقمها آنذاك (٣٤) وحبست فيها انفراديا.. وقبل أن أدخلها سبقنى إليها أحد العساكر المدنيين حيث قام برش أرضية الزنزانة بماء مثليج.. وأمرنى بعدها أن أدخل كى أنام.. وكنا وقتها فى شهر أكتوبر والبرد على أشده.. ولا توجد أغطية سوى بطانية.. والنوم على الأسفلت.. لقد قضيت هذه الليلة واقفا..

وحين نعود لحكاية الأكل داخل هذا المعتقل الجديد.. أقولها كلمة حق أن نوع الأكل كان جيدا إلى حد ما عما رأيته فى سجن مزرعة طرة، وبعد يومين من وصولى.. بدأت حرب الأعصاب.. فقد بدأت أسمع يوميا صراخ طفل يعذّبونه.. وعلى ما يبدو كانوا يصعقونه بالأسلاك الكهربائية فى بعض أعضائه التناسلية.. وأقول لك إننى لم أسمع فى حياتى مثل هذا الصراخ الذى كان يذيب قلبى وعقلى ويهزنى من الداخل للدرجة التى جعلتني أقضى يومى بأكمله داخل الزنزانة واقفا مرعوبا محاولا أن أبعد عن أذنى هذا الصراخ المروع.. وفى تجربتى أعتقد أن صوت التعذيب أقوى تأثيرا من التعذيب نفسه.. وبعد أن مكثت أسبوعا على هذه الحالة السيئة وداخل الزنزانة الحفيرة التى لا يتعدى حجمها عن أربع خطوات.. استدعيت للتحقيق.. واقتادونى معصوب العينين مع وجبة دسمة من الضرب بالشوم والركل حتى تصل إلى المحقق.. وحتى عندما وصلت هناك دخلت مكانا لم أشاهد معاملة لأننى كنت لا أزال معصوب العينين.. وبعد لحظات انهالوا على جسدى النحيل وفى هذه السن المبكرة ضربا وركلا بطريقة وحشية لم أسمع عنها من قبل..

ثم فوجئت بهم يرفعون عنى عصابة العين ويدخل رجل أنيق طلب منى الجلوس.. بعد أن عنفهم على هذه الطريقة فجلست فوق كرسي بدون ظهر.. ويقف خلفى رجلان



يحملان الشوم.. وبدأ يسألني عن شخصي واهتماماتي الشخصية وانتماي السياسي..

ولما لم أستجب شتمني بأمرى.. ولا أغالى حين أقول لك أن هذه الشتمة هي أكثر ما ألمني في هذه الرحلة.. ومن بعدها اقتادوني مرة أخرى بنفس الطريقة، حيث زنزانتي من جديد.. وهذه المرة أحسست براحة نفسية بدون أن أعرف السبب.. واسمح لي أن أقول إنه تتنابني حالة عصبية كلما أحكى هذه المواقف فاعذرني..

ثم مرة أخرى استدعيت للتحقيق من جديد وتعرضت لنفس التعذيب.. وبعد أسبوع آخر اكتشفت ولعلك سوف تضحك أن صراخ الطفل الذى حكيت لك عنه منذ لحظات كان مجرد اسطوانة مسجل عليها هذا الصوت وكان الغرض منه إرهاب المعتقلين.. وقد اكتشفت ذلك من تكرار إذاعة نفس الصوت وب نفس الطريقة وربما في أوقات مختلفة.. وكانوا يتعمدون إذاعة هذه الاسطوانة عند قدوم دفعة جديدة من المعتقلين..

ولعلى أذكر أنني قد قضيت في الحبس الانفرادى داخل هذه الزنزانة أربعة وثلاثين يوما.. دون أن يتم أى اتصال بيننا.. ولكن مع الأيام استطعت أن أعرف من هم جيراني من المعتقلين وعلى ما أذكر كان في الزنزانة الانفرادية التى أمامى.. الشاعر عبد الرحمن الأبنودى.. وعرفت بوجوده بالقرب منى عن طريق المخبرين الذين كانوا يتسامرون معه اعتقادا منهم أنه شاعر الأغنية المشهورة «على حسب وداد جلى» التى كان يغنيها عبد الحليم حافظ..

وقتها كان الأبنودى شاعرا مشهورا.. وكان نجما يحاول بعض المخبرين التقرب إليه.. واكتشفنا بعد ذلك أن تلك الحفاوة التى كانوا يعاملون بها الشاعر الأبنودى كانت تتم بناء على توجيهات شعراوى جمعة - وزير الداخلية - في ذلك الوقت.. والذى تم اعتقالنا بعد دخوله الوزارة بأربعة أيام تقريبا.. وقد سمعت منه هذه التعليمات.. حين جاء لتعزيتي في وفاة والدتي عام ١٩٨٣.. وقتها تغير الزمن.. وبعدها صرنا أصدقاء خلال فترة السبعينات وما بعدها..

وفي أثناء لقائى معه في سرادق العزاء سألتني.. هل اعتقالك ياجمال؟.. فأجبته بالقول: طبعاً.. اعتقلت رابع يوم دخولك وزارة الداخلية ياسيادة الوزير.. وكان هذا اللقاء فرصة طيبة كى يحكى لى كيف تم اعتقالنا.. وكان يركز في حديث لى على وجهة

نظره الأمنية فيما تم اتخاذه ضدّى وضد الآخرين من رجال الفكر الذين اعتقلوا معى أو قبلى..

أعود بك من جديد إلى حديث السجن.. فقد نقلونى مرة أخرى إلى سجن مزرعة طرة بعد هذه الأيام السوداء.. ولا أذكر لحظات فرح فى حياتى مثل لحظات خروجى من السجن الحربى إلى سجن طره.. وكأنما ولدت من جديد.. ودعنى أقول لك إن لحظات الفرّح فى حياتى تعد على الأصابع منها يوم حصولى على دبلوم الصناعة.. ويوم أن استلمت أول مرتب لى.. واليوم الثالث يوم انتقالى من سجن القلعة.. وعلى ما أذكر حين عودتى ولقاء الأصدقاء.. وأخذت أتحدث معهم ١٢ ساعة متواصلة وبلا توقف.. وكانت المشكلة لمن كانوا معى فى السجن الحربى وعادوا معى من جديد إلى سجن مزرعة طره.. هى من الذى له الحق فى أن يتحدث أولاً قبل الآخر..

وفى طره.. مكثت بالضبط خمسة أشهر وأربعة أيام.. وتم الإفراج عنى بعدها حين جاء إلى مصر الفيلسوف الفرنسى سارتر.. وتقريباً كان ذلك فى مارس عام ١٩٦٧.. ووقتها كان اعتقالنا له دوى خاص فى أوساط المثقفين فى أوروبا.. الأمر الذى جعل الفيلسوف سارتر يحمل معه إلى القاهرة طلباً خاصاً للرئيس عبد الناصر بضرورة الإفراج عنا.. وتمت الاستجابة لهذه الطلبات، حيث أفرج عنا.. وحين خرجت من المعتقل وجدت نفسى مفصولاً بقرار جمهورى من عبد الناصر شخصياً.. وكنت أيامها أعمل موظفاً كرسام سجاد فى أدنى درجات السلم الوظيفى، وقبل وجودى هنا فى أخبار اليوم فى مؤسسة التعاون الإنتاجى وفقاً لتخصصى كحاصل على دبلوم الصناعة تخصص السجاد..

المهم حينما ذهب والدى لاستلام مرتبى كالمعتاد.. أبلغوه بأننى أحلت إلى الاستيداع.. ومعنى ذلك أنه سوف أتسلم مرتبى لمدة ستة أشهر ثم أتسلم نصف المرتب لمدة ستة أشهر أخرى.. وقد شاهد والدى بنفسه توقيع جمال عبد الناصر الشخصى على قرار الإحالة الذى كانت تقول كلماته «يفصل جمال أحمد الغيطانى أخصائى السجاد بمؤسسة التعاون الإنتاجى ويحال إلى الاستيداع».

ولا تتصور كيف كان شعور والدى حين عرف بأننى قد فصلت بتوقيع عبد الناصر شخصياً.. فقد اعتقد أننى قد ارتكبت كارثة مثلاً.. ضبّطت فى شبكة تجسس أو اشتركت

في قلب نظام الحكم.. حاجة كدة تساوى توقيع الرئيس عبد الناصر الشخصى على قرار فصل موظف مثلى..

\*\*\*

**\* نريد أن نعرف.. ما هو تأثير تجربة السجن على جمال الغيطانى كأديب وصحفى ومفكر أولا.. وثانيا على الفكر المصرى بشكل عام؟.**

.. شوف.. أستطيع أن أقول لك إننى لأول مرة داخل السجن آخذ فرصة إجبارية للانفراد بالذات.. خاصة طوال الأيام الأربعة والثلاثين داخل الحبس الانفرادى.. لدرجة أننى اكتشفت نفسى معجبة بهذه الوحدة الإجبارية.. ولعلمك الزمن داخل الزنزانة الانفرادية يمر بأسرع مما تتصور لعدم وجود حركة.. إذن الزمن فى هذه الحالة قد تم إلغاؤه.. وفى داخل السجن قررت ألا يكون لى أى علاقة بأى حزب سياسى.. ثانيا: التفرد التام للكتابة والفكر.. أما ثالثا: فقد زادت مرارتى من النظام.. الأمر الذى جعلنى أعبر عن هذه الممارسة فى كل ما كتبت..

ولعل أذكر لك أننى عبرت عن هذه التجربة فى أكثر من كتاب.. على سبيل المثال قصة قصيرة اسمها المغول وهى موجودة فى المجموعة القصصية «أرض أرض».. وفيها تجربة من التاريخ ثم المجموعة القصصية «أحراش المدينة» وأيضا تجد جدوى هذه التجربة تقف وراء قناع من التاريخ فى رواية «الزينة بركات».. المهم أن قضية قهر الفكر هذه ظلت شغلى الشاغل فترة طويلة حتى بعد خروجى من السجن، وتمثل ذلك فى إحساسى بالمطاردة والخوف من المستقبل، وأيضا كان لها وقعها على نفسى حتى قبل دخولى السجن.. وعلى ما أذكر.. أنه فى عام ١٩٦٢.. وكنت وقتها دائم الحضور فى ندوة نجيب محفوظ التى كانت تعقد فى كازينو الأوبرا القديمة بميدان الأوبرا ناحية العتبة وتصادف أن دخل علينا وقتها أحد الضباط.. وظل يراقبنا طويلا.. وبعد نصف ساعة تقريبا.. طلب من الاستاذ نجيب أن يكتب له تقريراً عما كان يدور بيننا.

طبعاً رفض الاستاذ نجيب وأصر على إنهاء الندوة.. وعندما سألنا عن السبب عرفنا أن الرئيس عبد الناصر فى تلك الفترة كان ينوى زيارة منطقة الأزهر والعتبة ومطلوب من رجال الأمن كتابة تقارير أمنية عن هذه المناطق.. يعنى تقدر تقول إنه فى ذلك الوقت كان هناك جو ملائم لحدوث مثل هذه التجاوزات مع المفكرين ومع غيرهم.. والأغلبية

من المثقفين كانوا يعدون أنفسهم لمثل هذه المرحلة.. وقد صورت هذه الفترة في قصة بعنوان «أيام الرعب» ولكنك تستطيع أن تجد تعبيرات مباشرة لى عن هذه التجربة في كتابى «تجليات» بجانب ذلك توجد بكل رواياتى إشارات لهذه الفترة ولهذه التجربة..

### \* ولماذا يسجن المفكر يا أستاذ جمال؟..

- عندما يتناقض مع واقع النظام.. وعلى عكس ما يتصور البعض أن الفكر العربى منذ أزمان بعيدة دائم الصدام مع السلطة.. وتقدر تقول من أيام محنة الإمام أحمد بن حنبل الذى سجن بسبب اختلافه مع الخليفة فى مسألة رأى لاغير.. فكان عليه إما أن يقول مثل قول الخليفة.. أو يسجن.. وقد فضل الاختيار الثانى.. إنها مشكلة موجودة ولا تزال سمة من سمات الثقافة العربية فإن الحاكم عادة ما يحاول أن يفرض رأيه ونظامه أولا باللين.. والمراوغة.. وأخيرا بالقهر والعنف..

والمثقف بطبيعة تكوينه قلق ولذلك تجد دائما بينه وبين الواقع خلاف.. وفى رأينا أنه إذا انتهى هذا الخلاف فى داخل المفكر.. يكون مصيره فى طريقه إلى النهاية.. فى عالم المفكرين.. وفى حالة ما إذا أصبح المفكر مع أفكار السلطة على اقتناع حقيقى ودون تزييف أو منافقة، فإنه يصبح جزءا من النظام.. وبيتعد كلية عن طريقه أن يكون مفكرا إلى الأحسن.. أو تقدر تقول إنه أصبح مفكرا موقوفا.. أما إذا أيد السلطة والحاكم عن عدم قناعة.. فهو فى هذه الحالة يتحول إلى نصاب ومهرج.. إن المشكلة الآن فى العالم العربى كله.. هو كيف يحافظ المفكر على استقلاليته.. والمشكلة أيضا هو كيف يفهم النظام فى هذه الدولة أن المفكر إذا اختلف معه فهو ليس ضده وأن أفكاره لصالح بقية الناس.. وال جماهير.. فكيف مثلا تقبض على كاتب قصة.. وتسجنه لمجرد أنه قد كتب كلمات ضد هذا النظام أو ذاك.. ليس هذا فقط.. بل تصل فى كثير من الأحيان إلى تعذيبه وإهانته.. فى إنسانيته وشخصه.. ودعى أذكر لك واقعة مرتبطة بعالمنا الثقافى.. إننى رغم عدم معرفتى حتى هذه اللحظة بملايسات إعدام المفكر الإسلامى سيد قطب، إلا أننى على يقين أن الحوار معه كان سيكون أفيد وأعظم لمصر وللنظام من إعدامه.. لأن ارتكاب النظام لمثل هذه الواقعة قد فرخ الآلاف من سيد قطب، وأظن الساحة السياسية المصرية تشهد بذلك الآن..

\* نعود نسأل الأستاذ جمال الغيطانى.. عن عدد الكتب التى كتبها سواء فى مجال الرواية أو فى غيرها داخل السجن أو تأثرا بهذه التجربة رغم أننا عرفنا بعضها أثناء الحوار؟..

— طبعا ظهرت تجربة السجن بشكل غير مباشر في قصص قصيرة مثل «الزيني بركات» وكتاب «التجليات» وفي مجموعة «وقائع حارة الزعفراني»، وإن كانت في كتاب التجليات تقترب من الواقع قليلا.. أما تجربتي داخل المعتقل لم أكتبها حتى الآن.. وفي داخل المعتقل نفسه لم أتمكن من كتابة أى عمل أدبي.. وذلك لأسباب وكما تعرف منها عدم استطاعة الإنسان التعامل مع الورق والقلم، ومع ذلك فقد تمكنت من كتابة قصة صغيرة علي ورق «البفرة» ورق لف السجائر زمان.. وقرأتها في إحدى الأمسيات التي كنا نعدها يوميا داخل السجن.. ثم نشرتها بعد ذلك.. وكان اسمها «أحراش المدينة».. والغريب أننى كنت مشغولا بفكرة السجن قبل دخوله وقد بدا ذلك واضحا عندما كتبت قصة بعنوان «القلعة» عام ١٩٦٣.. وقصة أخرى نشرت عام ١٩٦٥ بعنوان «رسالة فتاة من الشمال»..

**\* وهل كانت تجربة السجن بالنسبة لك.. فترة تعتبرها سوداء أم كانت نقطة انطلاق نحو عالم أوسع داخل مجال الفكر والرأى؟..**

— في بدايتها كانت فترة سوداء.. ولكنها فيما بعد تحولت إلى دفاع حقيقى نحو الاستمرار داخل عالم الفكر والرأى والأدب.. أننى أعتبرها بحق نقطة تحول.. بعد ما اكتسبت خبرة من واقع التجربة.. وربما يرجع سوادها في بداية التجربة إلى افتقارى لعامل الخبرة والخوف والفرع.. ولكنك حين تندمج في الحياة الجديدة وتخلو لنفسك كثيرا تتحول إلى إنسان آخر.. يفكر بعمق ويقرر أيضا بعمق وروية.. وانتصارك على نفسك في هذه الظروف يكون إحساسك بقيمتك وكيانك.. وبالتالي تقرر أن تواصل المسير نحو هذا العالم بثقة أكبر..

وأعود وأقول لك إننى أعتبر فقط.. فترة التحقيق معى في داخل السجن الحربى هى النقطة السوداء التى لا أحب أن أعود إلى ذكرها لأنه قد صاحبته، وكما ذكرت لك، ألوان من التعذيب لى ولغبرى من المثقفين.. أما في أيام السجن الأخرى فقد كانت خلوة إجبارية تم خلالها عقد صفقة رابحة بينى وبين نفسى، حيث اتخذت مجموعة من القرارات وحددت لحياتى أساليب جديدة.. مازلت أسير عليها حتى الآن.. ومن أبرز هذه القرارات اعتبار الأدب الاهتمام الأول والأخير لنفسى.. وإنه لاشئ يعادل تأثير الأدب بالنسبة للأديب إلا مواقفه المعلنة التى تكمل مسيرة حياته.. وبشكل عام كانت فترة السجن تحديا حقيقيا لنفسى.. ولقدراتى.. وإننى حينما أوضع في مثل هذه المواقف

أكسب لقدرتي على تحمل المنافسة والتحديات لذلك كانت فترة خصبة في حياتي..  
واعترف لك أن أكثر الأعمال الأدبية الجميلة التي كتبتها بعد خروجي من السجن  
مباشرة تأثرا بهذه التجربة لإيماني أن الشيء الصعب يمكن تحويله إلى دافع له أهمية  
يمكن أن يستفيد منه الإنسان بشرط توافر المقدرة لدى هذا الإنسان..  
**\* لوقلت لك.. مارأيك في سجون مصر الآن.. وهل توابك تطور الجريمة في  
مصر الآن؟..**

- السجون في مصر الآن هي وريثة عصور مظلمة في التاريخ.. أيام العصر العثماني  
والملوكي.. وكل ما أتمناه الآن أن تتحول السجون إلى معسكرات عمل للإنتاج..  
فتصور لو كل هذا الجيش الكبير أو الطابور الطويل من المسجونين قد توجه إلى  
الصحراء.. لاستصلاحها.. طبعاً النتيجة معروفة والفائدة كبيرة.. في مثل هذه المناطق  
يتم إنشاء وتكوين معسكرات عمل تضم هذه الطاقات المعطلة.. ولا أمل أبداً لتحويل  
السجون في مصر إلى سجون فندقية كما يحدث الآن في أوروبا.. في هذه الحالة تخرج  
عن وظيفتها كوسيلة من وسائل العقاب والردع.. وبشكل عام فإن عالم السجون لدينا  
عالم رهيب ومخيف.. وبالنسبة لنا.. كان لدينا في المعتقل بعض التقاليد ومراعاة بعض  
الظروف الإنسانية.. ولكن ما كنا نسمعه عما يقاسيه المساجين الآخرين شيء  
لا يصدق عقل..

وفي داخل هذا المجتمع تنتشر الجرائم والردائل.. وبالتالي يتحول السجن في مثل هذه  
الظروف إلى بوتقة لتفريخ مجرمين آخرين.. إذن فالسجن هنا لا يؤدي دوره كوسيلة  
للإصلاح والتهديب.. بل يساعد على المزيد من الجرائم.. أما فيما يتعلق بخصوصية  
تبعية السجون.. فأنا أفضل أن تكون تابعة لوزارة العدل وليس لوزارة الداخلية.. حتى  
يكون للوزارة حق التفتيش الدائم.. لأن السجين بعد الحكم عليه يتحول إلى وديعة في يد  
الدولة مسئولة عنه حتى يخرج.. وكذلك مصلحة السجون.. لا بد أن تكون تابعة إدارياً  
لوزارة الداخلية أما تفتيشاً وإشرافاً فلا بد أن تتبع وزارة العدل..  
**\* ولو كان جمال الغيطاني مأموراً لأحد السجون الموجود بداخلها مفكرين..  
ماذا كان يفعل؟..**

- في الواقع أنا أذكر أنه كان يوجد في المعتقل في فترة وجودي أحد الضباط اتصف  
بالإنسانية.. وعلى أية حال.. فإن مأمور السجن في كل الحالات ما هو إلا رجل منفذ

للتعليمات.. وأقدر أقول لك من خلال تجربتي إننى قد تعرضت لنوعين من السجن..  
سجن التحقيق وسجن الاعتقال.. الأول تديره المباحث العامة.. والآخر يديره أحد  
ضباط مصلحة السجون واسمه فتحى.. هذا الرجل كان على علاقة طيبة جدا بالمفكرين  
وكان صديقا للجميع كما كان يعرفنا جميعا.. ويدخل علينا الزنازين فى أى وقت.. وكان  
يتصدى لحل أية مشكلة تواجهنا..

أما فى حالة وجودى كمسئول عن السجن.. سوف أحاول إنسانيا أن أقرب من عدد  
أكبر من هؤلاء المسجونين المفكرين.. وأحاول التقرب منهم مع التزامى الكامل  
بالتعليمات والأوامر.. ويكون تعاملى مع المساجين فى حدود هذه التعليمات وكذلك فى  
التطبيق.. لأننا اكتشفنا فى كثير من الحالات أن هناك تجاوزات عديدة تصدر من بعض  
الضباط والبعض الآخر كان ينفذ التعليمات وهو مجبر عليها.. وأحب أن أقول لك إننى  
لم أتخيل نفسى ولو فى الأحلام ضابط سجون.. حتى ولو فى أعمال الروائية..  
\* **ولو كنت رئيسا للحكومة أو وزيرا للداخلية.. وعرض عليك كشف بأسماء  
معتقلين مفكرين.. ماذا كنت تفعل؟..**

— بصراحة.. أسعى للحوار معهم أولا.. وبالعكس بدلا من أن أصدر أوامرى  
بالقبض عليهم أو اعتقالهم.. لأننى على يقين أن من يسجن مفكرا أو أدبيا لا يستحق أن  
اسميه.. ومع ذلك لا بد أن تعرف أنه ليس هناك أدبيا أو مفكرا فوق القانون.. المهم أن  
تحاكمه أولا.. وإذا تمت إدانته يقبض عليه فورا وينفذ فيه العقوبة.. وهذه تتدرج تحت  
حالات الإدانة والتحقيق التى يتعرض لها أى إنسان فى المجتمع.. ولكن إذا كانت التهمة  
فكرا معارضا فلا ألجأ مطلقا إلى عقوبة الاعتقال أو السجن.. بل أسعى إلى مجادلته  
وحواره.. وبالعكس فإن الآراء المعارضة عادة ما تؤدى إلى فائدة كبيرة للمجتمع..  
وأضيف أننى إذا كنت رئيسا للحكومة ومقتنعا بالآراء المعارضة أسعى للحوار معها..  
فمن المؤكد سوف أختار وزيرا للداخلية يتميز هو الآخر بنفس الصفة بجانب صفاته  
الأمنية الأخرى.. ولكن للأسف هذا لا يتم عادة فى دول العالم الثالث.. لأن كل رئيس  
حكومة همه الأول إرضاء الحاكم فقط..





## الحكاية السابعة يرويها صلاح عيسى:

### حكايتي مع السجن بدأت في عهد عبد الناصر!!

لم أجد كلمات تعبر عن محنة السجن بالنسبة للمفكر، فيها الصدق والمعاناة.. والألم والقوة.. سوى ما كتبه الزميل الصحفي صلاح عيسى من كلمات كان ينشرها هنا وهناك بين الحين والآخر.. هذه حقيقة نقلتها بإخلاص ولا أعرف السبب.. فقد حرصت أثناء إجراء هذه الحوارات على قراءة أكبر عدد من الكتب التي طرحها هؤلاء المفكرين.. سواء قبل أن أسجل معهم أو بعد التسجيل.. ورأيت في بعض كلماتهم التي سطوروها في هذه الكتب مدخلا دفعني بقوة نحو المضي قدما نحو عالم السجن وتأثيره على المفكر وحياته وتكوينه..

وكثيرا ما كنت أمر على ما كتبوه بسرعة دون أن أتأثر أو يصيبني الغم والهم.. إلا صلاح عيسى.. لقد ظلت كلماته التي قرأتها عن تجربته في السجن واقفة فوق صدري ليال طويلة.. وكثيرا ما حاولت الهرب من تأثيرها.. وسرعان ما يهاجمني هذا التأثير كلما أعاود الكتابة عن هذه التجربة من واقع حوارى معه مثل غيره من المفكرين المصريين الذين كانوا ضيوفاً عبر هذه الصفحات.. وكنت أفكر في أن أنقل إليكم بعض هذه العبارات والكلمات، ولكنني تراجعت في الوقت المناسب.. وعقدت العزم على أن أكتفى فقط بما قاله لى وما سوف أنقله إليكم عبر هذه الصفحات من واقع شريط التسجيل ولكنني ربما أضطر إلى الاستعانة ببعض كلماته وسط الحوار.. كى أنقل صورة صادقة لمعاناة المفكر وأحواله داخل الزنزانة.. تعجبا على تلك الأوضاع السياسية التي تسمح لمن يقتربون منها بأن يتم وضعهم في السجن بلا محاكمة مع اقتناعهم الكامل بأن المفكر هو أئمن رجل في المجتمع.. وبه وبأفكاره يتم إنارة عقول الجماهير.. ولكنها الأزمنة الغابرة التي ترفض وتفرض على الإنسان والمجتمع أوضاعاً يكرهاها.. وإن قبلها فهو القهر بعينه..

وبصرف النظر عن شخصية الحاكم أو فترة الحكم.. فإن الحديث يتناول قضية تأثير السجن على الفكر المصرى ولماذا يلجأ رجال السلطة عادة إلى السجن كعقوبة لأصحاب الفكر والرأى..

\*\*\*\*\*

قبل كلمات هذه المقدمة بثوان كنت أفكر فى استخدام عنصر الزمن كمدخل لحديث هذا الحوار.. ولكننى اكتشفت فى اللحظة المناسبة أننى قد استخدمته من قبل.. ومن ثم كان علينا أن نبحث عن طريق غيره.. وقد كان.. لقد وجدت فى كلمات صلاح عيسى التى كتبها فى أحد كتبه تحت عنوان «تباريح جريح» خير مقدمة.. توجع القلب والعقل.. وتجعلك تخاف من الفكر حياة المفكرين.. ولكنها ضريبة الذين يحملون مشاعل الفكر.. ويحملون بواقع حياة جديدة.. ويتوقعون أيضا حياة النوم فوق الأسفلت وأكل الفول أبو زلط.. مع أنه من العدل أن يعيشوا وفقا لفكرهم ويستفاد بأرائهم مهما اختلفنا معهم.. فإن الخلاف فى الرأى ليس معناه عقوبة السجن والاعتقال..

بقيت لنا كلمة قبل أن ندير الشريط كى نستمتع جميعا لتفاصيل الحوار، إننى لا أبغي من وراء هذا المجهود المضنى سوى تسجيل كلمة حق لله وللتاريخ عن واقع فترة زمنية مرت بها بلدنا الحبيبة مصر.. بصرف النظر عن الاختلاف أو الاتفاق فى الرأى أو المذهب السياسى أو العقائدى.. لأن الفكر لا يفرق بين هذا وذاك مادام الطريق الوحيد هو الكلمة.. ولا شئ غيرها..

والآن حان الوقت كى ندير الشريط ونسمع الأستاذ صلاح عيسى يتكلم وأنا من بعد التسجيل معه أنقل لكم تفاصيل الحوار عبر هذه الأوراق..

\*\*\*

**\* نريد أن نعرف من الأستاذ صلاح عيسى.. كم مرة دخل فيها السجن أو المعتقل أو التحفظ باعتبار أنها ألفاظ لمسمى واحد؟..**

— أنا اعتقلت فى أول مرة فى ٤ أكتوبر عام ١٩٦٦ والسبب ثلاث مقالات نشرتها فى إحدى صحف بيروت وتسمى «ملحمة الحرية».. والمقالات كانت بعنوان «الثورة بين المصير والمسیر».. وقد اعتبرها القائلون على ثورة يوليو أنذاك أنها نقد حاد للثورة وقائدها.. هذه المقالات نشرت من يوليو إلى سبتمبر.. وبمجرد الانتهاء من نشرها اعتقلت.. وكنت ضمن عدد كبير من الصحفيين والكتاب والمفكرين المصريين.. مثل سيد

حجاب وجمال الغيطاني وعبد الرحمن الأبنودي وآخرين..

ورغم أن هذا الاعتقال كان قصير المدة فقد استغرق ستة أشهر، إلا أنه كان كثيف التعذيب في فترته الأولى.. وأفرج عنا في مارس عام ١٩٦٧ ثم أعيد اعتقالنا في مارس ١٩٦٨.. والسبب الاتهام بالمشاركة في مظاهرات الطلبة التي اشتعلت آنذاك من ١٧ إلى ٢١ فبراير عام ١٩٦٨.. وهذا الاعتقال كان أطول من سابقه.. فقد مكثت ثلاث سنوات بالمعتقل وخرجت عام ١٩٧١.. أما المرة الثالثة.. فقد كانت من عام ١٩٧٥ واستمرت كذلك عدة أشهر وفيها قدمت للنيابة من الناحية الظاهرية فقط.. أما في جوهريها فكانت أيضا اعتقال.. ومن عام ١٩٧١ حتى هذه الفترة لم أسلم من المضايقات والتحقيقات وبدا الاعتقال في صورة أخرى مثل الرصد من الوظيفة عام ١٩٧٣..

في هذه المرة الأخيرة التي ذكرت لك فيها أنني مكثت أربعة أشهر تم الإفراج عني فيما يسمى قانونا على ذمة القضية التي لم تتم حتى الآن.. وفي المرة الرابعة عام ١٩٧١ طلبت في التحقيق بمناسبة أحداث ١٨ و ١٩ يناير ولكنني نجحت في الهرب هذه المرة لمدة عشرة أشهر.. فقد جاءوني فعلا من أجل اعتقالي مثل كل مرة.. وفور معرفتهم بي نجحت في الإفلات والهرب إلى أن قبض على في أكتوبر أو سبتمبر من نفس العام، وقدمت للمحاكمة على ذمة القضية بعد أن مكثت أربعة أشهر داخل السجن.. وكنت من بين الذين برأتهم المحكمة في هذه القضية..

أيضا في عام ١٩٧٩ قدمت للمدعى الاشتراكي للتحقيق معي، ولم يصاحب هذا التحقيق دخول السجن.. وفي يناير عام ١٩٨١ ألقوا القبض على عندما وزعنا بياناً في معرض الكتاب الذي عقد آنذاك نطالب فيه بمقاطعة الجناح الإسرائيلي في المعرض.. واعتقال هذه المرة لم يستمر طويلا.. لأنه قد أحدث ضجة في حينها.. وعلى ما أذكر استمر ثلاثة أسابيع.. وتم بعدها الإفراج عني على ذمة القضية.. ولتصفية حساب هذه الفترة تم اعتقالنا أيضاً لآخر مرة في سبتمبر عام ١٩٨١.. وتم الإفراج عني بعد وفاة الرئيس السادات.. وكنت ربما آخر دفعات هذا الإفراج..

**\* يعني نقدر نقول كم مرة يا أستاذ صلاح؟**

- الحقيقة أنا لم أعدها، ولكن تقدر تقول.. ست مرات حتى الآن والحمد لله.. لم يمسننا شيء في عهد الرئيس مبارك.. ولا أظن أنه سيحدث إن شاء الله..  
**\* في تصور الأستاذ صلاح عيسى.. ما هو سبب كل هذه الاعتقالات؟..**

- طبعاً السبب الأساسى هو في معظمه يتعلق بالفكر والموقف السياسى.. وأيضاً بالصحافة كتمارسه.. يعنى المرة الأولى كانت بسبب مقالات نقدية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر.. وكنت أطالب من خلالها بمساحة أكبر مما كان متوفراً للحرية والديموقراطية.. وقد اعتبرها عبد الناصر كما نقل لى بعد ذلك خروجاً على نظام الثورة.. وعارف السبب يرجع إلى تفتح وعيى السياسى قبل الثورة وارتباطه بديمقراطية حزب الوفد.. لقد كانت قبضة الديمقراطية تأثراً بالجو الذى كان سائداً قبل الثورة.. هى شغلى الشاغل..

وعلى فكرة فى المرة الأولى أنا لم أعتقل فقط، بل فصلت، فقد كنت موظفاً وأكتب فى الصحف المصرية والعربية.. وجاء هذا الإجراء بناءً على مذكرة كتبها السيد على صبرى نائب رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت.. وقدمها إلى الرئيس عبد الناصر الذى وقع عليها بالتنفيذ للاعتقال والفصل..

برضه فى المرات التالية.. كانت بسبب موقفى من الديمقراطية فمثلاً فى عام ١٩٦٨.. كانت أول مظاهرات تقوم بعد الثورة ويتقدمها شباب الجامعات.. وفى عام ١٩٧٥ كانت التهمة الموجهة إلى أننى كنت أذهب إلى الجامعة.. وألقى محاضرات.. وأنا دى بالديموقراطية والتعددية الحزبية وفى عام ١٩٧٧.. كذلك ارتبطت بقضية الديمقراطية رغم ارتباطها بانتفاضة الطعام.. وكانت التهمة أننى من خلال الكتابة والمحاضرات كنت أهىء الجماهير وأثيرهم من أجل هذه الانتفاضة.. وفى وقتها حدث بينى وبين رجال النيابة مناقشات على جانب كبير من الأهمية.. لأننى اكتشفت أن ما أقوله فى المحاضرات وما أكتبه وينقل عنى.. كله فيه تحريف.. من هنا تستطيع أن تقول إن السبب يرجع إلى السعى الدائم من أجل قضية الديمقراطية رغم أننى كنت ومازلت اشتريكاً.. ولكن الديمقراطية فى تصورى هى جزء من الاشتراكية.

**\* ما هو تأثير تجربة السجن على فكر صلاح عيسى أولاً.. ثم على الفكر المصرى آنذاك؟..**

- هو طبعاً تجربة السجن.. من التجارب التى لا يمكن أن يمر بها إنسان وخاصة لأسباب فكرية وسياسية دون أن تترك تأثيرات أساسية فى حياته.. سلبية أو إيجابية حسب طريقة الإنسان فى التفاعل مع التجربة وحسب الظروف السياسية التى تعتقل خلالها.. الحبس مثلاً فى عهد عبد الناصر.. كان سببه معارضته شخصياً.. لأن المعارضة

في أيامه لم تكن مقبولة.. وربما كان يرجع ذلك إلى قوة شخصيته التي جعلت إحساسك بالمعارضة أمامه لا تساوى شىء.. وأيضا إحساسك بأنك ريشة تقاوم تيارا قويا لدولة تملك كل شىء.. ورجل يحكم بمفرده..

وعلى سبيل المثال.. كنت أعمل موظفا في الدولة التي يحكمها عبد الناصر.. وبعد دخولي السجن وخروجه منه.. فصلت من العمل، وحاولت البحث عن عمل في مكان آخر ولم تفلح محاولاتي، لأن الدولة في ذلك الوقت كانت تملك كل شىء حتى مقادير وأرزاق الناس.. فالشركات ملك الدولة.. والحكومة ملك الدولة.. وكل شىء.. مما جعلني أعتبر هذا الرغد نوعاً من الإعدام البطيء.. لأنني كنت موظفاً حكومياً خريج جامعة.. وأعمل أخصائياً اجتماعياً.. ولو كان في يدي مهنة أخرى لكنت مارستها.. ولكنني خلقت هكذا موظف وكاتب ومفكر.. لقد كانت تجربة قاسية هزت داخلي بعنف.. ومع ذلك أقدر أقول لك إنها أعطتني في الوقت نفسه نوعاً من التفاؤل الداخلي.. يعنى كل شىء لا يدوم وأن الأمور في أصلها مصيرها الزوال، وبالتالي ولدت عندي قوة دفع إلى الأمام.. يمكن ذلك لم يظهر لي في أول مرة، فحين خرجت آنذاك أمشى بجوار الحائط تجنباً للإهانة التي ذقت مرارتها في أيام السجن داخل الزنزانة.. لأنني قد تربيت في أسرة عودتني على احترام الذات وكره الإهانة.. وبالتالي تولدت بداخلي ما يمكن أن تسميه كرامة الطبقة الوسطى.. ولكن بشكل مبالغ فيه بالنسبة لي شخصياً..

وفي الاعتقال الثاني.. حاول السيد خالد محيي الدين ونايف حواتمه التوسط لدى عبد الناصر للإفراج عني.. ولكنهما أرسلاني رسولا يحمل لي كلمات عبد الناصر الذي نقل لهما أنه لن يفرج عن صلاح عيسى مادام هو على قيد الحياة.. ولم يقصدني وحدي بل كنا ثلاثة معتقلين أنا والشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم.. فلا يمكن أن تتصور أنك سوف تخرج إلى الحياة بعد هذا التهديد.. ولم تكن بالتالي نتصور أنه سوف يموت وهو في عز قوته.. وبجانب أنني رغم هذا التهديد لم أكن أحسب أن يموت عبد الناصر..

بصرف النظر عما أنا لاقيته وزملائي من المفكرين على يد رجاله.. وكذلك تفاجأ بقدوم عام ١٩٧٠ وأن عبد الناصر مات.. وأنك خرجت من المعتقل بعد وفاته.. وكأنما تحققت كلماته.. فعلا لم نخرج إلا بعد أن مات.. فقد خرجت في فبراير بعد أربعة أشهر من وفاته حيث مات في سبتمبر عام ١٩٧٠.. حين قرر الرئيس السادات تصفية

المعتقلات، يعنى تقدر تقول حياتى منذ الاعتقال الأول كانت بين الافراج والاعتقال والرفد والصلعكة فى الشوارع.. رغم أننى أنتمى إلى أسرة مستورة إلا أن اتجاهى السياسى لم يكن يروق لها.. أضف إلى ذلك أن بعض أفراد أسرتى أغلبهم يعمل فى الحكومة فى مناصب حساسة مثل البوليس.. الأمر الذى جعل أغلبيتهم يتنكر لى، خوفا على مناصبهم..

من هنا أخذت اختياري على عاتقي وبمفردى.. واتخذت من عقوبة السجن وسيلة دفع إلى الأمام حيث الاستمرار فى العمل السياسى والفكر والكتابة والتمسك بحرية الرأى والدفاع عنها.. وفي كل مرة أخرج فيها أجد الحياة بالنسبة لى تبدأ من جديد.. مثلاً تجد عملاً جديداً أو مصدر رزق جديد وهكذا.. لقد كان ذلك أحد التفاعلات الإيجابية الهامة لتجربة السجن.. من حيث أنها عودتنى على الصبر وحسن الاختيار والانطلاق إلى الأمام بلا رجعة إلى الخلف.. ولذلك تجدنى ووفقاً لهذه التفاعلات لم أراجع اختياراتى كثيراً.. ورغم كراهيتى الشديدة لعقوبة السجن إلا أننى بعد المرة الأولى لم أعد أخاف منها.. ولم أخف من تكرارها فى حياتى مرة أخرى.. وأبدأ فى ممارسة طقوس هذه الفترة العقابية.

مثلاً تجدنى أظل نائماً فى زنزانتى أكثر من أسبوعين متواصلين لأننى بالفعل لم أكن أنام خارجها بالقدر الكافى، ربما بسبب التكالب على الرزق.. ومن جانب آخر لاعتقائى الشديد أنك يجب ألا تفكر فى أمر الخروج.. لأنك وحسب تجاربى فى هذا الميدان.. لا بد وأن تعيش خلف هذه الجدران أكثر من أربعة أشهر.. ثم تبدأ فى التفكير فى عملية الخروج أو الإفراج.

إن السجن بشكل عام له تأثير مهم وخطير على المفكر المصرى بشكل عام.. وأذكر لك مثلاً المفكر المصرى سلامة موسى.. فى كتابه «تربية سلامة موسى».. الذى سجل فيه تجربته داخل السجن.. حيث وجد نفسه بعد أربعين عاماً من الكتابة والتفكير والعمل العام.. وسط الحرامية والنشالين والقتلة.. بدلاً من التكريم.. وقد قبض عليه أيام صدقى باشا.. إن هذه التجربة تخلق لدى الإنسان نوعاً من المرارة.. وعائز أقول لك إن السجن فعلاً قرين التفكير فى بلاد تسود فيها الدكتاتورية.. ولا تقبل الخلاف فى الرأى وتضيق بأصحابه، وتجد أن السجن هى المكان الطبيعى لهم.. ولكن من الناحية العملية تجد أن السجن فرصة للتأمل مفروضة عليك بالقوة.. وخاصة فيما يسمى

بالحبس الانفرادى الذى حرمته منظمات حقوق الإنسان.. وكثيرا ماكننا نفكر ونتساءل  
عمن هو الشرير الذى ابتدع فكرة السجن الانفرادى.  
لقد كانت مسألة صعبة جدا.. أن تأتى برجل وتضعه بين أربعة جدران وتتركه أياماً  
أو شهراً دون أن تعذبه.. فذلك الموت بعينه ومقاومة هذا العذاب يتوقف على ثرائك  
الداخلى.. بحيث تحاول أن تستثمر هذا السجن وهذا العذاب المتمثل فى الوحدة.. فى إبداع  
فكرة.. أو تصور واقع.. أو تخطيط لحياة جديدة.. ويأتى ذلك كله من تركيز حياتك فى  
التأمل.. وهذا فى تصورى هو الطريق الذى يمكن أن يسلكه الكاتب والمفكر فى كسر سم  
هذه الفترة.

**\* وإذا خصصنا هذا السؤال وقلنا.. لماذا يسجن المفكر فى مصر أو فى دول العالم  
الثالث على وجه العموم؟**

– هو طبعا.. الانظمة عموما فى دول العالم الثالث وفى مصر فى فترة من الفترات قد  
قامت على فكرة أن الحاكم لايقبل الخلاف فى رأى، وأن الخلاف بالنسبة له يعتبر  
تطاولاً عليه شخصياً وانتقاصاً مما قد يؤديه فى وطنه.. وقد يكون يؤدى فعلا لوطنه  
خدمات.. ولكن المسألة بالنسبة للمفكر هو حالة الاعتراض المستمرة والشاملة التى  
ربما تكون للكون كله، وفى هذه الحالة لايجد الحاكم الدكتاتور أمامه من وسيلة  
لإسكات صوت المفكر إلا السجن والاعتقال.. وبالنسبة لمصر كان هناك فى العهد  
الناصرى خطة عن قناعة تبلورت فى ضرورة تصفية العناصر المعارضة أو المضادة  
للثورة، ودمج كل التيارات المختلفة فى تيار واحد يقف خلف الثورة.. والذى كان يخرج  
عن هذا التيار كان لابد من أن يتعرض لعملية بلورة داخل السجون والمعتقلات حتى  
يخرج كى يؤيد ويقف أمام النظام بدلا من الوقوف خلفه أو ضده، وذلك من جراء  
مايلاقه فى هذه المعتقلات من معاملة غير إنسانية وعادة ما يصاحبها نوع من التعذيب  
والتغريب والمهانة.

وحتى عندما تخرج من السجن تبدأ المرحلة الثانية من هذه البلورة والتى تتمثل  
كثيرا فى عرض المناصب والإغراء المادى وأشياء كثيرة من هذا القبيل.. والنتيجة تكون  
كما يتوقع رجال الثورة.. يصبح المعارض رجلا مبسترا.. قابلاً لأن يقف معهم بكل  
كيانه ويفقد بذلك فكره و رأيه ويحضرني فى ذلك مثال سمعته فى جلسة خاصة.. كان  
يحكيه المتحدث كمثال لما يجرى فى أحد الانظمة العربية.. قال إن ٩٠٪ من شعوب العالم

الثالث تقبل العيش حتى على الكفاف.. والحاكم الدكتاتورى الشاطر هو الذى يستطيع أن يمد هذه النسبة بما يكفيهم من الطعام والشراب، وهناك ٧٪ من هذه الشعوب لاهم لهم سوى جمع الأموال والسرقة، وهؤلاء أمر معالجتهم ميسور.. أما نسبة الـ ٣٪ الباقية فهى تمثل أصحاب الرأى والفكر.. وعادة ما يحاول الحاكم القضاء عليهم بالتصفية والقتل حتى يأمن شرهم.. ويتمكن من الاستمرار فى حكمه فترة أطول.. لأنه يعرف مقدما أنه سوف يفشل فى التفاهم معهم بالطرق العادية المرتبطة بالبطون والجيوب.. وأن القضاء عليهم بهذه الصورة سوف يجنبه شرهم الذى يمكن أن يمتد لبقية النسبة من السكان.

**\* وماهى الطريقة المثلى فى رأيك لمعالجة الرأى الآخر.. بعيدا عن شبح السجن..؟**

– أن تسود حقوق الإنسان فى أن يعارض ويقول مايشاء ويكتب مايشاء.. ولا بد من الاعتراف بها.. وتنظيم الوسائل التى بها تسود هذه الحريات.. عندئذ فإن حجم المخاوف المصاحبة لسيادة هذه الحريات.. حين الممارسة سوف تقل.. أو تنعدم.. والمهم هو الاعتراف بحرية الرأى والرأى الآخر وفقا للشريعة والقانون والأخذ بهذا الرأى مهما كان معارضا مادام يقدم الحلول.. وعلى ذلك لا بد من أن نتوقف عن الاعتقاد بأن الحاكم مقدس ولا يجب نقده.

**\* نريد أن نعرف بالضبط.. ماهى الشخصيات السياسية والشخصيات العامة التى تعرفتم بها داخل السجن؟ وماهى أهم المواقف الطريفة والمواقف المحزنة التى واجهتكم؟..**

– ياه.. كثير قوى.. وفى كل مرة من مرات السجن أتعرف على الكثير ويمكن أعرفهم قبل الدخول إلى المعتقل بحكم انتمائى السياسى إلى اليسار المصرى الذى كان فى فترة من الفترات أكثر الجهات السياسية تعرضا للاعتقال.. ولكن فى آخر مرة من مرات الاعتقال عام ١٩٨١ شاهدت داخل المعتقل نوعيات مختلفة من المفكرين والسياسيين المصريين على اختلاف انتماءاتهم الحزبية والفكرية.. وأنا أذكر فى اليوم الأول لانتقالنا من سجن الاستقبال إلى السجن الملحق بطره.. وقفت فى زنزانتي أتابع طابورا من رجال الحرس القديم يتوافدون إلى الزنازين المجاورة.. رجال تجاوزوا الستين أو اقتربوا منها.. تقلبت عليهم العهود والأزمان.. وقد استغرقنى مشهد المرحوم



عبدالعزیز الشوریجی نقیب المحامین الأسبق.. وكانوا قد اعتقلوه من فراش المرض وهو یصعد السلم بأعوامه السبعین.. بخطوات بطیئة واهنة وحوله عبدالعزیز محمد وأحمد ناصر یحاولان مساعدته فیرفض بإباء..

وحین استقرت الأوضاع وجدت نفسی فی زنازاة واحدة وكانت رقم (١٤) مع محمد عبدالسلام الزیات وفؤاد سراج الدین وقد قاوما بشدة ونبل حقیقی تطوعی بأن أقوم عنهما ببعض الأعمال البسیطة فی زنازاتنا المشتركة بحکم سنی الصغیرة، لكنهما اضطرا للرضوخ، ولأن الزنازاة كانت الوحيدة التی لا إضاءة بها، فقد أمضینا اللیلای الأولى نستمع إلى ذکریات فؤاد سراج الدین، بینما بقية الزملاء یقضونها فی سمر.. ویوما بعد یوم كانت آلامی النفسیة تزدید وشوقی لأبی یملاً القلب وخوفی أن یموت فتحول الأسوار بینی وبین أن أقبل جبینة.

هذه الآلام كنت أصرفها عادة فی تأمل مناضلی الحرس القدیم وهم یتجولون فی فسحة الضحی أمام زنازاتی.. ومنهم كان فتحی رضوان الله یرحمه وفؤاد مرسى وإسماعیل صبری عبدالله وإبراهیم طلعت وآخرون.

ومن الشخصیات المهمة التی اقتربت منها كذلك فی هذه الفترة عبدالسلام الزیات الذی كان یتمیز بأنه قلیل الکلام، وبدا لی فی أوقات کثیرة كأنه رجل داخل نفسه.. وكان یوم ١٧ سبتمبر عام ١٩٨١ واحدا من آیام الحزن العظیم بالنسبة لعلاقتی بهذا الرجل.. فقد جاء الطبییب والمأمور کى یطلبا من الزیات أن یجمع حاجیاتة لینقل فورا إلى المستشفی، فالسجن غیر مسئول عن حیاتة لأن حالته الصحیة حساسة للغاية ورفض الزیات بعناد أن یدخل مستشفی السجن.. وبعد عدة اتصالات وافق المسئولون على نقله إلى أحد المستشفیات الجامعیة ولیس إلى أحد مستشفیات السجن.. ومن ثم غادرنا الزیات قبل الغروب بقلیل واحتضنته مودعا ومشجعا..

أما عن الحکایات والمواقف المحزنة التی صادفتنی وراء القضبان فهی حکایة موت عبدالعظیم أبو العطا.. فلم یکن قد مضى علینا فی السجن سوى عشرين یوما.. وأذکر أنه وصل ذات غروب.. حین صاح النقیب سامی سرحان من الدور السفلی أن ضیفا جدیدا قد عاد من مستشفی سجن الاستقبال وهو عبدالعظیم أبو العطا وزیر الری الأسبق.. لقد رأیتة فی الصباح وأنا أسلم الزنازاة رقم ١٧ صحفها، رحبت به وحبیتة وسألته عن أماناته وعما یریده من کانتین کى أدبره له.. وفی ضحی الیوم نفسه رأیتة

مرة أخرى في العيادة والطبيب يفحصه وقد بدا لى شاحبا وهزيلا أكثر من المعتاد.. ولم تكن لدى فكرة عن حالته الصحية، لكن وزنه كان يزداد هزالا وكان مصابا بالقرحة في المعدة ويتطلب غذاء خاصا.. لذلك كان ولأسابيع طويلة يعيش على اللبن الزبادى فقط.. وفى اليوم المشئوم كنا فى انتظاره، فالיום كان مخصصا لمناقشة محاضرة ألقاها قبل أيام داخل السجن عن مشكلة الأرض الزراعية.. وكنت مازلت أعد الكوبونات التى أوزعها على زملائى.. وكان عبدالعظيم أبو العطا قد دخل زنزانه ليستريح كما سمعته يقول للأستاذ هيكى، ولا أذكر أننى رأيت زميلنا الطبيب على نويجى وكمال الابراشى وهما يدخلان الزنزانة رقم ١٧، فقد فوجئت بالأخير يخرج منها مذعورا ويصرخ طالبا أنبوبة أو كسجين.

لقد تحركت على الفور فالأنبوبة كانت فى عهدتى داخل الزنزانة وبسرعة شديدة انتقلت الأنبوبة الضخمة إلى الزنزانة رقم ١٧.. وجلست صامتا ولاهثا، عرف الوافدون للمشاركة فى الندوة أن «أبو العطا» يمر بأزمة صحية، جلسوا قلقين صامتين.. ومرت دقائق طويلة.. وربما ثوان خرج الطبيب بعدها يصرخ: مات عبدالعظيم أبو العطا.. وعلى الفور أخطر الشاويش محمود الإدارة.. ومضى وقت طويل قبل أن يأتوا بكامل هيئتهم، ضباط كبار وضباط صغار.. دخلوا الزنزانة رقم ١، خرج كبيرهم وقال لنا البقية فى حياتكم.. وأنا أذكر وقتها أننى ظللت جالسا أمام الزنزانة حتى تقدم الليل.. جهزوا الجثة استعدادا للرحيل خارج السجن إلى المقابر.. وقتها حاولت أن أمنع نفسى من البكاء فلم أستطع..

**\* نريد أن نعرف من الكاتب الصحفى والمفكر صلاح عيسى هل من رأيه أن يكون للمفكرين سجونا خاصة.. أم يزج بهم وسط غيرهم من المسجونين الذين تمت إدانتهم فى قضايا سرقة ومخدرات؟..**

— هو من ناحية الخبرة الإنسانية.. فإن معايشة أى أنماط أخرى من البشر هى تجربة مفيدة بالنسبة للمفكر.. وبالنسبة لى أنا شخصا فقد استفدت كثيرا من هذا الاختلاط، سواء وسط تجار المخدرات أو اللصوص أو القوادين.. أو جرائم الثأر.. لقد كان اختلاطا جميلا ومفيدا.. وعلى فكرة أن للسجن طقوسا خاصة به.. وتآلف وتعاطف اجتماعى بعيد الأثر، وأيضا تجد بداخله قوى الصراع والحاجة.. بحكم

الظروف التي تفرض عليك داخل السجن وفيه أيضا نوع من أنواع التسامح باعتبار وجودنا داخل هذه الجدران إقامة جبرية.. وعلى ذلك فلا يجب علينا أن نتشاجر أو نتخاصم ونصدر أحكاما ضد بعض.

ويحدث ذلك أيضا بالنسبة للجرائم الجنائية وإلى آخره.. ومحصلة التجربة.. عالم جديد بالنسبة للمفكرين من الممكن الاستفادة منه والخروج بتجربة ثرية وعظيمة. ومن ناحية الراحة والمعاملة الحسنة والاحترام، فلا بد وأن يكون بالفعل للمفكرين سجنا خاصا بهم أو على الأقل إذا مكثوا في نفس السجن، فلا بد وأن تتوافر لهم حياة أفضل ومعاملة أحسن.. لأن المفكر يحتاج إلى أشياء لا يحتاجها المسجون العادي.. من أجل ذلك إذا لم يكن هناك مكان خاص لهؤلاء المفكرين فلا بد من الاستجابة لبعض هذه المطالب الأساسية مثلا المفكر يحتاج إلى القراءة والكتب والورق والقلم مثل الأكل والشرب تماما.. وأيضا الاستماع إلى الإذاعات.. فمثل هذه الحاجات لا بد وأن تكون مكفولة له داخل السجن.. سواء داخل السجن الخاص به كمفكر أو السجن المختلط.. وعموما المسجون المصرية تحتاج الآن إلى ثورة حقيقية لتغيير أوضاعها.. وكان كل مايشغلنا ونحن داخل هذه الجدران أننا حين نخرج لا بد لنا وأن نطالب بقوة من أجل وقفة جماعية عن طريقها نناشد بتغيير المسجون المصرية شكلا وموضوعا.. وللأسف حينما نخرج لا يتم لنا ذلك وكأننا نريد أن ننسى هذه الفترة العقابية من حياتنا.. وفي إحدى المرات على ما أذكر ونحن داخل السجن أقمنا ندوة كبيرة حضرها مثلا الدكتور حلمى مراد واتخذنا قرارات من أجل مناشدة المسؤولين من أجل تحسين أوضاع المسجون في مصر.. سواء كنا بداخله أو خارجه.

وعن نفسى حاولت الوفاء بهذا الوعد فور خروجى من السجن.. وعلى صفحات الأهالى خلال أعوام ٨٢، ١٩٨٣ حاولت أن ألفت الأنظار للمعاملة غير الإنسانية التي يلقيها الإنسان المصرى داخل السجن وجندت لهذه الحملة مجموعة من المحررين الشبان من أجل إثارة هذه القضية ومحاولة تحسين الفلسفة العقابية من منطلق أن كل هذه المسجون في مصر أقيمت في عهد الاستعمار.. أو قل معظمها.. وشهدت فترة من التخلف تبعد عن الفلسفة العقابية المقصود بها.. هو الانتفاع.. وليس الإصلاح.. ولكن الغريب إننى حينما حاولت أن أبدأ هذه التحقيقات.. فوجئنا بنقص المعلومات.. بل ورفض المسؤولين عن المسجون إعطاءنا بيانات صادقة عن المسجون.

مثلا عددها وعدد المقيمين بها وهكذا.. أضف إلى ذلك أنني أعرف مثلا انخفاض مستوى معيشة السجائين.. الأمر الذى يؤدى إلى سوء المعاملة وتحولهم في بعض الأحيان إلى وحوش آدمية لا هدف لها سوى امتصاص دماء المسجونين..

**\* ذكرتم لنا في حديثكم ردا على السؤال قبل السابق.. أنكم التقيتم بالعديد من الشخصيات العامة والسياسية.. فهل تذكرون شخصيات أخرى غير سياسية أو فكرية؟ وبالضبط شخصيات من المسجونين غير السياسيين؟**

.. طبعاً.. لقد تعرفت على العديد منهم.. وبعضهم من الضباط.. أيوه بعضهم كان من ضباط السجن.. فقد تعرفت على اثنين من ضباط السجون.. منهم واحد كان وقتها عقيد واسمه ناصف مختار.. وأرجو من الله أن يكون مايزال حياً.. لقد كان مدير معتقل طره السياسى وهو مسيحى.. في الفترة التى اعتقلت فيها عام ١٩٦٦.. وأقول إنه كان مسيحى الديانة لأنه كان قائد معتقل طره الذى خصصته الحكومة لاعتقال الإخوان المسلمين، في ذروة معاداة النظام للإخوان.. وقد اكتشفت في هذا الضابط نموذجاً عالياً من الرجل المصرى الطيب الشهم.

بالفعل لقد كان نموذجاً لضابط السجن المصرى الذى يمكن أن تسميه رجل الواجب الذى يؤدى واجبه بالذمة والقانون والضمير وليس له شأن في أن يعامل الآخرين بما يفهم منه استغلال السلطات.. مع أنه كان يمكن أن يكون ذلك وأكثر.. واللوائح والقوانين كانت تعطيه هذا الحق.. إننى أشهد أن هذا الضابط المصرى لم يستغل وظيفته ولا سلطاته في إيذاء الآخرين طوال إقامتى داخل سجن طره.. لقد كان نموذجاً غير طبيعى.. وللأسف لم تدم علاقتى به بعد الخروج، رغم أننا قد تعاهدنا على ذلك كثيراً معه.. ومع غيره من الأصدقاء.. وكان منهم مثلاً اللواء أحمد مصطفى الذى كان في ذلك الوقت برتبة عميد..

لقد كان هؤلاء نموذجاً مشرفاً للضابط المصرى الذى كان يعامل المساجين معاملة تليق بآدميتهم.. وكثيراً ماكان ينجح في التعامل مع مختلف المعتقلين من مختلف التيارات السياسية.. ولقد كان يتمتع بدرجة كبيرة من المرونة. وتطبيق القانون وروحه حتى المخبرين داخل السجن وجدت في بعضهم الإنسانية.. وأنا أذكر في مرة من المرات أنني كنت معلقاً للتعذيب وظللت كذلك طويلاً نظراً لتردد المخبرين في القيام بهذه

المهمة اللاإنسانية لقد شاهدت منظرا ملأ قلبي بالإيمان.. فقد رأيت أحدهم يحاول التهرب من تنفيذ عقوبة التعذيب الخاصة بى.. ويدفع زميلا آخر له.. الذى كاد أن يتنصل من هذه المهمة لولا نظرات الوعيد من أحد رؤسائه.

### \* وكم كتاباً ألفه الأستاذ صلاح عيسى فى السجن؟

- من الكتب التى ألفتها بشكل مباشر فى السجن مجموعة قصصية صدرت بعنوان «بيان مشترك».. وقد نشرت فى العديد من المجلات الأدبية فور خروجى من السجن.. ورواية أخرى بعنوان «مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا» وطبعت فى بيروت عام ١٩٧٩.. ويعاد طبعها الآن..

هذه الكتب تم تأليفها مباشرة داخل المعتقل.. بجانب ذلك هناك فصول من ذكرياتى داخل السجن نشرت فى بعض الكتب مثل كتاب «تباريح جريح» وبعضها نشرت فى الصحف والمجلات ولم يتم تجميعها لاصدارها فى كتاب أيضا. وفكرة كتاب «حكايات من دفتر الوطن» نشأت وتبلورت داخل السجن.. ولم أستطع تنفيذها هناك لأنه احتاج منى العديد من المراجع.. ولكننى بعد الخروج انتهيت منه وهو الآن موجود بالأسواق.. وعلى فكرة أقدر أقول لك أنا لا أستطيع أن أحصر كل الأفكار والموضوعات التى نبتت فى ذهنى فى هذه الفترات.. ولكن عموما لقد كانت فترة السجن فترة ثرية.. ومهمة.. خاصة لمن لديهم الاستعداد لإيمانى أن هذه الفترة تفجر بداخلك طاقات كامنة يمكن استغلالها بنجاح، ودليل ذلك على ما أذكر أنه كان أحد العمال مسجوناً معنا فى عام ١٩٦٨ وكان يعمل برادا.. وكان بجوارى فى زنزانته الفنان التشكيلى محمد حسين هجرس.. الذى كان يمارس هوايته الفنية فى فترة اعتقاله، ففوجئنا فى لحظة أن صاحبنا الذى من حلوان يحاول تقليده ويصنع لنا تمثالا من الحديد والحجر، لقد تأثر بالجو الذى كان يعيشه.. وأعرف أيضا من بين الأدباء والشعراء الذين كتبوا فى السجن الشاعر مجدى نجيب.. حيث كان محبوسا معنا عام ١٩٦٦.. لقد سمعنا وعشنا آلاف القصص والحكايات التى صاحبت فترة السجن بالنسبة للفنانين والأدباء وكانت لهم مصدر إلهام وتفجير لطاقتهم المكبوتة.

### \* مارأى صلاح عيسى فى سجون مصر الآن.. وهل يفضل أن تكون تبعية

السجن لوزارة العدل أم لوزارة الداخلية.. ولماذا؟

- سبق أن حدثتك عن أوضاع السجون فى مصر من حيث المأكل والمشرب والمعاملة..

أما فيما يتعلق بالنصف الثاني من السؤال.. فأنا على ما أذكر أن السجن في فترة من فترات العهد الملكي كان يتبع وزارة الحربية وكان مرتبطا مثلا بشخصية اللواء محمد حيدر باشا.. فإذا أصبح وزيرا للحربية أصبح السجن تابعا لوزارته.. وإذا أصبح وزيرا للداخلية أصبح تابعا له.. وهكذا من منطلق أن الملك فاروق كان يريد تشغيل المساجين في جمع المحاصيل واستصلاح الأراضي.. وكانت هذه مهمة حيدر باشا شخصيا..

أما في الوضع الحالي فأنا اقترح أن تكون السجون تابعة لمؤسسة يشترك في إدارتها وزارتي الداخلية والعدل.. وأن يكون عليها رقابة قضائية صارمة تتابع تطبيق لوائحها وفقا للمعاملة الإنسانية.. وخصوصا معاملة المسجون المفكر.. إننى أؤكد لك أنه لا بد من وجود رقابة قضائية مباشرة حتى في إطار القانون القائم الآن الذى يعطى للنيابة حق التفتيش على السجون.. وفي هذه الحالة يمكن اكتشاف المخالفات التى قد لا تتعلق بالمسجون نفسه.. ولكن بالأوضاع داخل السجن عموما من حيث السركة والاختلاس وأشياء أخرى من هذا القبيل، خاصة وأن السجون تتعامل مع متعهدين وهيئات أخرى لها مصالحها أيضا بالنسبة للمسجون الذى يعتبر أمانة لدى الدولة وإن إساءة معاملته من الممكن أن يسبب للدولة نفسها.

**\* وماذا تفعل لو كنت مأمورا للسجن فترة اعتقال مفكرين. ومنهم صلاح عيسى؟..**

- بأمانة.. كنت سوف أفرج عن صلاح عيسى من السجن فوراً.. و غير ذلك وإيماننا منى بأن الفلسفة العقابية من وراء السجن هى إصلاح السجين.. من المؤكد كنت سوف أقوم بمهمتى في حدود هذا التصور.. حتى يخرج مواطنا صالحا وليس الثأر مما ارتكبه.. لاعتقادي ان الانسان دائما يخطئ ودائما في حاجة إلى من ينبهه للخطأ.. لذلك أرى أن الفلسفة العقابية لا بد وأن تقوم على محاولة إصلاح السجين وإعادته إلى المجتمع نافعاً وليس ناقماً.. فلو كنت مأمورا للسجن كنت أفرجت عن نفسى وطبقت هذه السياسة على ٩٠٪ من المساجين إلا النسبة القليلة التى يستعصى عليها العلاج.. وهم مانسيميهم المرضى النفسيين الذين يحتاجون إلى جانب جهود المأمور.. جهود أطباء النفس..

**\* وماذا يكون رد الفعل لدى صلاح عيسى إذا كان في مقام رئيس الحكومة أو وزير الداخلية وعرض عليك أسماء معتقلين مفكرين مطلوب القبض عليهم؟**

— أنا من حيث المبدأ مع مساواة المواطنين جميعاً أمام القانون بشرط أن تسود الديمقراطية وتحقيق مصلحة عامة للوطن.. وبالتالي لابد أن يتساوى الجميع مفكرين وغيرهم أمام هذا القانون.. في ثلاث حالات إذا كان قانوناً ديمقراطياً.. ويحقق مصلحة عامة.. وصادر عن إرادة الشعب.. فإذا ارتكب مفكر أو صحفي أو كاتب أو أى إنسان خطأ يعاقب عليه القانون بهذه المواصفات بما يعنى وجود مخالفة تمس الصالح العام وفقاً للقانون الذى ارتضيها جميعاً.. من هنا تكون الفلسفة العقابية قائمة على ردع الذين يرتكبون مخالفة ضد الصالح العام وليس ضد الحاكم وحده.. في هذه الحالة لا يكون من سلطاتى أو من صالحى استثناء مفكر أو غير مفكر من القبض عليه والتحقيق معه وفقاً لهذا القانون.. لكننى في ضوء ملاحظاتي العامة لما يجرى داخل المجتمع المصرى لا أعتقد أن المفكر يرتكب مثل هذه المخالفات التى تمس سيادة الصالح العام.. فستكون القضية في واقع الأمر مجرد مخالفة في الرأى.. وفي هذه الحالة.. لابد وأنا في منصب رئيس الوزراء أو وزير الداخلية أن أستدعى هؤلاء المفكرين وأناقشهم.. لاعتقادي أن المفكرين هم الذين يقدمون عصارة أفكارهم لخدمة المجتمع..

وحتى في حالة ارتكاب نوع من هذه المخالفات.. فهى في اعتقادي تتم عفويًا وبدون قصد.. وعلى هذا الأساس تدور مناقشاتنا مادام هدفنا هو الصالح العام.. إما أن يقنعنى أو أقنعه.. وحتى إذا اختلفنا وتمسك كلانا برأيه فلا يجب أن أعقله، بل أتركه لأننى على ثقة من أن المفكر ليس لديه في الحياة سوى رأيه وقلمه لا خطر على المجتمع منه. ولا أقدم على خطوة الاعتقال إلا إذا تحول المفكر إلى إرهابى بمعنى أن يستبدل القلم بالسلاح.. ونادراً ما يحدث ذلك.. وحتى في هذه الحالة سوف أوافق على القبض عليه ومحاكمته وفقاً للقانون الذى سبق وأن تحدثت معك عنه منذ لحظات والذى لا يفرق بين مفكر وغيره من أفراد المجتمع..

**\* في اعتقادك.. لماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر بتوقيع رئيس الدولة؟..**

— لأنه قرار سيادى.. يرتبط بوجود أعلى سلطة في الدولة ولكنه يفوض فيه وزير الداخلية، وعادة ما يبادر رئيس الدولة بإصدار هذه الأوامر لأن المفكر له شعبيته

وفكره وتلاميذه، وخوفا من إساءة استخدام السلطة ضده.. فهو يبادر بمتابعة أمر اعتقاله بنفسه ويحسب حسابه بدقة شديدة حتى لا يؤدي هذا الاعتقال إلى نتائج عكسية.. وهذا ما حدث في بعض الحالات.. لأن قرار الاعتقال.. هو في حد ذاته قرار مصادرة حرية الآخرين بدون سند قانوني.. أما إذا كان هناك سند قانوني فلا يلجأ الحاكم إلى الاعتقال بل يترك الأمر للنياية والمحاكم.. فإذا رأيت جريمة فلا بد من معاقبته..

ومن هنا يظل الحاكم محتفظا بحقه في هذا الاعتقال.. من أجل تقييد حرية من يراه خطرا عليه وعلى خطه وعمله في مرحلة ما..

وكثيرا ما يخطئ الحاكم في استخدام هذا الحق.. وتقدر تقول إن ذلك لا يحدث دائما إلا في ظل أنظمة الحكم الدكتاتورية.. حيث هناك شبه إرادة على سلب حرية الآخرين الذين يقفون في صفوف معارضة الحاكم.. أما في حالة سيادة الديمقراطية.. فأنا أعتقد أن احتفاظ الحاكم بحق اعتقال المفكر يكون أفضل من احتفاظ غيره به.. وذلك لأنني أرى أن الحاكم في هذه الحالة هو أقدر الناس على تقدير قيمة المفكرين لاتساع أفقه وخبرته..



## الحكاية الثامنة يرويها جمال بدوى:

### دخلت المعتقل.. وخرجت منه أحترم وأقدس حرية الرأى

كل الذين قابلتهم وتحدثت معهم في هذه السلسلة من الحوارات أصيبوا بالدهشة حين علموا بأن أستاذنا الأديب والصحفى والمفكر جمال بدوى قد تعرض لتجربة السجن والاعتقال في بداية حياته العملية.. وهو لا يزال طالبا بالسنة الخامسة الثانوية.. وأن هذه التجربة المبكرة في حياته كانت الدافع الأساسى نحو دخوله عالم الصحافة والتمسك بمبدأ حرية الرأى.. رغم أنه كان في هذه السن المبكرة لا يزال يبحث عن ذاته.. ويتحسس البداية الذى سرعان ما وجدها في أفكار ومبادئ الإخوان المسلمين.. للدرجة التى جعلته ينخرط في فكر هذه الجماعة ويصبح وهو لا يزال طالبا في هذه السن المبكرة قائدا مهما داخل هذه الجماعة وفكرها.

كانت البداية وكما قال لى في عام ١٩٥٤ حين ألقوا القبض عليه.. ولم يكن سنه في هذه الحقبة المبكرة يتعدى السادسة عشرة.. ولأول مرة يدخل السجن.. وقدم للمحاكمة آنذاك مع من قبض عليهم من زملائه.. ولصغر سنه.. ولظروف اجتماعية أخرى سوف نعرفها حين ندير شريط تسجيل الحوار.. قرروا الإفراج عنه، ومع ذلك مكث في السجن أكثر من سنتين.. ولم تقبل الحكومة تنفيذ حكم القضاء بالإفراج عنه.

ومرة ثانية دخل المعتقل خطأ.. ومكث به ساعة واحدة.. ومن بعدها أفرجوا عنه.. واعتذروا له.. ورغم قصر هذه الفترة التى قضاها هناك إلا أنه أصيب بحالة من الهياج والإحباط.. أكثر مما أصيب في حالة دخوله السجن في المرة الأولى.. فقد ألقوا القبض عليه عام ١٩٦٥ ضمن هوجة القبض على رجال الإخوان المسلمين آنذاك.. رغم أنه كان في تلك الفترة صحفيا كبيرا.. قريبا جدا من نظام عبد الناصر في تلك الفترة.. فقد

تصادف قدومه من مدينة أسوان حيث احتفالات السد العالي، الذى كان يتابعها صحفيا هناك.

وعلى باب أخبار اليوم انتظروه.. وأبلغه أحد الزملاء أن أحد الضباط يسأل عنه.. وما هى إلا لحظات حتى كان فى منزله كى يأخذ الشنطة التى أتى بها منذ ساعات من أسوان.. ولحظتها كانت القسوة تطل برأسها.. حين رأى طفلة الصغيرة تقف بباب المنزل.. وهم يأخذونه إلى سيارة البوليس.. وقتها لم يجد الكلمات التى يعبر بها عن هذه الرحلة المفاجئة، فتعلل بعودته إلى رحلة صحفية أخرى تم تكليفه بها وسوف تستغرق أياما وربما شهورا.

وبعد أن حبسوه مع آخرين لمدة ساعة واحدة.. جاء من يستدعيه إلى مكتب المسئول عن البوليس فى تلك الفترة.. الضابط حسن أبو باشا الذى اعتذر له عن هذا الخطأ. هذه مجرد بدايات حاولت التقاطها من صوت شريط التسجيل.. كى تكون مدخلا مثيرا لحكاية جمال بدوى كمفكر وصحفى وأديب فى عالم السجون والمعتقلات.

\*\*\*

أما البداية الفعلية للقائنا عبر هذه الصفحات.. بين كاتب هذه السطور وبين المفكر والأديب والصحفى ورئيس تحرير جريدة الوفد أستاذنا جمال بدوى، عبر جهاز التسجيل ولقطات المصور.. فقد مر بالعديد من الظروف التى فرضت علينا تأجيل بداية الحوار أكثر من مرة.. ومع الإصرار على إتمام هذه الرحلة.. فضلت الرحيل مبكرا حيث مكتب الأستاذ جمال بدوى الذى يقع بالدور الأرضى بجريدة الوفد التى احتلت الآن بالمشاركة مع الحزب فيلا الشريعى باشا.. أمام مبنى كلية دار العلوم القديمة بالمنيرة.. وفى الموعد المحدد.. نادى على كل من حوله بضرورة إغلاق المكتب.. وقطع كل الاتصالات التليفونية حتى إشعار آخر.

وهكذا.. وعلى مدى أكثر من ساعة ونصف بدأت تشغيل شريط التسجيل.. وكان هذا الحوار.

\* الأستاذ جمال بدوى.. نريد أن نعرف كم مرة دخلت فيها السجن أو المعتقل؟

- تقدر تقول في البداية إنها سلسلة.. والعبرة ليست بعدد المرات.. ولكنها مرتبطة بما اصطلح على تسميته «البلاك ليست» أو القائمة السوداء.. ووفقا لهذه القائمة.. فالإنسان معرض للاعتقال في أى لحظة.. ولقد كنت في شبابه ضمن هذه القائمة.. والسبب أنني كنت منتميا للإخوان المسلمين.. وتقدر تقول جاء هذا الانتماء في المرحلة الثانية أيام المرحوم حسن الهضيبي.. وليس أيام المرحوم حسن البنا.. وكان عمري وقتها ١٦ عاما.. ولقد استمر وضعنا في الإخوان المسلمين وخلال السنتين الأوليين من قيام الثورة يسير في طريقه السليم.. وعلى وفاق مع رجال الثورة.

إلى أن حدث الصدام في عام ١٩٥٤.. حين تم حل الإخوان لأول مرة في يناير من نفس العام.. وتم اعتقالى في هذه الفترة حين كنت وقتها طالبا بالمدرسة الثانوية بمدينة طنطا.. ولم يستمر هذا الاعتقال سوى أيام أما حينما وقع حادث المنشية جاء دورى في الاعتقال الثانى.. مع هوجة الاعتقالات الكبيرة التى قام بها رجال الثورة ردا على هذا الحادث.. وبالفعل اعتقلت بدون جريمة وسجنت أيامها بالسجن الحربى بالقاهرة.. ثم رجعت مدينة طنطا مرة أخرى لاستكمال التحقيقات.. وبعدها قدمت للمحاكمة أمام محكمة الشعب الدائرة الثانية.. التى حكمت ببراءتى.. ورغم ذلك مررت على العديد من السجون مثل سجن مصر والقلعة والسجن الحربى حتى أفرج عنى في يونيو عام ١٩٥٦.

لقد مكثت في السجن في هذه الفترة عامين.. رغم قرار الإفراج والسبب يرجع إلى اعتقال البوليس لتنظيم من شباب الإخوان المسلمين يجمع تبرعات لأسرى المسجونين.. الأمر الذى جعل عبد الناصر يرفض قرار الإفراج.. ثم اعتقلت مرة أخرى وأنا أعمل صحفيا بأخبار اليوم عام ١٩٦٥ أيضا بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين.. رغم تغير الظروف.. واقتربى من السلطة آنذاك حيث كنت أيامها قادما من رحلة صحفية من أسوان لتغطية احتفالات السد العالى، ولكننى فوجئت بالبوليس ينتظرنى على باب أخبار اليوم وتم اعتقالى بالفعل.. ولهذه المرة الأخيرة قصة أغرب من الخيال دعنى أحكيها لك.

فبعد وصولى إلى مبنى المباحث العامة.. وبعد لقائى بزملاء المعتقل.. وفور وضع شنطة الملابس التى أتيت بها إلى هنا.. استدعيت فوراً.. ومشيت وراء الشرطى الذى

جاءنى، ففوجئت بأننى أمام غرفة مغلقة مكتوب عليها المدير العام.. فدخلت الغرفة ووجدت بداخلها شخصا وقورا فى غاية الاحترام.. طلب منى أن أجلس.. ولم أصدق.. وأصابنى الخوف.. فأصر على أن أجلس أمامه.. وبأدب شديد فوجئت به يقول لى: إننا فى غاية الأسف لاعتقالك.. ولم أصدق حديثه.. فكيف يأتون برجل اعتقلوه منذ لحظات.. كى يعتذر له مدير عام المباحث.

المهم.. مرت دقائق ولا يزال رجل البوليس الوقور يكرر اعتذاره هذا الرجل كان هو اللواء حسن أبو باشا.. ولحسن استقباله لى داخل المكتب فتحت معه حوارا ناقشت من خلاله آلامى الذى سببها هذا الاعتقال الأخير، وقتها اختلطت داخل نفسى مشاعر متضاربة بين الفرح والحزن والضيق.. كما قلت لك إن السبب يرجع إلى أننى وقتها كنت صحفيا أعمل بقسم التحقيقات بأخبار اليوم وكنت وقتها راجعا من رحلة صحفية من أسوان ومتابعة احتفالات الثورة بالسد العالى.. لقد وصلت القاهرة فى ذلك الوقت الساعة التاسعة صباحا.. وهناك فى أسوان أحسست بمشاعر الضيق والحزن الذى خيم على مدينة أسوان فى ذلك الوقت لاشتداد تيارات الاعتقال بها خاصة اعتقال رجال الإخوان المسلمين.. وسط مشاعر فرح افتتاح السد العالى.. لقد عشت لحظات فى منتهى التناقض.

فى هذه الأثناء وعندما رجعت من أسوان كنت أشعر بالخوف لشيء لا أعلمه.. لقد توجهت من محطة الجيزة إلى منزلى فى التاسعة صباحا.. وفور وصولى وضعت شنطة ملابسى ثم اتجهت إلى الجريدة كى أكتب الموضوع الذى كنت أتابعه هناك.. ولكننى فى منزلى شاهدت أيضا الخوف يملأ الوجوه.. والرعب يسيطر عليهم.. ومما يدل على ذلك أن أختى الكبيرة جاءت من البلد.. وتعجبت من سرعة نزولى من المنزل فى هذا الوقت العصيب من وجهة نظرها.. المهم كما قلت لك توجهت إلى الأخبار فى هذه الساعة من الصباح.. وفور دخولى إلى صالة التحرير.. وبعد مرور أكثر من نصف ساعة فوجئت بزميلى الراحل الأستاذ إبراهيم يونس ينادى على من أول صالة التحرير بأن هناك ضابطا واثنين من المخبرين يسألون عنى.. ويطلبون مقابلتى.

وتتعجب حين أقول لك إننى وقبل وصولهم كنت أتحدث عن موضوع الاعتقالات ومنفعل به غاية الانفعال.. وربما يرجع ذلك إلى الخوف الذى لا يزال مسيطرا على

نفسى حتى هذه اللحظة.. المهم طلبوا من الراحل إبراهيم يونس أن ينادينى بصوت خافت.. وقد كان.. حيث اصطحبوننى إلى سيارة البوليس التى كانت تقف بباب أخبار اليوم القديمة.. وبدخلها فوجئت بالعديد من المعتقلين من الإخوان.. وتعرفت على بعضهم كزملاء قدامى.. وفور دخولى إلى سيارة البوليس سألونى عن شنطة ملابسى.. وعندما عرفوا أننى تركتها منذ ساعة فى منزلى استأذنوا الضابط أن يفوت بالسيارة على المنزل لإحضارها.

وفعلا رجعنا العجوزة حيث أعيش مع أسرتى وواجهت موقفا حرجا جدا تمثل فى البحث عن حجة أقولها لأهلى ودون أن يعرفوا الوجهة الحقيقية لى.. عندئذ ادعيت أننى ذاهب فى رحلة صحفية جديدة إلى غزة.. وقد اخترت هذه المدينة بالذات لبعدها اقتناعا منى أننى لن أعود من هذا الاعتقال إلا بعد شهور طويلة وربما سنوات.. ووسط دهشتهم من هذا التصرف أخذت الشنطة ونزلت إلى السيارة من جديد.. ومما جعلنى وقتها أشعر بألم نفسى شديد وضيق منظر شاهدته على باب العمارة وأنا أركب السيارة.. طفلى الصغيرة التى كان عمرها فى ذلك الوقت خمس سنوات، تنظر إلى فى تساؤل غريب ولقد مكثت أنظر إليها فترة طويلة.. والسبب أن الضابط قد تركنا داخل السيارة واستأذن بعض الوقت للسؤال عن سمسار عقارات يبحث له عن شقة.

فهل تتصور إنسانا يمر بهذا التناقض الغريب.. معتقل ينظر إلى طفلة الصغيرة التى تحاول أن تتسامع عن مصيره.. فى الوقت الذى يبحث فيه الضابط المسئول عن الاعتقال عن سمسار وشقة للإيجار.. مما ألمنى بشدة أن طفلى الصغيرة «سمية» وهى الآن متزوجة ولها أولاد أخذت تنظر إلى فى دهشة وتساؤل.. ولا تعرف أين أنا ذاهب الآن.

أما الأمر الثانى الذى أثر فى نفسى أكثر.. أن ضابط الشرطة المصاحب لنا.. كان يقف أمام العديد من المنازل فى مختلف أحياء القاهرة وينزل من السيارة كى يسأل عن اسم أحد الأشخاص من أجل اعتقاله.. والمفاجأة أنه كثيرا ما كان يسمع عبارة ده مات من زمان أو ده هاجر خارج مصر.. هذه المشاهد كلها قد نقلتها بانفعال شديد للواء حسن أبو باشا أثناء لقائى به فى مكتبه لحظة الاعتذار الذى ذكرته لك منذ قليل.. وركزت على شخصيتى كصحفى باعتبار أن الصحفى لا يجب اعتقاله بمثل هذه المهانة.. أضف إلى ذلك حكاية المعتقلين الموتى أو المهاجرين الذين اكتشفهم الضابط لحظة السؤال عنهم..

والحقيقة أن الرجل قد امتص غضبي وقتها.. وشعرت باستجابة لما كنت أحكيه.

**\* طيب.. نقدر نقول كم من الوقت مكث الأستاذ جمال بدوى في السجن خلال هذا الاعتقال الأخير؟**

- ساعة واحدة.. والساعة الثانية كانت في مكتب اللواء حسن أبو باشا.. وتعرف أخطر مشكلة واجهتني بعد قرار الإفراج والاعتذار هو كيف أستعيد شنطة ملابسي مرة أخرى.. وكنت قد تركتها مع زملائي المعتقلين وبعد هذه الساعة اضطررت للرجوع إلى مقر الاعتقال في مبنى المباحث.. والتقيت من جديد مع زملائي المعتقلين وأبلغتهم بقرار الإفراج العجيب.. ثم أخذت الشنطة ورجعت إلى منزلي.. هناك أصابتهم الدهشة وتوالت الأسئلة.. لكن أظرف شيء واجهني بعد رجوعي إلى منزلي.. أن زملائي المرحوم إبراهيم يونس والأخ الزميل سيد الجبرتي.. حضرا إلى المنزل في الوقت الذي رجعت فيه بعد الإفراج.. عارف ليه.. كي يبلغوا زوجتي وأسرتي بقرار الاعتقال.

المرحوم إبراهيم يونس كان يرتدى نظارة سوداء تأثرا منه بهذا الاعتقال.. المهم عندما دخلا الشقة قمت بمقابلتهما.. وكانت قمة المفاجأة.. وصدقني كان مشهدا هزليا وامتزج فيه الضحك والبكاء.. لقد جاء حالا لإبلاغ أسرتي باعتقالي ولكنهما فوجئا بوجودي بينهما.. ولقد ظنا لأول وهلة أنني نجحت في الهرب من البوليس وجئت أختبئ في منزلي.. وبهدوء حكيت لهم القصة الغريبة.. قصة اعتقالي لمدة ساعة واحدة ثم الإفراج عني.. وانتهى الموقف بوليمة دسمة.. كانت قد جاءتني من البلد.

**\* ولو سألت الأستاذ جمال بدوى عن علاقته بالإخوان المسلمين.. ماذا يقول؟**

- أرجوك أن تفسر.. ماذا تقصد بالفترة المعنية بالسؤال.. إذا كنت تقصد فترة الخمسينات فأنا أقول لك إنها كانت فترة تربية.. حيث كنت وقتها عجيبة تتشكل.. وبالفعل تربيت في أحضان الإخوان تربية دينية أمينة جدا.. لقد كانت مدرسة تربوية من أعظم مدارس التربية على المستوى الديني والوطني.. وكل المستويات.. وقد استفدت منها جدا.. ووقتها كنت عضوا مسئولا وعضوا نشطا له تأثير في جماعة الإخوان والدليل أنني اعتقلت وقدمت للمحاكمة.. والاعتقال في هذه الفترة بالنسبة لي لم يكن جزافا.. بل كان بسبب وجودي في التنظيم السري للجماعة.. وعندما قدمت للمحاكمة..

وكما سبق أن قلت لك.. أخذت هيئة المحكمة بعين الرأفة حيث كنت وقتها تلميذا ومتزوجا أيضا ولى أولاد.. ورغم أننى وقتها كنت رئيس المجموعة داخل التنظيم.

والعجيب أن زملائي ممن كنت أرأسهم داخل الخلية حكم عليهم بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ وكانوا جميعا تلاميذ في مثل سننى.. فى مدرسة طنطا الثانوية.. ورغم حكم البراءة مكثت سنتين داخل سجون مصر إلى أن أفرج عنى.

### \* ما هو تأثير تجربة عقوبة السجن على الفكر المصرى بشكل عام؟

— أود أن أفرق لك أولا بين نوعين.. السجن والاعتقال.. لأننى لم أسجن.. بل تم اعتقالى.. والفرق بين النوعين شديد وكثير، فالإنسان الذى يعتقل تقيد حريته.. ويشعر أنه لا يعرف مصيره.. من حيث متى سيخرج أو يتم التحقيق معه؟.. بعكس المسجون.. فله حقوق.. ويعرف المدة التى سيقضيها خلف الجدران.. ولديه إحساس بالذنب.. هذا الإحساس ارتبط فى داخله بتنفيذ العقوبة.. وأبدا لا يفقد الأمل فى الإفراج عنه فى أى لحظة أما المعتقل.. فلا يدري مصيره.. ولا متى سيفرج عنه إنه إنسان يعيش حتى بلا أمل داخل جدران السجن.

الحاجة الثانية.. أن المعتقل ليس له قانون.. بعكس المسجون العادى الذى تحكمه داخل السجن لوائح.. وله حقوق وعليه واجبات، والدليل أننا كنا ممنوعين من القراءة أو الكتابة ولا نجرؤ على ذلك إطلاقا.. ومن يضبط لديه أى مكتوب يعاقب بشدة.. ودعنى أحكى لك حكاية بهذه المناسبة وهى تصور ارتباطى بحاسة الصحفى فى هذه السن المبكرة.. رغم أننى لم أكن صحفيا.. وإنما كما ذكرت لك سابقا كنت طالبا بالثانوى آنذاك.. المهم لقد دفعنى حبى للقراءة أن أبحث عن أى شىء مكتوب حتى ولو على الجدران، للدرجة التى جعلتنى أجمع قصاصات من الصحف.. كانوا يبيعون لنا فيها أقراص الطعمية داخل المعتقل.

وأنا أذكر أننى جمعت كمية كبيرة من هذه القصاصات الملوثة بالزيت والتراب.. وكنت أجمعها فيما يشبه بجريدة صغيرة.. ونظل نتناوبها فى القراءة ليلا حتى لا يرانا أحد المسئولين عن السجن.. هذه القصاصات من ورق الصحف كانت تمثل لنا كنز المعرفة.. وقد تتعجب أكثر حين أقول لك إننى عرفت بموت الفنان أنور وجدى من تجميع هذه القصاصات.. فقد قرأت سطورا مبتورة لمقال كتبه المرحوم أستاذنا على

أمين.. ينعى فيه الفنان الراحل.. وما زالت كلماته أحفظها حتى هذه اللحظة.. حيث كتب يقول: عاش شبابه كى يشتري المجد.. ثم قال البائع لا يكفى.. ثم عاد فلم يجد البائع ولم يجد الدكان.

وقبل أن أنسى أقول لك.. هذه الواقعة حدثت لى فى سجن مصر الذى كان يسمى آنذاك «قره ميدان».. ولا تتخيل كيف كنا نقرأ هذه الجريدة الصغيرة والبسيطة.. فرغم ما بها من زيت ورائحة الطعمية وملوثة بالأتربة إلا أننا كنا ننتظر قدوم الليل ونحاول قراءتها حتى تحت البطانية خوفا من بطش رجال السجن.

إذن المعتقل خطورته أنه لا يحكمه قانون.. ومن حق السلطة أن تفعل بك ما تشاء.. تعذبك وتهين كرامتك وأشياء أخرى كثيرة.. وكمن مرات عديدة تعرضت فيها أنا شخصيا لتعذيب شديد.. خاصة فى فترة التحقيقات.. عندما كنت أذهب إلى السجن الحربى.. فكان لابد أن تذوق فيه ألوانا من التعذيب.. لأن من تقاليد هذا السجن العريق هو التعذيب البدنى الشديد والقاسى.. ولقد وضعت الثورة هذا السجن من أجل الإبادة وليس من أجل التعذيب.. فكم من المصريين الشرفاء ماتوا ودفنوا من جراء هذا التعذيب.. والسجين منا حين يدخل السجن الحربى عليه أن يتوقع تعذيبا شديدا سواء كان بريئا أو مدانا.

المهم.. لابد وأن يأخذ جرعة شديدة من هذا الهول.. لقد كانت الإقامة فى السجن الحربى شيئا لا يصدقه عقل حيث كانت اللغة الوحيدة المعترف بها بداخله هى لغة الكرباج.. وأنا مكثت بداخل هذا السجن فترتين وصلتا إلى أربعة أشهر منذ حادث المنشية عام ١٩٥٤.. وحتى يناير عام ١٩٥٥ ومن بعده انتقلنا إلى سجن القلعة الذى كان بالنسبة للسجن الحربى معناه أنك الآن مهيا للخروج وللإفراج عنك فى أى لحظة.. فقد تحول سجن القلعة من سجن المجزرة إلى سجن الإعداد والانتظار للخارجين والمفرج عنهم.. وسجن الإعداد وغسيل المخ.. وبداخله عشنا لحظات طيبة فقد كان كل اثنين ينامان على سرير.. وأكل نظيف.. وسلسلة من المحاضرات والمحاضرين العظماء.. وكانوا يحدثوننا عن أفكار جديدة ومشاريع وطنية كانت تنفذها حكومة الثورة.. إلى جانب درس دينى كان يلقيه علينا أحد مشايخ الأزهر.. يعنى تقدر تقول كانت فترة إعداد ومصالحة.. وكنا على وشك الخروج لولا أنهم ضبطوا تنظيما من الإخوان



المسلمين من الشباب يجمع تبرعات لصالح أسر المعتقلين.. وكان هذا التنظيم يسمى تنظيم مارس.. وهو تنظيم مشهور جدا.

ولما علم عبد الناصر بأمر القبض على التنظيم الجديد رفض الإفراج عنا.. وانتقلنا من سجن القلعة إلى سجن مصر.. حيث قضيت بقية مدة العقوبة وهى سنتان.. ثم عدت إلى سجن القلعة مرة ثانية حين قرروا الإفراج عنى لآخر مرة.. ومكثت به أسبوعين.. وأحب أن أؤكد لك أن سجن مصر لم يكن به تعذيب.. كنا أيامها موجودين بعنبر «ج» المطل على ميدان السيدة عائشة.. هذا السجن تم هدمه الآن وتحول إلى حدائق عامة.. وطوال فترة سجن مصر.. توالى علينا المحاضرات وتعرفت من خلالها على أساتذة تركوا أثرا طيبا في نفسى، وأذكر منهم الأستاذ الدكتور توفيق الشاوى.. والدكتور محمود أبو السعود.. كنا وقتها نسمع محاضرات متنوعة في الأدب والدين.

### \* ما هو تأثير هذه التجربة على المفكر والكاتب الأستاذ جمال بدوي؟

- شوف.. أنا وقتها شعرت أنني ولا بد وأن أعمل في المجال العام كرسالة لا بد أن أؤديها بأمانة.. إنما إيه بالضبط؟ لم تكن الرؤية واضحة.. وفي تلك الفترة قرأت وأنا ما زلت على أبواب السنة النهائية من القسم الثانوية في إحدى المجالات عن وجود قسم جديد بكلية الآداب.. هو قسم الصحافة، دوره إيه وماذا يقدم؟ لم أكن أعرف وقتها.. وكل ما عرفته هو ارتباطه بالدكتور عبد اللطيف حمزة.. وبدأت أجمع معلومات وأشغل ذهنى بهذا القسم الجديد وأنا ما زلت مسجوناً بسجن مصر.. إلى جانب التجربة نفسها وإحساسى آنذاك بقيمة الحرية وأثرها على مصير الإنسان وعلى حياته وفكره.. وظلت كقضية تشغلنى بشدة وفرضت نفسها حتى على إحساسى بالعدل.. لأننى عرفت وقتها أن الحرية قرينة العدل.. والاعتقال في هذا السن المبكر جعل من هذه الحرية لدى نفسى قيمة ومبدأ لا مساومة عليه.

وهذا السبب هو الذى جعلنى أغير فكرى وانتقل به إلى الفكر الليبرالى وأحيد عن فكر الإخوان المسلمين.. ولعلنى أتحدث معك عن هذا التحول وربما لأول مرة.. لأننى بعد الخروج من المعتقل ويمكن قبل أن أخرج بدأت أفكر في مسألة الحريات العامة.. تلك القضية التى لم تكن واضحة في أذهاننا وقت أن كنا في مدرسة الإخوان.. هذه القيمة الجديدة أضيفت إلى باقى القيم العظيمة التى تعلمناها في مدرسة الإخوان كالأمانة

والصدق والوطنية.. ويمكن أن أقولك: إن قيمة الحرية في ذلك الوقت لم تكن مطروحة على الساحة السياسية آنذاك.. وفي داخل المعتقل عرفت بها وأحسست بقيمتها.. وعقدت العزم على أن أناضل من أجلها.. لإيماني بأن تلك الحرية أثمن شيء في وجود الإنسان.. وقد أكد هذه المعاني الجديدة في ذهني إقبال على القراءة والاطلاع على الثقافات الأجنبية.. وأيضا تأثير تلك المحاضرات المهمة التي كانت تلقى علينا في تلك الفترة.

وخرجت من ذلك كله بنتيجة مهمة جدا وهي أنه لا بد من وجود ضمانات واضحة لصيانة الحريات العامة.. وأنه إذا كان هناك أي كلام عن نظام حكم في الإسلام.. فلا بد أن يأتي في المقدمة أهمية صيانة الحرية.. والاعتزاز بالحريات العامة.. من هنا تجدني أرفض أن يأتي أي حاكم أو خليفة مسلم أو أي نظام ينتسب إلى الإسلام ويضحي بالحرية من أجل أي هدف آخر.. فأنا بصراحة حينما تعمقت في قراءة نظام الحكم في الإسلام.. وجدته نظاما من الناحية النظرية لا يضاهيه أي نظام حكم في العالم.. ولكن المشكلة كانت في التطبيق.. فكما قدم لنا التاريخ نماذج طيبة من الحكم في الأيام الأولى للإسلام قدم لنا أيضا نماذج سيئة جدا لحكام يحكمون باسم الإسلام.. لا يعرفون بالحريات العامة ويدوسونها بأقدامهم.. رغم أن الإسلام في جوهره يقوم على احترام هذه الحريات.. إذن كانت هذه نقطة التحول الأساسية في حياتي الفكرية.. ولا أستطيع أن أقول لك التحول من فكر الإخوان المسلمين، ولكن التحول إلى فكر أكثر إيمانا بالحرية.. وعلى وجه الخصوص هذا التحول قد تم وأنا في سجن مصر.. والسبب يرجع إلى أنني وجدت مصادفة بين مجموعة من الزملاء المثقفين داخل هذه الجدران العالية.. وهم من الإخوان المسلمين الذين كانوا أكثر مني استنارة.

هذه المجموعة كانت من شباب جامعة القاهرة.. وعلى ما أذكر منهم كان الدكتور ماهر حتوت من شباب كلية الطب والأستاذ مدحت أبو الفضل من شباب كلية الحقوق وآخرين.. هؤلاء قد تأثرت بهم.. وهم ما زالوا من المتمسكين بالفكر الإسلامي.. ولا أستطيع أن أقول فكر الإخوان المسلمين.. وما حدث أن هذه المجموعة قد فتحت أمامي عالما جديدا.. ومحاضرات الدكتور الشاوي أيضا نقلتني إلى عالم آخر تحدث فيه عن الديمقراطية والحريات وكانت وقتها عبارات وشعارات جديدة.

كل ذلك بجانب قراءاتي المتعددة.. وقد صاحب هذا الجو الجديد إثارة آلاف الأسئلة

داخل نفسى، وكلها كانت تدور حول مفهوم الحريات وأهميتها بالنسبة لحياة الإنسان.. ولماذا نحن هنا داخل المعتقل؟ ومن أجل من نناضل ونفكر؟

تلك كانت البداية التى تبلورت فى الكفاح ضد ديكتاتورية الحاكم الفرد الذى تمثل فى وجود جمال لعبد الناصر وغياب الحرية فى ظل هذه الديكتاتورية.

**\* وكم كتابا الفتموه داخل السجن.. أو بعد الخروج منه تأثرا بهذه التجربة؟**

.. أنا لم أكتب عن هذه التجربة فى كتب صدرت لى.. ولكننى على ما أذكر ألفت كتابا واحدا عن هذه التجربة اسمه «شهداء وضحايا من تاريخ الإسلام».. إن عنوانه يوحى بأننى أتحدث عن شهداء المعارك الإسلامية مثل موقعة بدر وخلافه، ولكننى فى الحقيقة كنت أقصد شهداء الحرية الذين ضحوا بحياتهم من أجل الفكر والرأى خلال التاريخ الإسلامى كله.

وهذا ما كتبتة فعلا.. إنهم شهداء الحرية على مر العصور الإسلامية أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل الفكر والرأى خلال التاريخ الإسلامى كله.. وهذا ما كتبتة فعلا.. إنهم شهداء الحرية على مر العصور الإسلامية أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل حرية الفكر من أمثال عبد الله بن المقفع وغيره.

وهؤلاء الذين تعرضوا للاضطهاد أيضا تجد فى الكتاب فصولا عن التعذيب والمهانة التى يلاقونها المفكر من أجل دفاعه عن الحرية.. لقد كان همى من خلال هذا الكتاب إبراز كفاح هؤلاء المفكرين من أجل إعلاء كلمة الحرية.. الكتاب صدر عام ١٩٨٤.. وكنت قد نشرته من قبل مسلسلا فى جريدة الاتحاد فى دولة أبو ظبى حيث كنت هناك فى خلال فترة من فترات حياتى الصحفية.. وتقدر تقول أيضا إن كل مقالاتى التى أكتبها الآن ومازلت فى جريدة الوفد التى رأس تحريرها تعبر عن هذا المفهوم.. وتعتبر تأثرا بتجربة السجن والاعتقال، وهى نوع من الموضوعات التى أكتبها فى هذا الإطار المتعلق بالسجن وتأثيره على الحياة الفكرية فى مصر الآن وعلى الحريات العامة بشكل مجمل.

تلك القضية التى اكتشفت نفسى موجودا بداخلها بعد تجربة السجن الأخيرة عام ١٩٦٥.. صحيح فى هذه الفترة كنت أعمل صحفيا فى أخبار اليوم وكنت مهتما بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية.. ولم أكن أقترب من القضايا السياسية.. ولكننى بعد هذا التاريخ ارتبط وجودى بقضية الحريات وضرورة الكفاح من أجلها.. وهناك كتب

أخرى كتبتها تأثرا بهذه التجربة مثل كتاب تاريخ الفكر السياسى فى الإسلام، وهو جولة فى تاريخ نظم الحكم السياسى فى الإسلام عبر التاريخ.

**\* نريد أن نعرف من أستاذنا جمال بدوى رأيه فى عقوبة السجن أو الاعتقال كوسيلة من وسائل قهر الفكر المعارض؟**

- أنا زى ما قلت لك سابقا.. هناك فرق كبير بين السجن والاعتقال فى مجال العقوبة.. السجن يصدر به حكم قضائى وللمسجون بناء على ذلك حقوق وعليه واجبات.. والإنسان يدخل السجن إذا ارتكب فعلا يخالف القانون الذى يردعه.. ولا جريمة على عقوبة إلا بنص.. أما الاعتقال فهو إجراء تعسفى تلجأ إليه السلطة من وراء القانون.. ويدخل صاحبه السجن فى أى وقت وفى أى لحظة.. وبالتالي ليست له حقوق.. أما قولك بأن السجن يمكن أن يتحول إلى إحدى وسائل قهر الفكر وكبت الحريات.. فردى عليه.. شوف.. أقول لك رغم ذلك.. فإننى لا أدعو أبدا.. وفقا لحرية الفكر إلى حرية الإلحاد لأن رأى فيها صريح ولا مناقشة فيه.

أما فيما يتعلق بقضايا الفكر الأخرى.. طبعاً السجن لا يمكن أن يكون وسيلة لإسكات صوت الحرية.. وأننى أرفض ذلك تماماً.. خاصة فى مجال حرية الرأى السياسى.. فإذا كانت الحكومة ديكتاتورية.. حتما سوف تصطدم بصاحب هذا الرأى.. ويكون مصيره كما تقول أنت السجن لتجنب شر فكره وآرائه.. وتشهر فى وجهه القانون كسلاح.. مهما كانت التضحيات.. وفى ظل الديمقراطية عادة ما تلجأ الحكومات إلى القانون داخل المحكمة وليس القانون الخاص بها.. بمعنى أنك إذا كنت مخطئا فى رأيك من وجهة نظر الحكومة تحيلك إلى المحكمة وفقا للقانون من وجهة نظرها.. وربما يكون للمحكمة وجهة نظر أخرى.

أيضا بالقانون.. فترى مثلاً أنك غير مذنب.. وبالتالي فلا تدخل السجن.. وهذا فرق كبير بين الحاليتين.. ولكى نتم مشوارنا الديمقراطى علينا ونحن نضع الدستور أن ننتبه إلى تقنية مثل هذه القوانين حتى نضمن حرية الرأى وحرية الفكر.. وتأتى النصوص مسايرة للضمانات مثلما يحدث فى أوروبا مثلاً.. وأعيد وأكرر عليك أن قهر الفكر والضيق من الحرية يتم بصورة كبيرة فى ظل الحاكم الديكتاتور الذى تضايقه مثلاً أن تختلف معه.. وفى ظل الأنظمة الديمقراطية تختفى صور القهر الفكرى.. كلما كان هناك

استقرار في الحكم.. وهذه نتيجة حتمية لهذا النوع من الحكم.. حيث يوجد احترام للحريات والحقوق.

ودعني أسألك هل سمعت في يوم من الأيام أن في بريطانيا انقلابا عسكريا؟ طبعاً لن يحدث ذلك.. لأنك سوف تفاجأ بالشعب يخرج ويقذف الدبابات بالببيض ويتصل من هذا الانقلاب ويقاومه.

**\* هل تعرف الأستاذ جمال بدوي خلال رحلته داخل المعتقل على شخصيات معينة.. أثرت في فكره؟ وما زال على علاقة بها حتى بعد خروجه؟**

— آه طبعاً.. لقد ذكرت لك أنني تعرفت على أخي وصديقي الأستاذ مدحت أبو الفضل.. وهو الآن محام كبير.. وكان قد مكث بدولة الكويت سنوات طويلة.. ثم عاد إلى القاهرة.. ومنذ ثلاث سنوات تجددت بيننا الصلات والعلاقات.. ومن هؤلاء كذلك الدكتور توفيق الشاوي كمحاضر وأفكاره عن الحرية والديمقراطية قد أحدثت ثقباً في عقلي أخذ يتسع مع الأيام فيما يتعلق بإيماني بما سمعت منه في المعتقل عن الديمقراطية وعظمتها وأهميتها في حياة الشعوب.. ومن غير المفكرين قد تأثرت بالعديد من الذين قابلتهم داخل السجن.. ولى معهم حكايات ومواقف جمعتنا داخل الجدران السوداء منها الطريفة ومنها الحزينة.. وعلى ما أذكر أنه كان لي أحد الأصدقاء الذين كنت أراسهم داخل المجموعة.. وحكم عليه بالسجن عشر سنوات مع التنفيذ وظلت علاقتي به طيبة داخل الجدران السوداء.. وبعد أن أفرج عني وخرجت وتركته حيث قضى بعد خروجي أكثر من ثماني سنوات.

المهم حين علمت بخروجه.. كنت في غاية الشوق لرؤيته وظللت أبحث عن عنوانه.. حتى عثرت عليه.. وعرفت أنه يعمل موظفاً في إحدى محافظات الدلتا.. وعقدت العزم على البحث عنه ولقائه بعد هذه الفترة الطويلة التي استمرت أكثر من عشرين عاماً.. وفعلاً نجحت في الوصول إليه.. ولكنه للأسف اختفى مني ورفض أن يقابلني ولا أعرف حتى هذه اللحظة السبب.. المهم بعدها عرف أخوه بهذه الحكاية وجاء كي يعتذر معللاً السبب بأنه الخوف وأشياء أخرى.

لحظتها أصابني الحزن.. لأنني بالفعل كنت أحب هذا الرجل وأود أن نتقابل من

جديد.. وأقدم له أية خدمة.. لقد كنا أكثر من أخوين حيث كنا زملاء في المدرسة حتى قبل تجربة المعتقل.. ومن المواقف الأخرى التى صادفتنى وزملائى في السجن الحربى.. أنه كان معنا أحد الطلبة الذى أصبح الآن من علماء الدين الإسلامى المعدودين وهو الدكتور عبد الودود شلبى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية.

المهم ونحن داخل السجن.. لم يتمكن أحد الضباط من نطق اسمه كما يجب فناده بقله: عبد الود.. ودد.. فاستغرقنا في الضحك أوقاتا طويلة.. وكانت النتيجة أننا قد جلدنا جميعا عقابا على الضحك.. ويومها عذبونا أيضا.. لقد كنا نضحك على جهل هذا الضابط.. وأذكر موقفا آخر.. رغم أنه كان محزنا ومؤلما في نفس الوقت.. ولكننى سوف أحكيه لك.. على ما أذكر وكنا أيضا في السجن الحربى.. وكان من أشق الأمور بداخله دورة المياه.. هذا السجن في الأصل كان به ٢٤٥ زنزانة.. وكانت لا توجد به مياه كافية.. وعدد المعتقلين به أكثر من ٥ آلاف شخص.. وتصور كيف يقضى هؤلاء حاجتهم وسط ندرة المياه.. وندرة المكان أيضا.. أضف إلى ذلك أنك كنت وقتها محروما من النوم.. فقد كانوا يضعون في كل زنزانة لمبة قوتها أكثر من ١٠ آلاف وات.

ثم أنك كنت مجبرا على عدم النوم لأنه من المحتمل أن تسمع اسمك في أية لحظة.. المهم نرجع إلى قصة أحد زملائى داخل المعتقل.. هذا الرجل تحامل على نفسه وغامر بدخول دورة المياه في آخر لحظة وقبل طابور التمام كما كانوا يقولون بلغة المعتقل.. وانتهزها فرصة وأخذ حماما بالماء والصابون.. فبعد أن نادى الضابط على كل المسجونين الذين أعلنوا وجودهم بالطابور.. جاء ذكر اسم هذا الرجل المسكين.. ولما لم يجدوه.. بحثوا عنه أولا في دورة المياه.. ووجدوه بداخلها.. فأخرجوه عاريا والصابون على وجهه وجسده.. ولا تتخيل ما حدث له وهو على هذه الحالة لقد أخذوا يضربونه بكل أنواع العصى والكرياح حتى فقد الوعى ووقع على الأرض وهو ينزف دما مخلوطا بالصابون.

\* يمكن لنا أن نخرج من هذا السؤال.. إلى سؤال آخر ربما يرتبط به من قريب أو بعيد.. وهو: نريد من أستاذنا جمال بدوى تقييما لموقف كل من عبد الناصر والسادات من قضية الفكر والمفكرين؟

— شوف هذه القضية يجيب عنها الواقع.. وهذا التقييم تحدده لنا الظروف والملابسات التي صاحبت الأحداث التي جرت في كل من العصرين فمثلا.. إذا كانت السجون والمعتقلات عقوبة المفكرين في عهد عبد الناصر يصبح هذا العهد متسما بالظلم ولا بد أن يدمغ.. أما إذا جاء عصر سمح فيه للمفكرين بالقول والفعل والاختلاف.. بقدر كبير من الحرية.. فلا بد أن نشيد بهذا وهذه بالطبع إحدى سمات عصر السادات.. ولكن حين يأتي الرئيس السادات بعد ذلك ويزج بالمفكرين داخل السجون والمعتقلات فلا بد أن ندين هذا الفعل ونرفضه.. إذن المسألة في رأيي ليست مسألة أشخاص.. وإنما المسألة متعلقة أولا وأخيرا بالمواقف.. بمعنى أنه إذا أتيحت هذه القدرة وتمكن الناس من التعبير في حرية وبعيدا عن الخوف.. نرحب بذلك ونسعد، وكلما تم التضيق على الناس في حياتهم وحررياتهم.. أصابنا الحزن والخوف على المصير.. لأن المفكرين هم حملة المشاعل الذين يضيئون الطريق نحو عالم أفضل.. فكلما أتيحت لهم فرص التعبير كلما واصلوا المسير.. والعكس هو الصحيح.

**\* ما رأيكم في سجون مصر الآن.. وهل هي بوضعها الحالي تواكب تطور عصر الجريمة؟**

— والله أنا لا أعرف.. لأن صلتى قد انقطعت بها منذ فترة طويلة ولكننى أسمع أنها سيئة جدا ولا تساعد على إصلاح أحوال المسجونين.. بل ربما تقسدهم أكثر.. ومما أكد لدينا هذا الإحساس مشاهدتى لأحد الأفلام الروائية الحديثة.. الذى عبر تعبيرا صادقا عن أحوال السجن في مصر.. ولما سألت عن حقيقة ما رأيته، أكد لى البعض أن الصورة في الحقيقة أسوأ مما رأيته.. واسمح لى أن أقول لك لا أستطيع رغم ذلك أن أعطيك صورة صادقة ورأيا قاطعا إلا إذا شاهدت ذلك بنفسى.

**\* طيب.. ولماذا وأنت صحفى كبير.. لم تفكر في زيارة سجون مصر لتأكيد معرفتك بأحواله؟**

— .. حرام عليك.. دا شىء كرهه.. وأنا أذكر أننى في يوم من الأيام اضطررت أن أمر أمام السجن الحربى في مدينة نصر.. حتى بعد هدمه.. وشعرت بخوف وضيق وألم شديد.. وعلى الفور أسرع من المكان.. ومرة أخرى دعونى لزيارة المتحف الحربى

بالقلعة الذى أقيم مكان السجن.. ولحسن الحظ أو لسوءه الله يعلم.. تركوا زنانتين على ما هما عليه.. هى الزنانة الأولى والثانية.. وكنت فى أيام المعتقل مسجوناً فى الزنانة الثانية.. ولا تتصور حالتى النفسية.. فقد شعرت بانقباض شديد وألم نفسى.. وقد تحاملت.. حتى انتهت الزيارة إلى غير رجعة.. فلا أستطيع أن أقول لك إننى من الممكن أن أزور السجن الآن أو حتى أكتب عنها.

وهنا تصور آخر لى فى هذه النقطة.. إننى لا أكتب عن السجن ولكنى أكتب عن الحريات حتى لا نفقدها مرة أخرى، وندخل على إثر فقدانها السجن، وأحب أنؤكد لك أن السجن ليس شراً كله.. وإنما لا بد منه كوسيلة عقابية، ولكنك تقدر تقول لا بد من نظرة من أجل تطويره.. بعيداً عما كنا نسمع عنه مثلما يحدث فى سجون أوروبا.. والى وكما يقولون تقارب فى شكلها وفى خدماتها فنادق درجة ثانية.. وإلا تحولت بذلك السجن عن رسالتها.. وفقدت قوتها كوسيلة ردع للمجرمين.. ولا مانع مع ذلك من مراعاة الحالة النفسية والإنسانية للمسجون.

وهنا لا بد أن نفرق بين سجن المفكر وسجن المجرم.. فلا يتصور أحد مثلاً أن نضع المفكرين مع غيرهم من القتلة والقوادين فى سجن واحد.. أيضاً لأن المفكر لم يرتكب جريمة ولم يعاقبه القانون.. إذن لا بد من وجود أماكن خاصة يحجز بها المفكر المعارض أو المختلف مع الحكومة أو السلطة.. وألا يزوج به مع الحرامية والنشالين.. إن ذلك فى رأى جريمة أخرى فى حق الحكومة.. لأن من الواجب علينا صيانة حقوق المفكر وصيانة كرامته.. حتى داخل السجن.

**\* لو كان الأستاذ جمال بدوى مأموراً للسجن.. فى فترة اعتقال مفكرين.. ماذا كان يفعل؟**

- يعنى كنت أحول هذا المعتقل إلى منتدى.. وأحاول الاستفادة من هؤلاء المفكرين فى إصلاح وتهذيب إخوانهم من المسجونين الآخرين وتثقيفهم.. بعيداً عن شبح التعذيب الذى اعتبره مرفوضاً تماماً ولا أقبله على المستويين.. مستوى السجين المفكر والسجين العادى.. وحتى إذا طلبوا منى القيام بهذه المهمة وفقاً للوائح والقوانين.. أرفض ذلك.. أو على الأقل أستقيل.. أو أطلب نقلى إلى مكان آخر.



## \* وماذا تفعلون لو كنتم رئيسا للحكومة.. أو وزيرا للداخلية وعرض عليكم كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم؟

- لا.. شوف أقول لك حاجة.. أولا أنا لا أقبل مطلقا تقييد حرية أى إنسان.. سواء مفكر أو غير مفكر.. فما بالك بالمفكر.. خاصة السياسى منهم.. أرفض على الفور التوقيع على هذا الكشف.. أما بخصوص مسألة الإلحاد فإن موقفى معروف ولا حياد عنه.. لإيمانى أن خلاف المفكرين مع السلطة.. لا يعطى لهم الحق فى أمر اعتقالهم.. بل بالعكس أطلب مقابلتهم ومناقشتهم ولا أُلجأ مطلقا إلى الاعتقال لأننى أعتبر من يلجأ إليه كوسيلة إنما هو فى موقف الضعيف.. والحكومة التى تلجأ لمثل هذا الإجراء هى بالتالى حكومة ضعيفة ويبرز ضعفها من فشلها فى الاقتراب من هؤلاء المفكرين والتعامل معهم الفكر بالفكر.

لكن عايز أقول لك حاجة مهمة جدا: إن الفكر إذا اختلط بالسلاح فلا بد وأن أوافق فورا على أمر الاعتقال بمعنى أننى إذا وجدت المفكر يلجأ إلى غير القلم من أجل تحقيق رأيه وأفكاره فلا بد من القضاء عليه فى حينه.. لأن ذلك يسمى إرهابا.. وأنا أشك أن المفكر الحقيقى يلجأ إلى العنف من أجل أن يقول رأيه وينشر فكره.. إن المفكر له مطلق الحرية فى أن يقول ما يشاء دون أن يقترب من منطقة العنف.. بل أكثر من ذلك أن إيمانى بلا حدود فى دور المفكرين فى إبعاد الناس عن التعصب والعنف.. وليس أمامى من وسيلة لعلاج هذا الإرهاب الفكرى.. إلا بالقانون.. حينما يقترن بالعنف.



## الحكاية التاسعة.. يرويها مفتر السوفى

### بسبب لم أعرفه دخلت السجن مظلوماً

.. وتحدد اللقاء.. ومن بعده كان لابد من الذهاب إلى حيث حدد لنا الكاتب والمفكر والأديب مختار السوفى.. المكان الذى سوف نتقابل فيه.. وخلال جولة داخل شوارع القاهرة استغرقت نصف ساعة.. كنت هناك أقف أمام إحدى ناطحات السحاب المصرية.. أو ما يحلو لنا أن نطلق عليها عمارات الأبراج.. وطبقاً للمعلومات التى دونتها فى ورقة صغيرة كانت هى كل ما أحمله.. مع جهاز التسجيل وكشف بأسئلة الحوار.. وقفت أمام مكتب الاستعلامات داخل العمارة المدونة بالعنوان، والذى أكد لى أن الكاتب الكبير موجود بالفعل هنا.. ولكن فى الدور الثامن والعشرين!.. والمطلوب منى أن أستخدم الأسانسير الذى سوف ينقلنا من الأرض إلى السماء.. وقد كان.. ولن أصف بعد ذلك الاحساس الذى انتابنى كلما اقتربت من شقة مختار السوفى.. وبطبيعة الحال لم يكن السبب فيما أحسست به هو الرجل فى حد ذاته أو شقته العامرة.. وإنما وسيلة المواصلات الفوقية التى نقلتني عبر ثمانية وعشرين دوراً.. لقد مكثت أكثر من دقيقة داخل صندوق أنيق.. لا تسمع فيه إلا صوت الهواء الذى يصطدم مع الآلة الرافعة لذلك الصندوق العجيب. وقد تكررت نفس الرحلة بنفس الأحاسيس حين العودة.. لأننا بعد إتمام هذا اللقاء بسلام أخذنى الكاتب الكبير فى جولة سريعة داخل الشقة، فرأيت القاهرة الساحرة تنام فى أحضان أضواء الكهرباء الجميلة. لقد نقلتني شرفة المنزل إلى مسافة عشرات الكيلو مترات.. ولولا زيادة كمية الضباب التى كانت عالقة بالجو آنذاك لرأيت كل معالم القاهرة.. الأهرامات والقلعة.. وبرج القاهرة!! وكل شىء بدون مجهود عضلى أو بصرى.

وبعد هذه المقدمة التى رأيت أنها ربما تكون مدخلاً طيباً لتخفيف وقع كلمات

الحوار عليكم وعلينا.. رأيت أن أحدثكم عن شىء آخر أهم مما ذكرت أنفا.. وهو أنني قد اكتشفت أن هذا أول حوار أجره عن هذه التجربة.. يتسم بالضحك والسخرية!!..

لقد اكتشفت أيضاً أن الكاتب والمفكر مختار السويفى.. يتمتع بروح دعابة من النوع النادر.. هذه الروح هى التى مكنته من تحويل هذه المصيبة التى آتته ليلاً إلى مسرحية هزلية أخذ يضحك منها وعليها.. وتراه كلما حكاها لغيره يستغرق فى الضحك.. وحتما لابد وأن تشاركه هذه السخرية من خلال ما يحكيه لك من مواقف تتسم بالعبثية المطلقة.. ولن أغالى حين أقول أنني وطوال الخمسة والأربعين دقيقة التى قضيتها مع الأستاذ مختار السويفى أقول له السؤال وهو يجيب عليه.. ضحكت وكأنما لم أضحك من قبل.. وربما كانت هذه هى المرة الأولى منذ إجراء هذه السلسلة الطويلة من الحوارات التى أشعر فيها يسرور وسعادة مصدرها الأساسى كان الشعور المتبادل بيننا والذى كان أساسه الحب والضحك.. ولو كانت الكلمات تسمع قبل أن تقرأ.. لدونت لكم هذه الضحكات عبر هذه الأوراق.. وهو ما سجله بالضبط شريط التسجيل الذى صاحبنى فى هذه الرحلة، على ارتفاع أكثر من مائة متر عن سطح الأرض

ولسوف تشعر أنت أيضاً عزيزى القارئ بهذه السخرية الممزوجة بالمرارة، حين تقرأ كلمات هذا الحوار.. والسبب يرجع إلى أنها تجربة خاضها مفكر كبير وعالم من علماء الآثار المصريين.. ووكيل وزارة للنقل البحرى.. وأيضاً كاتب ومؤلف لأكثر من خمسين كتاباً فى مختلف فنون المعرفة.. أضف إلى ذلك أنه كاتب صحفى وساخر عظيم.. أما الشىء الأكثر أهمية والذى نتج عنه القدر الكبير من الضحك والسخرية.. فهو أن صاحب هذه التجربة.. قد زجوا به خلف الجدران السوداء بلا تهمة ولا ذنب ارتكبه.. وإنما بسبب وشاية من آخرين.. هذه التهمة لم يقتنع بها حتى رجال الأمن الذين قدموا إليه مع ساعات الفجر الأولى.. ولم يجدوا فى مكتبه سوى كتب تتغنى بحب مصر وآثارها وأدائها وفنونها.. ومؤلفات كثيرة كتبها فى التخصص الذى اشتهر به فى مجال النقل البحرى..

ولعلك حين تسمع صوت هذا المفكر والأديب وهو يحكى لك كيف جاءوه فجراً ودخلوا عليه إلى حجرة مكتبه، وهو لم ينم بعد، حيث كان منهمكاً في إنجاز تقرير تفصيلي مطلوب على وجه السرعة، يتناول المشاكل والمعوقات وطرق إزالتها أو معالجتها حتى يتم نقل كميات المواد التموينية الضخمة التي تستوردها البلاد في مواعيد مناسبة وبإجراءات سلسلة وطرق صحيحة.. لا تملك إلا أن تتعجب على هذه الأوضاع التي كثيرا ما تثير السخرية والحزن وأيضا الإستغراق في الضحك!

حتى وهو رهين القيد الحديدي الذي وضعوه في معصمه خوفاً من الهرب - على حد قولهم - لم يفقد الابتسامة التي عبر من خلالها عن هذه المسرحية الهزلية التي تمت ومازالت فصولها باقية.. لأن عليه أن يقضى عقوبة لجريمة لم يرتكبها ولم يعرف أبعادها بعد.. وهو يقول إن أول إشارة التقطها عقله وعرف من ذبذباتها أن التهمة ربما تكون بسبب الفكر والأدب والثقافة.. كانت حين عثروا على أربعة كتب، منها رواية الأم لمكسيم جوركي ومجموعة قصصية لأنطون تشيخوف.

وقد استكمل صورة مادار في ذهنه حين زجوا به مع «الرفقاء» - وهي كلمة جمع.. مفردها «رفيق» - من أعضاء الحزب الشيوعي وبعض اليساريين المصريين!!.. لقد تحول الكاتب والمفكر والإنسان مختار السويفى في لحظة واحدة - ودون أن يدري - إلى معارض شيوعي أو يساري!! مع أنه - وكما أكد لي وأكد لهم - لا يحب السياسة.. بل يكرهها كثيراً.. ولم يحد في حياته عن طريق الديمقراطية. ولكن على حد قوله: لا تجد من يسمع إلا بعد ثلاثين يوماً.. حين تقدم على كتابة تظلم أمام قاض مدني.. والذي له الحق في الأخذ بما تروى ومن ثم يفرج عنك..

والأمر لم يكن بهذه السهولة.. كما يروى.. أو كما أكتب.. لقد وصل إلى سجن طره في الصباح المبكر.. ودون كلمة واحدة، وبعدما أخذوا منه كل متعلقاته.. رموه في زنزانة إنفرادية لمدة ثلاثة أيام!!

إنها بحق رحلة داخل عقل وقلب أحد فرسان الكلمة السوية الذين مازالوا في عطاء دائم لم ولن ينقطع أبداً.. هذه العطاء المستمر لم تؤثر فيه مثل هذه الحادثة المنفرة التي جعلته يقضى أكثر من خمسة وأربعين يوماً داخل جدران السجن.. وله ولنا مع هذه الأيام ذكريات نعرفها من خلال متابعة «متأنية» لتفاصيل هذا الحوار.

## **\*\* كم مرة دخل فيها الأستاذ الكاتب الكبير والمفكر المصرى المعاصر مختار السويفى السجن؟! \***

- أنا الحمد لله لم أدخل السجن سوى مرة واحدة. وهى هذه المرة التى سوف أحكى لك عنها! وأرجو- بل وأتمنى - أن تكون المرة الأولى والأخيرة.. وظروف هذه المرة.. أو تقدر تقول سببها اننى كنت قد نشرت كام مقالة فى جريدتى الجمهورية والأهرام ما بين سنة ١٩٧٤ وأواخر ١٩٧٦..

## **\*\* اسمح لى أن أقطع حوار هذه النقطة.. وأسأل.. فى سنة كام دخلت السجن؟! \***

- فى عام ١٩٧٧.. فى أعقاب الحركة التى تمت فى مصر أيام ١٨ و ١٩ يناير والتى أطلق عليها الرئيس السادات «انتفاضة» الحرامية!..

وحين نعود لحديث الأسباب.. أقول لك إننى كنت قد نشرت عدة مقالات فى جريدتى الجمهورية والأهرام.. وكنت وقتها أعمل «مدير عام» فى قطاع النقل البحرى، وكان الرئيس السادات قد أصدر ورقة أكتوبر التى كانت مقدمة لقرارات الانفتاح الاقتصادى.. وقد لاحظت من خلال متابعة خاصة أن هناك شبه هجوم على قطاع النقل البحرى الذى كنت أنتمى إليه.. هذا القطاع به العديد من التخصصات والأنشطة المتعددة.. ومع ذلك لاحظت وجود نوع من التركيز الهجومى على تخصص واحد فقط وهو «التوكيلات البحرية».. حيث اتضح أن غالبية الذين بدأوا فى الأخذ بسياسة الانفتاح يركزون جهودهم على هذا الجانب دون جوانب النقل البحرى الأخرى.. وطبعاً السبب فى ذلك أن هذا القطاع من أكسب وأربح قطاعات النقل البحرى.. أضف إلى ذلك أنه قطاع لا يحتاج إلى جهد أو فن أو علم.. الحكاية مجرد دكانة أو مكان صغير حتى ولو صرف عليه نصف مليون جنيه.. واستطاع صاحب هذا المحل أن يحصل على توكيل ملاحى.. من المؤكد أنه سوف يعوض هذا النصف مليون فى الأسبوع الأول!..

إذن فيما يخص هذا القطاع لم تكن العملية مقصوداً بها الانفتاح من أجل مساعدتنا.. ولكن من أجل نهب أموالنا. وكان هذا هو موضوع مقالاتى التى كتبتها أولاً فى جريدة الأهرام.. وتساءلت من خلالها: لماذا التركيز على جانب التوكيلات

الملاحية دون النظر إلى قطاعات النقل البحري الأخرى!! وقد بلغ عدد هذه المقالات اثنتى عشرة مقالة.. ثمانى مقالات بالجمهورية وأربع بالأهرام.. وكلها تناولت هذا الجانب وما يتفرع عنه من موضوعات أخرى.. أول مقالة نشرت فى هذا الموضوع كانت فى منتصف عام ١٩٧٤ وأخرها فى أواخر عام ١٩٧٦.

ودعنى أقول لك قبل الانتقال إلى سؤال آخر.. عن فحوى هذه المقالات، لأنه رغم أنها كانت تتناول هذا الجانب من موضوع النقل البحرى إلا أنها تناولته من مختلف الجوانب. فمثلا بعض هذه المقالات كان إقتصاديا صرفاً.. يعنى أقول فيه على سبيل المثال شروط الإستثمار فى النقل البحرى.. وطالبت فى إحدى هذه المقالات بأنه إذا كان ولا بد من تأثير النقل البحرى بسياسة الإنفتاح فلماذا لا يأتون إلينا بسفن جديدة ترفع أعلام مصر.. أو ناقلات بترول.. أو إنشاء موانئ جديدة حتى ولو كانت قطاعا خاصا.. أو يدعموا الأرصفة البحرية الموجودة، إلى آخره.. بجانب ذلك كانت هناك بعض المقالات نشرت بمساعدة الكاتب الكبير محسن محمد الذى كان يرحب بهذه النوعية رغم خوفى شخصيا وخشيتى من رفضه لها. ومن هذه النوعية ما كتبتة عن أحد المستثمرين فى مجال قطاع النقل البحرى.. هذا المستثمر الذى ظهر فجأة على الساحة الإقتصادية المصرية.. حيث ادعى أنه مهندس وأطلق على نفسه كبير المستثمرين العرب!! إنه شىء وهمى من هذا القبيل. وهذا الرجل استطاع فى سنوات قليلة أن يجمع ملايين الدولارات من المصريين فى الدول العربية وجاء إلى مصر وافتتح شركة للملاحة البحرية.. وقد لاحظت أنه رغم ما يبدو على نشاطه من مشروعية، إلا إننى اكتشفت فيما بعد أن هذا المستثمر قد جاء من أجل تخريب الإقتصاد القومى مستغلا سياسة الإنفتاح هذه، وقد إتضح هذا الاتجاه حين لاحظت إنه كان يلجأ إلى توظيف أبناء بعض المسئولين بالدولة من أجل التغطية على أعماله غير المشروعة.. وطبعا الحكاية كانت معروفة.. فقد جمع هذا الرجل كل هذه الملايين وإنطلق بها هاربا إلى خارج مصر. وبذلك اتضحت صحة شكوكى التى كتبتها قبل هروبه بعدة سنوات.

والملاحظة التى تستطيع أن تصل إليها فى نهاية الأمر أن كل هذه المقالات التى سجت بسببها كانت مقالات فى موضوعات بعيدة عن السياسة.. ولم تخرج عن خط

نقد بعض السياسات الخاطئة في مجال النقل البحري!! ولعلك تندesh إذا ما عرفت أن هذه المقالات قد تركت أثرا طيبا على مستوى المهتمين بالنقل البحري كله.. بل وعلى مستوى بعض الاقتصاديين المهتمين بهذا القطاع..

ولم يدر في ذهني أبداً.. أنني يمكن أن أدخل السجن بسبب هذه المقالات التي لم تكن تهدف سوى الصالح العام!

ولعلني أذكر لك أن هناك - بجانب هذه المقالات - أسبابا أخرى تأتي في المقام الثاني.. وهى موقفى من المرحوم عصمت السادات وأخيه البذى أراد أن يدخل مجال النقل البحري.. ولولا وقوفى ضده في هذا المجال لكان هو الآخر قد استطاع أن يجمع الملايين من قطاع التوكيلات البحرية!.. ورغم أنني لا أجزم بوقوف عصمت السادات بشكل مباشر ضدى في هذه القضية إلا أنني استنتجت ذلك.. والسبب ربما يرجع إلى أن هذه المقابلة وقعت عام ١٩٧٦ - ربما في سبتمبر أو نوفمبر من عام ١٩٧٦ - وقبل وقوع هذه الأحداث بشهرين أو ثلاثة!

**\*\*\* ليسمح لنا الكاتب والمفكر أن يحكى لنا عن ظروف اعتقاله!؟**

- هو أنا كان يوم الجمعة الساعة الثانية والنصف صباح يوم ٢٢ يناير عام ١٩٧٧.. وأثناء وقوع الأحداث التى سبق وحكى لك عنها وهى أحداث ١٨ و ١٩ يناير! وعلى ما أذكر أنه قد صاحب وقوع الانتفاضة منع التجول. ومع ذلك لاحظت وأنا كنت ساكن وقتها بحى غمرة الذى يطل على شارع رمسيس.. وكنت وأنا سهران أسمع الناس تهتف في الشوارع رغم سريان هذا الحظر. ورغم أنني كنت أسكن بالدور السادس. وعلى فكرة أنا لا أنام بالليل كثيرا لأننى أعشق الليل وأعشق العمل في هدوئه.. وقتها على ما أذكر كنت مشغولاً للغاية في حل مشكلة متعلقة بالنقل البحري.. وكنت وقتها أقلب في أوراقى الخاصة من أجل البحث عن حل.. وكان معى وقتذاك ملف هذه المشكلة كى أدرسه بعناية.. وكنت قد بدأت ساعتها كتابة التقرير المفروض أن أقدمه وفيه الحل الذى نبحث عنه.. وفجأة دق جرس باب شقتى.. وقد أصابتنى الدهشة من طريقة الطرق على الباب لأنها كانت طريقة إستفزازية.. وأقسم لك بالله أنني حتى تلك اللحظة لم أكن أتخيل أنهم قوة من رجال البوليس.. وكل ما تصورته أنهم مجموعة



المشاغبين الذين كنت أسمع أصواتهم منذ دقائق في قلب الشارع! لذلك أصابنى القلق واتخذت وضع الاستعداد.. وقمت من فورى كى أتأكد مما صورته.. فنظرت من العين السحرية الموجودة بالبواب.. فوجئت برؤية عدة أنفار ومخبرين ومعهم اثنان من أمناء الشرطة وقائد من رجال البوليس بالزى المدنى.. قمت بفتح الباب.. وعلى الفور سألونى.. إنت مختار السويفى؟! وقبل أن أجيبهم انطلقوا داخل الشقة!. وقاموا بحملة تفتيش واسعة!! خاصة فى المكتبة، وبعد أكثر من ربع ساعة رأيتهم وقد عثروا على بعض الكتب وأخذوها إلى جنب.. منها كتب أدبية لجموعة من الأدباء الروس!. ويحضرنى هنا أن أروى لك أننى قد عزمت على هؤلاء الضيوف أن أقدم لهم أى تحية حتى ولو كوب شأى.. فرفضوا وخاصة ضابط البوليس. ولكن منظر المخبرين والإرهاق الظاهر فى وجوههم جعلنى أقدم لهم الشأى.. وسرعان ما استجاب الضابط هو الآخر حين عرضت عليه أن يشاركنى فى كوب الشأى.. بعد التفتيش عثروا كذلك فى درج مكتبى على مبلغ ألف دولار وألف جنيه وتذكرة سفر.. ومنذ هذه اللحظة التى أخذوا فيها هذه النوعية من الكتب أحسست بما هو قادم!!.. إننى أصبحت الآن محسوباً على التيار الشيوعى!! وإلا لماذا لم يأخذوا مثلاً دائرة المعارف البريطانية أو كتباً أخرى من هذا القبيل. ورغم ذلك كنت شديد الاطمئنان لأننى كنت قد اشتريت هذه الكتب من المكتبات العامة.. ولا ضرر من الإحتفاظ بها..

المهم.. أعود كى أحكى لك قصة الألف دولار والتذكرة التى عثروا عليها وهى خاصة بسفرى إلى دولة سنغافورة.. لقد لاحظت أنهم أخذوا هذه الأموال.. وقد اعترضت بشدة، ولكن الضابط الذى تحول بعد لحظات إلى إنسان مصرى لطيف طمأننى بأن كل شئ محفوظ.. وبالتالى وضعهم بجانب الكتب.. والألف دولار هذه لا تتصور قيمتها على نفسى كبيرة، فقد حصلت عليها من مكتب الأمم المتحدة كى أصرف منها خلال رحلتى إلى سنغافورة.. حيث اختارونى محاضراً دولياً فى شئون النقل البحرى ممثلاً لمصر ولدول الشرق الأوسط. وكنت سوف أسافر بعد هذا الحادث المشؤم بأيام إلى سنغافورة كى التحق بدورة تدريبية لإعداد محاضرين فى اقتصاديات النقل البحرى للدول النامية.

ولكن للأسف لم يتحقق هذا الحلم.. وأقول للأسف لأننى بعد نجاحى فى الحصول على هذه المنحة الدولية ممثلاً لمصر وممثلاً للشرق الأوسط، لم أتمكن بسبب حادث السجن من تحقيق هذه الرغبة. وأنا أذكر أن هذه الدورة كان من المفروض أن تبدأ من ٦ فبراير عام ١٩٧٧ وتستمر لمدة ستة أشهر. وبعد تفتيش الشقة.. طلب منى الضابط أن يصحبنى معه من أجل استكمال بعض الاجراءات على حد قوله! وحتى هذه اللحظة لم أكن أتصور أن المسألة يمكن أن تكون عقوبة أو اعتقالات لأننى - وكما ذكرت لك - لم ارتكب ذنباً أعاقب عليه. وقد كرر الضابط على مسامعى أن المسألة مجرد شكليات وربما تستغرق ساعة واحدة، وبعدها تعود إلى المنزل. وقد وافقته على ما طلب منى.. وقد حدث أيضاً شىء غريب فى هذه اللحظة ويثير السخرية والضحك فى آن واحد.. فعندما خرجت من غرفة المكتب من أجل تغيير ملابسى استعداداً للرحيل.. فوجئت باثنين من أمناء الشرطة يقفان على باب حجرة النوم التى أغير فيها ملابسى!! وطبعاً خوفاً من الهرب أو أننى قد أقفز من الشباك أو شىء من هذا القبيل.

وبعد أن ارتديت ملابسى.. أشار على الضابط بهدوء أن آخذ بعض احتياجاتى الشخصية فى شنطة صغيرة.. وعلى الفور بادرته بالقول: إذن المسألة حثتول؟! فردد نفس كلماته الأولى بأنها مجرد شكليات! المهم أخذت الشنطة التى أشار على بها.. وقبل أن تغادر الشقة استفسرت منه: هل لديه إذن من النيابة؟! وكان يحمل بالفعل هذا الاذن المدون فيه بعض المعلومات العامة.. وليس فيه اسمى بالتحديد.. ونزلنا من الشقة وركبت معه فى سيارته الملاكى الخاصة به. وانطلقنا نسير طوال الليل حتى سجن مزرعة طرة.. حيث فوجئت بأن السيارة لم تذهب بنا إلى مكتب المباحث كما وعدنى.. بل ظلت تسير بمحاذاة كورنيش النيل مما زاد جرعة الشك فى نفسى.. وأردت أن أتأكد فسألته للمرة الأخيرة: ما هى الحكاية؟! وأين نحن ذاهبون؟! فرد على بنفس طريقته الهادئة: المسألة إن اسمك جاء فى كشف المطلوب اعتقالهم.. وأنا من ناحيتى.. - والكلام ما يزال للضابط - أعرف أنك مظلوم.. وربما ما جعله يقول ذلك أنه حين جاء فى الفجر فوجئ بى أكتب المذكرة التى حكيت لك عنها، وكانت نحو عشرين صفحة كان يظنها فى بداية الأمر منشورات!! وقد أكد هذا المفهوم بداخله أننى أيضاً طلبت منه توصيل هذه المذكرة إلى مكتبى فى النقل البحرى لأهميتها الشديدة فى العمل.. وللحق فقد قام

بتوصيلها بكل أمانة.

المهم الآن ونحن على أبواب سجن طره.. شد هذا الضابط على يدي بقوة.. وإعتر لي باعتبار أن هذه المهمة من واجبه المكلف به. وقد ترك هذا السلوك في نفسي أثرا طيباً.. في وقت حدوث هذه المصيبة التي لم أكن أتوقعها.

وبعد دخول إلى المعتقل.. وبعد حملة تفتيش واسعة للملابس وملابس غيرى من المعتقلين الآخرين الذين قدموا معنا.. وزعونا على الزنازين.. كل واحد في زنزانه إنفرادية حقيرة وقذرة.. ولم يكن بها أى شىء يدل على صلاحيتها للإقامة فيها حتى لكب أجربا.. وظللت بها هكذا لمدة ثلاثة أيام حيث أضافوا لنا في نفس هذه الزنزانه ثلاثة مساجين معتقلين مثلي.. ولم تتعد مساحة هذه الزنزانه مترين \* متر! فكيف نستطيع أن ننام بداخلها.. بل أكثر من ذلك - وبعد ثلاثة أيام أخرى أضافوا لنا معتقلين جديداً فأصبحنا خمسة أفراد في المساحة الضيقة!!

ودعنى أقول لك شيئاً هاماً جداً اكتشفته لحظة وجودي منفرداً داخل هذه الزنزانه القذرة.. هو أن الثانية والدقيقة كانت شيئاً ولا الدهرا.

ولك أن تتصور أننى بعد قضاء أسبوع في هذا الحيز الغريب لم أكن أعرف سبب الاعتقال أو هدفه أو متى سينتهى!؟ وكل ما كنت أسمعه من بقية الزملاء الموجودين بالزننازين الأخرى.. أننى اعتقلت بسبب الشيوعية.. وقد عرفنى بذلك الشاعر أحمد فؤاد نجم الذى كان مسجوناً في الزنزانه المجاوزة.

**\*\* لو أردنا أن نعرف من الأستاذ مختار.. كم قضى في السجن.. ماذا يقول!؟**

- أنا قضيت في الاعتقال وفي سجن طره بالضبط ٤٥ يوماً.. وهى المدة الشرعية بتاعتهم التى بعدها لابد من الإفراج أو تجديد الاعتقال.. وطبعاً يرجع الفضل في ذلك بعد ربنا إلى القضاء المصرى المدنى العادل.. حيث كانت ادارة السجن تسمح لكل معتقل أن يتظلم إلى محكمة مدنية.. ووفقاً لما لدى هذه المحكمة من معلومات يحق لها أن تفرج عن المسجون أو تجدد حبسه أو اعتقاله. وكان لابد أن يتم النظر في هذا التظلم خلال

شهر من الاعتقال.. والشئ الغريب أنك لابد أن تمكث خمسة عشر يوماً داخل السجن حتى بعد قرار المحكمة بالإفراج عنك. وهذا بالضبط ما حدث لى..

**\*\* يعنى نقدر نقول: ما هى أهم الاجراءات التى تم اتخاذها من أجل الإفراج عنك؟**

– أعود وأقول لك إن إدارة السجن فى كل فترة تمر على الزنازين من أجل تسجيل أسماء المعتقلين الذين يطلبون التقدم بتظلم.. فياًخذون اسمك فى كشف كبير ثم يخبرونك فيما بعد بموعد الجلسة. وقد تقدمت بتقييد اسمى بجانب ما قام به بعض المحامين من أصدقائى حيث بلغ عدد هؤلاء المحامين خمسة محامين!

وسبق أن ذكرت لك قصة الثلاثين يوماً ثم قصة الخمسة عشر يوماً التى يجب أن أقضيها فى السجن حتى بعد قرار المحكمة بالإفراج.. والسبب فى ذلك إتاحة الفرصة للحاكم العسكرى للتصديق على الحكم إما بالموافقة على الإفراج أو الإلغاء.. ولك أن تتصور كيف قضيت هذه المدة. لقد عشت أياماً مرعبة خاصة آخر يوم.. لقد كنت أتصور – رغم براءتى – أن الحاكم العسكرى من الممكن أن يرفض الإفراج عنى. والحمد لله فقد صدق الحاكم العسكرى على قرار الإفراج وخرجت مساء اليوم الخامس والأربعين. ولعلنى أسجل هنا بهذه المناسبة تحية خاصة لرجال القضاء المصرى العادل الذى تحمل خلال هذه الفترة عبء الإفراج عنى وعن غيرى من الزملاء المفكرين المعتقلين. وعلى ما أذكر أنه فى نفس الجلسة قد تم الإفراج عن أكثر من تسعة عشر من غيرى من المعتقلين.

**\*\* .. كما عرفنا سبب الاعتقال.. ما هى الأسباب التى استندت إليها المحكمة فى قرار الإفراج؟!**

– والله الأسباب كما ذكرها المحامون المدافعون عنى.. هى جهودى فى مجال النقل البحرى وجهودى الفكرية والأدبية.. بجانب أننى لم أكن منتمياً لى حزب أو جهة سياسية.. ولاتتصور أن هذه الأسباب قد قيلت أمام المحكمة فقط.. بل سبقها تحقيق

داخل السجن.. ومن المؤكد أن المحكمة قد استندت إلى هذه الأسباب أيضا. فقد أجرت نيابة أمن الدولة معنا تحقيقا ونحن خلف الجدران.. وقلت فيه إننى جئت هنا على سبيل الخطأ. واكتشفت فيما بعد أنها كانت تحقيقات مبدئية للغاية. ولكننى فى أثنائها عرفت التهمة الموجهة لى بالضبط.. لقد كنت متهما بالماركسية وأننى أكتب مقالات تهاجم الانفتاح الاقتصادى وتحمل أفكاراً ماركسية.. وأننى كنت أعد خطة للهروب إلى سنغافورة بناء على تذكرة السفر التى ضبطت بدرج مكتبى.. ليس هذا فقط.. بل إننى قد تلقيت دعما مادياً من الخارج بسبب الألف دولار.. وأكثر من ذلك أن الألف جنيه المصرية التى حكيت لك عنها.. كانت مسلسللة الأرقام وكل مائة جنيه منها كانت مدبسة بدبوس.. الأمر الذى جعل جهات المباحث تعتقد - بل تكتب فى تقاريرها - أن هذه الأموال كانت معدة للتوزيع!! أيضا كانت هناك تهمة أخرى وهى أننى ألقى محاضرة عن الديمقراطية لبعض العمال!. وكانت مفاجأة أيضا فلم يحدث أبدا أن ألقى أى محاضرة من هذا النوع.. وفى التحقيق اكتشفت ما يمكن أن يضحكك عاماً كاملاً. فقد كنت أزور الفنان والرسام زهدى أثناء قيامه بإعادة طلاء شقته، وكان بهأنذاك أحد العمال وزميله.. وقد اشتركا معنا فى مناقشة كانت بينى وبين زهدى وزائر آخر أعرفه.. حيث وجه أحد هذين العاملين سؤالاً لى عن مفهوم الديمقراطية باعتبار أنها كلمة يسمعونها كثيرا ولا يعرفون معناها!!.. وبالتالى أخذت أشرح لهما معناها كما جاءت فى اللغة اليونانية.. وتتصور أن الذى أوصل هذه المعلومة إلى رجال المباحث كان أحد هذين العاملين!!.. وقد وجدت مدونة أمام المحقق الذى جاء كى يأخذ أقوالى فيما نسب إلى.. ليس هذا فقط، بل فوجئت بأن الزائر الآخر الذى كان موجودا معنا فى بيت زهدى وهو الصحفى الأستاذ الفنان عبد المنعم القصاص قد جروا رجله فى هذه القضية بسبب هذه الزيارة مع انه لم يتكلم إطلاقا، وظل ساعتها يستمع فقط.. هذا بالإضافة طبعا إلى الفنان زهدى.. وتعرف التهمة المدونة كانت إيه؟!!.. أننا نزود هؤلاء العمال بأفكار هدامة.. تصور!! لقد كانت هذه التهم بالنسبة لى تهماً بشعة ومرهقة نفسيا..

**\* وهل نستطيع أن نقول أن نزاهة القضاء المصرى هى السبب فى خروجك من هذه الورطة إن جاز التعبير؟**

- دى فعلاً حقيقة!.. وكانت فرصة كى أرد على كل ما جاء بتقرير المباحث من إتهامات.. وكانت المحكمة آنذاك واسعة الصدر حيث استمع القاضى إلى كل ما قلته وبأمانة. وعلى ما أذكر أن رئيس المحكمة كان هو المستشار الصديق..

**\* ما هو تأثير تجربة السجن على الكاتب والإنسان مختار السويفى..؟!**

- تبدأ هذه التجربة منذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها الزنزانة التى حكيت لك عنها.. فى فجر يوم ترحيلنا من المنزل إلى سجن طره.. لاحظتها فقط شعرت بقيمة الحرية التى وهبها الله للإنسان.. لقد اكتشفت أنها أعظم نعمة من الله، خاصة وأنت سجين زنزانة منفردة!.. ومما زاد من آلام النفس قذارة المكان الذى دخلت إليه والذى بات عليك أن تقيم فيه رغماً عنك.. ولا أستطيع أن أصف لك مقدار هذه القذارة النابعة من الروائح الكريهة المنبعثة من «جردل البول والبراز» الموجود بجانبى لمدة ٢٤ ساعة!

أضف إلى ذلك شكل الباب الحديدى الكتيب.. وهو باب الزنزانة الذى ينبعث منه صوت مخيف حين إغلاقه. واستمرت هذه الوحدة فى الحبس الانفرادى حتى أضيف لنا آخرون كما حكيت من قبل.

**\*\* وبخصوص ما يتعلق بالورق والقلم.. هل كان يسمح لكم بالحصول عليه؟!**

- الورق والقلم كان من الأشياء المستحيلة.. لكن الشئ الجديد أنه فى الأسبوع الأخير قبل الإفراج.. سمحوا لنا بقراءة الصحف، كما سمحوا لنا بالكتب سواء التى تأتينا من الخارج أو التى نستعيرها من مكتبة السجن!

**\*\* وهل تعرضتم لتعذيب؟!**

- أبداً.. وهذا هو الشئ الغريب الذى حدث فى سجون مصر فى فترة ما بعد منتصف

السبعينات.. وهقولك ليه؟!.. لأنه كان في هذه الفترة تجرى محاكمة الضباط الذين اتهموا في قضايا تعذيب المعتقلين.. وطبعاً كان هذا في تصووري هو السبب الرئيسي.. ولولاه لتعرضنا للتعذيب مثلما تعرض غيرنا من قبل. حتى أثناء إجراء التحقيقات معي داخل السجن.. كانت تتم بعيداً عن شبح التعذيب!.. وأكثر من ذلك فقد اتسمت معاملات ضباط السجن آنذاك بشيء من الرحمة والإنسانية.. ويمكن ده كان موضع استغراب.. وربما يكون ذلك راجعاً إلى إحساس الضباط أنفسهم بأننى دخلت هنا بقضية فكرية ملفقة!!..

**\*\* كم كتاباً ألتموه خلف الجدران؟! أو حتى ما هى الأفكار التى خرجت بها من هذه التجربة!!**

- أنا لم أكتب كتباً في السجن.. ولكننى كتبت قصصاً قصيرة وهربتها إلى خارج السجن ونشرت في مجلة صباح الخير وأنا مسجون. ومن بعد خروجى جمعت هذه القصص مع ما كتبت من قصص سابقة ونشرتها في كتاب بإسم «مساخر من العاصمة والأقاليم». وعلى ما أذكر في هذه الفترة وأنا داخل هذه الجدران السوداء كتبت قصة بعنوان «واحدة أرتيست».. وكان المرحوم حسن فؤاد رئيساً لتحرير صباح الخير، وكنت وقتها أنشر فيها القصص القصيرة التى أكتبها.. وبعد تهريبها نشرت في العدد الجديد.

وقد نبهنى إلى نشرها حكمدار عنبر السجن وهو العقيد محمد صفوت.. وكان من الضباط المصريين المحترمين.. حيث جمعتنا سوياً جلسات متعددة عرف من خلالها مشكلتى ووظيفتى.. وربما أقول إننا تحولنا إلى أصدقاء في الفترة التى سبقت خروجى من السجن مباشرة.

**\*\* .. وكـم كتاباً ألتموه بشكل عام؟! ..**

- هم حتى الآن بلغوا ٥٤ كتاباً..

**\*\* .. وقبل الإعتقال..؟! كم كان عددهم؟! ..**

- مؤلفاتى جميعاً قبل دخولى السجن.. كان معظمها في مجال النقل البحرى.. وربما

أكون المصرى الوحيد الذى له مؤلفات بهذه الغزارة فى هذا الميدان.. لأن أغلب هذه المؤلفات كانت باللغات الأجنبية.. وكتبها مؤلفون أجانب.. بالإضافة إلى ذلك كانت لى كتب أخرى فى الفن والأدب ومسرح العرائس.

وقد تغير مؤشر النوعية بعد خروجى من السجن.. فكتبت أدباً ساخراً ومؤلفات عن آثار مصر وتاريخها القديم.. ومازلت أكتب كتباً عن النقل البحرى وآخرها «قاموس مصطلحات النقل البحرى والتجارة الخارجية».

### **\*\*.. ومن هى أهم الشخصيات التى قابلتموها فى فترة الاعتقال؟**

– طبعاً تعرفت على شخصيات كثيرة جداً.. بعضهم من اليساريين.. مثل الشاعر أحمد فؤاد نجم.. ومن غير اليساريين أحد المحامين واسمه صلاح القفص.. وهو محام من محافظة الغربية وأيضاً كانت تجمعنى به علاقة خاصة من واقع دخوله السجن فى قضية سياسية ملفقة مثلى تماماً.

وأيضاً تعرفت على الصحفى الأستاذ عبد المنعم القصاص.. زوج الزميلة الأستاذة الصحفية أمينة شفيق.. وأيضاً العقيد محمد صفوت الذى سبق الحديث عنه.. وكذلك المستشار يوسف دراز الذى حقق معى أثناء إعتقالى فى السجن.. وتقدر تقول إن علاقتى بهؤلاء قد قلت كثيراً.. وتتم الآن فى صورة ضيقة وبشكل تلعب فيه الصدف دورها.

### **\*\* وهل هناك شخصيات أخرى جمعتكم بها قصص وحكايات داخل السجن غير الذين ذكرتهم؟!**

– طبعاً فيه كتير.. ودعنى أحكى لك عن بعض الحكايات الطريفة التى حدثت لى داخل السجن.. فقد كانوا يسمحون لنا بفسحة خارج الزنازين من الساعة العاشرة حتى الثانية عشرة ظهراً.. ثم فسحة أخرى من الساعة الثانية حتى الرابعة عصراً وهو موعد التمام واغلاق الزنازين على المساجين. وفى هذه الفسح تعرفت على الكثيرين من اليساريين الشباب المتحذلقين فى الاشتراكية قوى قوى.. والذين يتكلمون بلغة «الحنجورى» حسب التعبير الظريف الذى ابتدعه الكاتب الساخر الأستاذ محمود



السعدنى.

وفى إحدى هذه الفسح تقدم منى أحد هؤلاء الشباب وسألنى هامساً: هو حضرتك «طيّار» (هكذا سمعت الكلمة).

فقلت على الفور: لا.. أنا باشتغل فى النقل البحرى..

قال: أنا عارف.. بس هل صحيح أنت طيار..

قلت: يابنى بأقول لك أنا بشتغل فى النقل البحرى.. أبقى طيار إزاي..

قال: أنا قصدى هل أنت «تيار ثورى»؟..

قلت: وإيه التيار الثورى ده كمان؟

قال: حضرتك متعرفش تنظيم التيار الثورى؟!

قلت: لا والله.. دى أول مرة باسمع أن فيه تنظيم اسمه التيار الثورى!

وانتهى الحوار عند هذا الحد.. ولكن فى اليوم التالى ذكر لى الشاعر أحمد فؤاد نجم أن الشباب بتوع تنظيم (٧ يناير) مبسوطين منى ومعجبين بى ويعتبروننى قدوة فى القيادة التنظيمية، نظراً لأنى السكرتير العام للجنة المركزية لتنظيم «التيار الثورى» ومع ذلك فأنا أخفى المنصب التنظيمى الذى أشغله ولا أبوح بسرّه لأحد!!

– يانهار أسود!.. إن هذا الإعجاب يودينى فى ستين داهية!!.. وإيه حكاية تنظيم «٧ يناير» ده؟

استنكر أحدهم هذا السؤال وقال لى بحدة:

– أنت حتريق علينا يا رفيق..؟!

أجبت بحدة أكثر: والله عمرى ما سمعت عن تنظيم اسمه «٧ يناير».. أنا أعرف إن ٧ يناير هو عيد ميلاد المسيح عليه السلام لدى طوائف الكنيسة الشرقية.. وأنه أيضاً تاريخ ميلادى أنا شخصياً!

وهنا تساءل بسخرية: يعنى حضرتك عايز تقول إنك انت الى عملت تنظيم ٧

يناير..١٩٠٠

كان من الصعب أن يتم حوار معقول بينك وبين مثل هؤلاء المتحذلقين «الأسياخ».. كانوا لا يملكون الحديث عن الاشتراكية والمادية الجدلية وأفكار ماركس وأنجلز ولينين وتروتسكى وماوتسى تونج. ولا يطبقون الحديث عن تاريخ مصر القديم أو الحديث أو عن الزعماء الوطنيين المصريين أمثال عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول..

وحكاية طريفة لاتقل طرافة عن الحكاية السابقة.. فقد اكتشفت شيئاً جميلاً جداً فى حوش العنبر الذى توجد الزنازين على جانبيه، وهو حوش واسع عرضه نحو ثلاثة أمتار وطوله نحو خمسة عشر متراً، ويتجمع فيه ساعة الفسحة نحو مائة معتقل..

وقبيل الظهر من كل يوم، تنكسر أشعة الشمس متخطية الأسوار العالية التى تحيط بالعنبر من كل جانب، وتنعكس على ركن الجدار الأيسر للعنبر.. وكانت هذه الجدران مدهونة بالجير الأبيض منذ مدة طويلة.. ربما منذ أيام محمد على الذى بنى ليمن طره فى عهده.. وربما بسبب الرطوبة والزمن تخمرت طبقة الجير الأبيض وكوّنت ذراتها فى بعض الأركان حبيبات دقيقة جداً على شكل بللورات أو كريستالات متناهية فى الصغر. ولكنها تعكس أشعة الشمس المنكسرة عليها وتجعلها إلى جميع ألوان الطيف من اللون الأحمر فى طرف إلى اللون البنفسجى فى الطرف الآخر، مروراً بالألوان المبهرة الأخرى كالأزرق والأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر.

كنت أجد متعة عظيمة فى النظر إلى هذه الكريستالات من زوايا مختلفة، حيث تتشكل الألوان فى تركيبات طبيعية فى منتهى الجمال والروعة.. وكنت أقضى معظم وقت الفسحة متأملاً فى تلك التشكيلات اللونية ومستمتعاً بسعادة لا حد لها.

وحتى هذه المتعة الرائعة لا يتركك الزملاء لكى تتمتع بها.. فقد تقدم إلى أحد اليساريين المعروفين - وكان اسمه الأستاذ فاروق - وجذبني من ذراعى وهو يعاتبني بشدة على هذا الإنزواء والوحدة والصمت والإنعزال عن الآخرين.. وهم لا يرضون أن أضع وجهي فى الحائط بمجرد خروجي من الزنازنة، ويجب على أن أتحمل والأأتالم على هذا النحو الغريب.

وعبثاً حاولت أن أشرح له أنى لا أتألم ولا يحزنون، وإنما أتمتع بمشاهدة التشكيلات والتكوينات اللونية التى تكونها بللورات الجير، ولكنه لم يقتنع بهذا الكلام، وقال إن مثل هذه الخيالات قد تؤدى بى إلى الجنون وإنى لابد أن اختلط بالآخرين واندمج فى الحديث مع الرفاق!

وطبعاً تعرفت أيضاً على بعض الشخصيات الأخرى من عالم السجن، فقد كان هناك بعض المساجين يأتون بهم إلى العنابر التى نقيم بها من أجل تنظيفها.. وخدمتنا.. ومن أهم الشخصيات التى تعاملت معها من هؤلاء شخصية السجن الحلاق!! حيث سمحوا لنا بعد مرور أكثر من خمسة عشر يوماً بحلاقة الذقن.. وطبعاً لايسمح لك فى هذه الحالات بإصطحاب أى ماكينة حلاقة أو موسى.. وأرسلت إلينا إدارة السجن هذا الحلاق ليحلق ذقن من يريد أن يحلق ذقنه.. وكان يستخدم فى عمله قطعة «جريد» طويلة وفى آخرها قطعة من شفرة موسى.. وتعرف كانت بتؤدى غرضها على أحن وجه.. وبعد فترة من تعامل مع الحلاق اكتشفت إنه محكوم عليه فى قضية قتل، ولك أن تتصور مدى الرعب الذى انتابنى بشدة.. ومن يومها رفضت تماماً حلاقة ذقنى حتى خرجت!!

شخصية أخرى تعرفت عليها من هذه النوعية.. ولكنه كان سجيناً أميناً.. فقد توثقت علاقتى به إلى درجة أنى إعتبرته أمين سر وجودى داخل الجدران.. فقد كان هو همزة الوصل بين أسرتى التى تبعث إلينا بالزيارة الأسبوعية وبينى. وكان له معى مواقف شجاعة.. إذ تحمل فى مرة من المرات تهريب إحدى خطاباتى لأسرتى. ولكن للأسف ضبط هذا الخطاب وعوقب السجن بسببى.. حيث رفض الاعتراف بأننى أرسلت معه الخطاب.. وهذا السجن كان يعرف كل أفراد أسرتى من كثرة تعامله معهم.

**\*\*.. وهل ترى السجن نقطة سوداء فى حياة المفكر؟!**

— أنا أعتبرها أسود نقطة فى حياة الإنسان.. والمفروض فى السجن أن يكون رادعاً لمن يرتكب جريمة.. ولكن المفكر لا يرتدع بالسجن.. وأسألك: ولماذا ندخل فى الأساس إلى هذا المكان اللعين؟!

وأرجو أن أقول لك أيضا أن أسود نقاط السجن تكون بالنسبة للرجل المظلوم.

**\*\*.. وبشكل عام هل ترى في السجن عقوبة رادعة للحد من الإجرام؟**

— شوف يا أستاذ.. إن الدارسين لعلم النفس الجنائي يرون في السجن مثلما تقول في سؤالك.. ولكن المفروض أن هذا الردع يخضع لعملية نسبية.. كيف!.. أقول لك.. إن القانون بنصوصه موجود منذ بداية حضارة الإنسان.. فهل تمكن هذا القانون من مقاومة الجريمة.. لا أظن؟.

وفي تصوري بالنسبة لأسباب وقوع الجرائم.. أرى ما يراه بعض الفلاسفة الذين شغلتهم هذه الخصوصية كثيرا من حيث أننا لو وفرنا الرفاهية التامة للناس فسوف تقع الجريمة.. وإذا عاش الناس في ضيق أيضا تكثر الجريمة.. وهنا تظهر نظرية النسبية في العقاب والتي حدثتك عنها.. فالجريمة إذن مرتبطة بحياة البشر على الأرض.. وبشكل عام لا بد من العقاب الذي يختلف من مجتمع لآخر.. ونشترط ألا يصاحبه تعذيب.

وبالنسبة للمفكرين بوجه عام.. طبعا من العيب أن نزج بهم مع السفاحين والقتلة ومرتكبي الجرائم الأخلاقية.. وأتمنى ألا تكون هناك عقوبة أو سجن أو اعتقال للمفكر!.. وإذا ما تحولت نظرة المسئولين إلى المفكرين على أنهم مجرمون.. فلا بد أولاً من محاكمتهم أمام محاكم مدنية.. ثم إفساح المجال أمامهم كي يقولوا كلمتهم.. وحتى لو فشلوا في إثبات أنهم ليسوا مذنبين.. وحكم عليهم بالعقوبة.. فلا بد من معاملتهم معاملة تخالف معاملة غيرهم من المجرمين الآخرين. والجرائم كثيرة، ومتنوعة. وأحب أن أسجل لك هنا شهادتي بهذا الخصوص.. إنه رغم السلبيات التي نعيشها وعشنا من خلالها، فإننا أسعد شعوب المنطقة العربية فيما يتعلق بهذه المسألة. فلدينا قدر كبير من الحرية.. وقدر كبير من الكلام.. حتى ولو لم يأخذ به، وهذا يجرتنا إلى موضوع هام وهو كيف نعالج الرأي المعارض بعيداً عن شبح الإعتقال أو السجن. فلكل مفكر حرية فيما يشاء أن يقوله مادام يبعد عن العنف ولا يخرج عن الورقة والقلم.. فالرأي المعارض له أيضا قيمة ولا بد من الاستفادة به.. وليس معنى المعارضة الخصومة..

ولكن حين تخرج هذه المعارضة عن شرعية الأوراق والقلم وتلجأ إلى وسائل أخرى للعنف، فهنا لابد وأن يتدخل القانون- وبحزم - لوقف هذا العنف الذى خرج عن شرعية الفكر، الذى لا ينادى أبداً بإستخدام أى وسيلة من وسائل العنف. وأمامنا القنوات التى يمكن أن نعبر من خلالها.. مثل وسائل الإعلام.

### **\*\* وما رأى الأستاذ مختار السويفى فى أحوال سجون مصر الآن؟!.**

- أنا حين اعتقلت دخلت مكان اسمه ليमान طره.. وبدخله وضعت فى قسم اسمه قسم الإستقبال.. وكان فى نظرى - وحسب المدة التى قضيتها فيه - من أسوأ الأماكن فى ليमान طره.. ولم أشاهد أماكن داخل هذا الليمان أسوأ حالاً منه.. ولكننى سمعت أن بداخل هذا الليمان أماكن أخرى جيدة.. وبها وسائل معيشة طيبة مثل السراير والبطاطين.

### **\*\*.. ماذا لو كنتم مأموراً للسجن.. أثناء اعتقال مفكرين.. كيف سيكون تعاملكم مع هؤلاء المفكرين؟!**

- هو طبعا هذه الحكاية محكومة بلوائح ونصوص.. وأنا كدارس للقانون أرى أن هناك عدة طرق لتفسير هذه اللوائح وهذه القوانين.. فعلاً لو كنت كما تقول فى هذا المنصب لأخذت الجانب غير الجامد فى تنفيذ هذه اللوائح داخل السجن. وأنا نفسى كنت أعامل داخل السجن فى أثناء فترة الاعتقال وفقاً لهذه اللوائح، ولكن بتفسير غير جامد ويتسم بالإنسانية من جانب بعض ضباط السجن.. وأقول البعض.. لأن الأغلبية كانت تتمسك بتطبيق هذه النصوص بشكل جامد وقاس.. وبالنسبة للمفكرين كنت سوف أتعامل معهم من هذا المنطلق.. خاصة العامل الإنسانى.. لأننى أتحرك فى حدود اللوائح.

### **\*\*.. وماذا لو كان الأستاذ مختار السويفى رئيساً للحكومة أو وزيراً للداخلية وعرضت عليه أسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم، ما هو رد الفعل الذى سيكون لديه؟!**

- لو كانوا مفكرين ومطلوب القبض عليهم.. فى هذه الحالة أرفض وأصبر.. وأنا أعلم

أنها أوامر عليا تفوق سلطاتي.. وأحاول أن أوصل صوتي بالإعتراض على هذا القرار.. وإذا لم أوفق أستقيل فوراً. وقد يتم تقديم هذه الاستقالة وقبولها سراً.. وقد يشاع وقتها أنني قد أقلت من منصبى.. إلا أنه فيما بعد سوف يفصح عن مضمونها وأسبابها.. وعندئذ سيقال.. إن هذا الرجل المسئول قد استقال، لأنه رفض أن يسجن مفكراً.. وما أقصده هنا مرة أخرى هو المفكر الذى لا يستخدم وسائل العنف لتوصيل رأيه للناس.

## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
حكايتى مع السجن - كم مرة دخلت فيها السجن.....	٧
● الحكاية الأولى: يرويها مصطفى أمين	
تزعمت عصاة من المساجين لتهريب الورق والقلم.....	٢١
● الحكاية الثانية: يرويها محمود السعدنى	
الولد الشقى يكتشف حياة أخرى داخل السجن.....	٣٧
● الحكاية الثالثة: يرويها دكتور عبد الصبور شاهين	
لم يستطع السجن أن ينزع ما بداخل مرأفكار.....	٥٥
● الحكاية الرابعة: يرويها الدكتور ميلاد حنا.	
دخلت السجن أستاذاً جامعياً وخرجت منه سياسياً ومفكراً.....	٧٣
● الحكاية الخامسة: يرويها لطفى الخولى	
اعتقلت ١٢ مرة.. خمس فى عهد الملكية والباقى فى عهد الثورة.....	٩٣
● الحكاية السادسة: يرويها جمال الغيطانى	
واكتشفت أن صرخات التعذيب داخل المعتقل..إسطوانة.....	١١١
● الحكاية السابعة: يرويها صلاح عيسى	
حكايتى مع السجن بدأت فى عهد عبىلناصر.....	١٢٧
● الحكاية الثامنة: يرويها جمال بدوى	
دخلت المعتقل وخرجت منه أحترم وأقدس حرية للرأى.....	١٤٣
● الحكاية التاسعة: يرويها مختار السويفى	
بسبب لم أعرفه دخلت السجن ظلوماً.....	١٦١





---

رقم الإيداع ٨٩٦٣ لسنة ١٩٩٢  
الترقيم الدولي  
I.S.B.N  
977 — 270 — 040 — 9

---







## حكاييتي مع السجن

كم مرة دخلت فيها السجن .. ولماذا .. ؟  
وما هي أحاسيسك ومشاعرك عندما كنت تعيش وراء القضبان ؟ ..  
وما رأيك في تجريم الفكر الخالص من شبهة العنف ؟ .. وهل يجوز أن يسجن  
المفكر مع المجرمين من اللصوص والقتلة ومرتكبي الجرائم الأخلاقية .. ؟  
وما هو تأثير تجربة السجن عليك ككاتب ومفكر ؟ .. وهل ألقت كتباً  
وأنت خلف الجدران ، أو ما هي الأفكار التي خرجت بها من هذه  
التجربة .. ؟

وما هي أهم الشخصيات التي قابلتها أو تعرفت عليها أثناء وجودك  
بالسجن ؟ .. وهل ترى السجن نقطة سوداء في حياة المفكر ؟ .. وما رأيك  
في أحوال السجون في مصر ؟ .. وإذا كنت مأموراً لأحد السجون فكيف  
تتعامل مع المسجونين بتهمة الفكر ؟ .. وإذا كنت رئيساً للحكومة أو وزيراً  
للدخالية وعرضت عليك قائمة بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم فما هو رد  
فعلك وكيف ستصرف .. ؟

هذه نوعية من عشرات الأسئلة المماثلة التي صاغها الكاتب الصحفي  
المميز « الأستاذ حنفي الحلاوى » بطريقة ذكية لتسبر الأغوار النفسية  
والفكرية لمجموعة من الكتاب والمفكرين المصريين الذين اعتقلوا أو سجنوا  
بسبب أفكارهم وكتاباتهم النظرية الخالصة الخالية من أى عنف أو لجوء  
لاستخدام القوة ..

أما الإجابات على تلك الأسئلة ، فكانت تختلف باختلاف منهج  
وشخصية كل كاتب أو مفكر من الذين يحكون حكاياتهم مع السجن في هذا  
الكتاب الممتع .. !

الناشر



طبعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالحق لروت - طبرون ٢٩٢٣٥٥ - ٢٩٢٦٧٤٣ - لاسكس : ٢٩٠٩٦١٨ - برقا : دار شادو - صرب : ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2012-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909616 CABLE DARSHADO